عبدالرحمن أمجد

أتروبوس

أرض الكوايس

ساحر الكتب

أتروبوس

اسم الكتاب: **أتروبوس .**

اسم المؤلف: **عبد الرحمن أمجد .**

تدقيق لغوي: **إسراء جمال .**

تصميم الغلاف: **محمد مجاهد .**

تنسيق داخلي: **ساندي شريف إبراهيم .**

رقم الإيداع: 2021/10857

الترقيم الدولي : 9789776887169

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

أى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية والآراء والمادة الواردة.

وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

E- mail: ebharpuplishing@gmail.com

تليفون: ٠١٠٦٠٢٦٧٤٠١

عبد الرحمن أمجد

أثروبوس

إبهار
للنشر و التوزيع

إهـــداء

إلى جدتي العزيزة، لم يُطِل الله لكِ بعُمرِك كي تري أحرفي، طبتِ حيةً وميتة.

إلى الجندي المرابط بين الأحرف والسطور، محمد ياسر الذي كان خير معين.

وإليك يا من تتحسّس عيناه سطوري، شكرًا لك.

المحيط المسطح
باندموتيوم
أرض الحديد
الممالك الخضراء
جسر ترايتون
إستيليريزيا
خندق الحافة
مملكة أتروبوس
ڤيلينيا
النهر الأحمر
الحصن الدامي
نهر الريڤز
مراعي ڤيلينيا
مملكة كروستافيا
أماليثيا
غابة الظلال
أرتالان
سلسلة جبال أرتلان
المحيط المسطح
N
W
E
S
مملكة أتروبوس

حياة مسالمة

صوت خطوات يتردد داخل إحدى الدهاليز، وعلى جانبيه تراصت أبواب غرف مغلقة، كان ذلك بقصر آل فالكون، حكام إقليم الرماد الذي يقع في مدينة أماليثيا عاصمة الإقليم، وبعد بضع دقائق توسَّط صاحب الخطوات الممرَّ الذي كان يمشي فيه لتظهر السيدة ديانا سيدة القصر، وكانت امرأة ستينيَّة ذات شعر رمادي يحارب به الشيب ليتم بياضه، مرتدية ثوبًا من الحرير الأبيض المطرز بخيوط الذهب وإن لم تكن مصنوعةً منه على كل حال.

صاحت بصوتٍ عالٍ: استيقظوا، حان وقت الإفطار.

قالتها لأبنائها الثلاثة الذين خرجوا من غرفهم كمن أُلقِي عليه دلو من الماء البارد، وما هي إلا بضع دقائق حتى اجتمعت الأسرة حول طاولة الطعام وعلى رأسها السيد نيكولاس فالكون سيد القصر وحاكم الإقليم، وحوله أبناؤه ابتداءً من الأكبر (راين) ذي الثلاثة وعشرين عام

ومرورًا (بدريك) الفتى الذي لا يزال في السادسة من عمره، وأخته الصغرى (إليا) والتي تصغر عن دريك بعامين.

أنهى الجميع طعامهم، ثمَّ أخذت ديانا طفليها دريك وإليا لخارج الغرفة قبل أن يهم راين بالخروج ليمنعه أبوه قائلًا بصوت رخيم: انتظر قليلًا يا بني.

ثمَّ سكت برهة وأردف: أريد أن أحادثك بأمرٍ هام.

أومأ راين له إيجابًا، ثمَّ قام نيكولاس متجهًا نحو شرفة الغرفة المطلة على حديقة القصر فتبعه راين إليها.

كان نيكولاس مُسنًا في السبعين من عمره، ذا قامة كانت طويلة قبل أن تنحني بفعل الشيخوخة، لم يحب أبدًا ارتداء الفخم من الملابس، ودائمًا كان يُفضل من الثياب أبسطها وأكثرها دلالة على مكانته دون ترفٍ زائد.

تأمل نيكولاس طفليه يلعبان في الحديقة، تسقط إليا فيمدُّ لها أخوها يده لتنهض بينما توبخ ديانا ابنتها على الفستان الذي اتَّسخ، وأخرج نيكولاس زفيرًا طويلًا، ثمَّ قال بنبرة تزينت بالهدوء والرزانة: لحظاتٌ من السلام، يجبُ أن نغتنمها كلما أتت.

ثمَّ سكت برهة وأردف بنبرة شاحبة: لأنها لا تدوم أبدًا.

التفت إلى راين أخيرًا وتابع: أتعلم يا بني أنَّ اجتماع الكبار سيقام بعد شهر من الآن؟!

ولمعت عيناه عندما قال: أريدك أن تذهب أنت بدلًا مني هذه المرة إلى هناك.

صُدِم راين فعلًا من طلب والده الغريب؛ فهذه مسؤولية عظيمة لأن اجتماع الكبار يجمع ممثلًا عن كل إقليم في العاصمة إستليريزيا كل ثلاث سنوات، وإعلانُ أبيه أنَّه من سيحضر مكانه لن يكون إلَّا لأمرٍ جلل.

أردف نيكولاس قائلًا: لقد أصبحتُ طاعنًا في السن كما ترى وجسدي لن يقوى على الرحلة، ثم إنَّني لن أجد من هو خير منكَ لهذه المهمة.

وصمت لحظة، ثمَّ عاد لداخل الغرفة وقال: حاولتُ طوال عمري تفادي الصدام مع الأفالون حتى وإن قدمت بعض التنازلات، لكنهم لا يكفون عن الطمع فينا.

عاد نيكولاس إلى مجلسه، وأشار لراين بالجلوس وأكمل: وصلتنا أخبار من العاصمة تفيد أنَّ الوضع داخل البيت الملكي متفكك بحق، إنَّ الملك أوبيريون لا يحب النزاعات بدوره لكن الأمير تورون يحرضه علينا باستمرار ويحشد الرأي ضدَّنا من الآن بالفعل.

أخذ يتجرع الماء من كأسه، ثمَّ أكمل: كما أنَّ البلاط منقسم على أحقية وراثة العرش بين تورون والأميرة فيروا؛ فبعضهم يرى أحقيَّة الأمير لكونه الابن الأكبر لكن البعض الآخر يرى حمقه البيِّن وحكمة أخته على الكفة الأخرى، وكلمة الملك وحدها هي ما سيحدد مصير البلاد.

أومأ راين في فهمٍ قبل أن يتابع نيكولاس قائلًا:

- لطالما كان العداء بيننا وبينهم أبديًا منذ أن أنهى ترايتون - مؤسس عائلة الأفالون - الحرب العظمى، واتهامه لنا بالتقاعس عن أداء واجباتنا، بل زاد الأمر بأن اتهمنا بخيانة أرضنا، كان ذلك منذ تأسيس أُتروبوس ويبدو أنَّ الزمن لم يمحُ تلك العداوة.

أخذ نفسًا عميقًا ثمَّ تابع: أريدك أن تذهب وتتابع أحوال البلاط، وتعمل على دعم كفة الأميرة قدر استطاعتك.

أخذ يسعل بشكل متتالٍ قبل أن يأخذ نفسه بصعوبة قائلًا: أما أنا فشيخ لا أصلح إلا لرفع معنويات جندنا هنا إذا حدث مكروه وجُررنا إلى الحرب.

ثمَّ التفت إلى الشرفة مُتأملًا إليا وقال: لا نريد المواجهة كخيار أول، إنني لن أجد من آمنه على هذا أكثر منك يا بني.

- كما تريد يا أبي.

قالها راين قبل أن يدلف دريك إلى الغرفة قائلًا: راين، ألم تعدني بأن تدربني على استخدام السيف؟!

قال راين ضاحكًا: اذهب واسبقني إلى ساحة التمرين ريثما أبدل ملابسي.

ارتسمت ابتسامةٌ عريضةٌ على وجه الطفل وهو يقول: حسنًا.

توجه راين إلى غرفته سريعًا، ثمَّ همَّ بإحضار ورقةٍ وبدأ يكتب عليها بنهم ـوأمارات السرور باديةٌ على وجههـ قبل أن يلفها بإحكام ويغلقها بختمين صغيرين من الشمع ـوكان قد تعلم فن توجيه الطيور منذ صغره

لحبه لأنواعها المختلفة من حمامٍ أو غدفانٍ رغم عدم تفضيله لذلك الأخير- ثمَّ نزل حاملًا الرسالةً وأطلقها إلى السماء مع إحدى الحمَامَات وتوجه نحو الساحة الخاصة بالتمرين خلف القصر، لما رآه دريك رفع سيفه الخشبي الذي كان على الأرض ورماه بكلتي يديه لراين الذي التقطه بيد واحدة.

كان دريك لا يزيد عن كونه طفلًا صغيرًا يلوح بسيفه ببلاهةٍ متجاهلًا تعليمات أخيه؛ فنفد صبر راين وصاح فيه: توقف الآن!

لم يستمع له دريك، ثمَّ اندفع بشكل مستقيم نحوه فما كان من راين إلا أن تفاداه بشكل جانبي رافعًا جزءًا من قدمه؛ كي يعيق دريك الذي سقط على الأرض.

- لا تفعل ما يريد عدوك أن تفعله.

رفع دريك جذعه عن الأرض مُمسكًا بمؤخرة رأسه، وقال بصوت لاهث: وكيف لي أن أعرف ما يدور بخلد عدوي؟!

أنا لست ساحرًا.

- الجسد يفضح صاحبه، وعين المبارز تتجه نحو النقطة التي يريد إيذاءها، وأخيرًا فعقلك الذي يرى وليس يديك.

ثمَّ مد يده لدريك الذي قال فور نهوضه: سحقًا، مازال أمامي الكثير كي أمسك بسيفٍ حقيقي.

نظر له راين بحدة قائلًا: إياكَ والاستهانة بهذا السيف، إنَّ ما يقتل هو حامل السيف وليس النصل، وإذا ما تُرِك السيف وحده دون حامل لن يزيد السَّيف عن كونه قطعةً معدنيةً حتى يمسكه أحدهم.

ثمَّ هبط راين لمستوى رأس دريك وقال: المبارز الحقيقي هو مَن يستطيع الخروج من أي مأزق، وقبل أن تهتم بتدريب يديك يجب عليك أن تدرب عقلك أولًا.

ونهض وتابع: إن الأفكار يا دريك هي ما تحرك البشر وليس الذهب أو القوة، إذا اشتريت جيشًا بذهبك لربما خانك لصالح من هو مستعد لدفع المزيد، وإذا ما أتعبك الناس لرهبتهم إياك سينكسر ذلك الخوف يومًا ما لا محالة.

ثمَّ أشار لقلبه وقال: لكن إن كان لديك من يؤمن بك فلن يخونَك مقابل ما هو مادي يا دريك، تذكَّر هذا دائمًا.

وهمَّ دريك بمتابعة التدريب لكنَّ راين أوقفه قائلًا: يكفي اليوم يا دريك؛ فعندي ما يشغلني.

بدت علامات الامتعاض على وجه الصبي الذي عقد حاجبيه، وهمَّ بمعاتبة أخيه لكن راين قال: سنكمل غدًا، أعدك.

فعادت الابتسامة لمُحيَّا دريك قبل أن يتركه راين ليُبدل ثيابه ويخرُج من القصر.

كان راين بارزًا دائمًا في أي حشد ليس، وذلك ليس لأنه وريث هذا الإقليم فحسب بل أيضًا لأنه كان فارسًا ماهرًا لا يُشق له غبار، طويل

القامة، عريض المنكِبين، ذا شعر كستنائيّ، وعينين رماديتين، كان نسخةً من أبيه عندما كان في مثل سنه غير أنَّه ورث عيني أمه الواسعتين، وكان راين أكثر اهتمامًا من أبيه في الملبس؛ فهو يختار منه ما يدل على مكانته، ولذلك لبس قميصًا من الكشمير الأسود الناعم ومعطفًا من المخمل الرمادي، وعلى كتفيه تدلَّى فرو دب بني، واتَّجه عبر شوارع أماليثيا الواسعة نحو حانةٍ في ساحة المدينة.

كانت أماليثيا مدينة ذات نظامٍ دقيقٍ وتخطيطٍ صارم؛ فكانت دار العدل والمصالح الحكومية في منتصف البلدة، وحرس فالكون البناؤون هم الوحيدُون المسموح لهم ببناء المساكن والأبنية كي تبدو متناسقة، ورغم وجود بعض المنازل التي لم تلتزم بتلك القاعدة في الضواحي لكنها لم تُعِق أبدًا تناسق المدينة الباهر، وأما شوارعها فكانت متسعة، بعضها ترابيٌ مرصوفٌ بالحجارة، والبعض الآخر كان ذا أرض حجريةٍ مستوية رُصِفت بالرخام أحيانًا أو بالجرانيت الأسود في أحايين أخرى وكانت تكثُر كلما اتجهت ناحيةَ المنتصف.

ما إن وصل راين إلى الساحة دَلف إلى الحانة وجلسَ على أحد طاولاتها، وكانت أعين الجالسين ترمقه بنظراتٍ شعَرَ بثقلها، وذلك قبل أن يقول أحدهم بصوت عالٍ ناظرًا إليه: ألا تشعرون بضيقٍ حلَّ على المكان؟!

ثمَّ سكت هنيهةً، وتابع ضاغطًا على حروفه: .....فجأة.

ثم اتَّجه نحوه ثلاثة شبان، واستقروا أمام طاولته قبل أن يقول لهم راين: ارحلوا عني؛ فلست في مزاجٍ مناسب لطرح أحدهم أرضًا.

ضرب شابٌّ منهم يده بالطاولة قائلًا: ومن يبالي بمزاج جلالتكم، إننا لا نراكم إلا ونرى الشيطان يتمثل فيكم يا أبناء فالكون، لا أعلم ما الذي حمل أجدادنا على اتباعكم بعدما أقسمتم بالولاء للملك منذ قرون.

كانت الأجواء مشحونة، والشرر يتطاير من أعين الجالسين، ولم يُبد أيٌّ منهم اعتراضًا على ما قاله الشاب، وفي تلك اللحظة دخل لورانس واستغرق عدة لحظاتٍ حتى أدرك الوضع؛ فوثب أمام الشبان قائلًا: ألا يكفي هذا يا رفاق؟

ولم ينتظر منهم ردًا فصاح في صاحب الحانةِ: الجناح الخاص من فضلك!

فأومأ الرجل البدين برأسه إيجابًا قبل أن يسحب لورانس راين من يده إلى الدور العلوي، ويتحرَّك خلف الفتاة التي كلفها صاحب الحانة بتوجيههما إلى الجناح.

مرت بضع دقائق بعد دخولهما الجناح وجلوسهما إلى الطاولة حتى تلاشت الأجواء المشحونة بالأسفل، وعادت الهمهمة شيئًا فشيئًا قبل أن يعلوَ الضحك والصياح كما كان المكان قبل دخول راين.

قال راين معتذرًا بنبرةٍ بدا الإحراج فيها واضحًا: أجرُّك دائمًا إلى المتاعب، اعذرني.

رد لورنس ضاحكًا بنبرةٍ ساخرة: لا عليك يا رجل، إنَّها ليست المرة الأولى.

- كيف حالك؟!

لم أصدق أبدًا أنَّك قد تأتي إلى هنا.

بالفعل كان مجيء لورانس إلى هذا المكان صعبًا؛ فابن عائلة غانيميل جندي كشافةٍ من الدرجة الأولى، وعمله هذا يتطلب الترحال الدائم لكن راين قد طلب منه منذ بضعة أيام أن يأتِي إلى هنا لأمرٍ ما يريده فيه.

أمسك لورنس كأسه، وقبل أن يشرع في شربه قال: إذًا ما الذي أخبرتني بأنك تريدني لأجله؟

لاحت على وجه راين ابتسامة لئيمة، ثمَّ قال كمن ينصب الفخ لمن هو متأكد أنَّه سيقع فيه: كيف حالك مع كلاوديا؟!

فاندفعت الدماء إلى وجه لورانس، واضطربت دقات قلبه؛ فرغم ملامحه الحادة واتسامه بالجدية كان ذِكر اسمها وحده كفيلًا بضرب أسس اتزانه.

غمغم لورنس: ماذا عن كلاوديا؟!

- لِمَ لم تطلب يدها إلى الآن؟

رد لورنس وقد ارتسمت علامات التوتر على محيَّاه: إنَّه الرفض يا صديقي، أخاف أن أُصارحها فأفقد حتى نظرتها لي في كل مناسبة، أُفضِّل أن يبقى الحال على ما هو عليه بدلًا من فقدانها تمامًا.

ثمَّ سكت برهةً، وتابع كأنه قد تذكر شيئًا آخر: وعمك فرانك والدها، إنَّه لقاتلي إذا سببتُ أي حزنٍ لها.

مالَ بوجهه نحو الطاولة وغمغم بخوف: إنه مرعبٌ بحق.

قال راين مُطمئِنًا إياه: لا تقلق؛ فعمي رجلٌ طيب وأثق أنه سيقبل بكَ زوجًا لابنته.

وسكت برهة ثم تابع: وكلاوديا.....

اتسعت حدقتا عيني لورنس وطغى الترقب على وجهه قبل أن يكمل راين: لقد حادثتها في أمرك، والفتاة معجبةٌ بك بالفعل.

قال لورنس مُكذبًا ما سمعه بأذنيه توًا: أنت تمزح، أليس كذلك؟!

- ولمَ أمزح في أمرٍ كهذا؟

تسللت دمعةٌ من عيني لورنس قبل أن يمسك بكأسه مفرِغًا ما فيه من شراب على رأسه، وأغرَق شعره الأصهب قائلًا: أيقِظني إن كنتُ أحلم.

فضحك راين، ثمَّ قاطع فرحته قائلًا: لم أخبرك حتى الآن بالأمر الذي دفعني لمراسلتك.

- بعض من الأخبار السيئة من فضلك، وإلا سأشعر أنَّ لعنة حظ عكسية قد أصابتني.

- إنَّ عمي سيقيم حفل عيد ميلاد ابنه كارل الذي سيُتم السادسة غدًا.

- إياكَ أن تقول ما أعتقد أنك تريد قوله.

- نعم، سأجعلك تطلب الزواج منها غدًا أمام الجميع.

فرك لورنس مؤخرة رأسه قائلًا في توتر بالغ: لا أعلم إذا...

لم يدَعه راين يكمل كلامه إذ قاطعه قائلًا: الجبناء وحدهم هم من يركنون للمكوث بينما يسرقُ الشجعان كل المجد، وهذه فرصةٌ لن تأتيك كل يوم.

- معك حق، لكني لست مستعدًا لهذه الخطوة.

مدَّ راين يده في جيبه قائلًا: وهذه هدية زواجك مُقدمًا، مباركٌ لك.

تناول لورنس منه العلبة الصغيرة وفَتحها؛ لتكشف عن خاتمٍ ذهبيٍ اعتلته ألماسةٌ متوسطة الحجم بينما تزين باقي الخاتم بشظايا من الزمرد والزفير الأزرق، وبدا مع انعكاسات ضوء الشموع عليه كبستان أزهار سيلتف حول إصبع صاحبته.

لم يكن لورنس مُدركًا لما يحدث، ولم يعلم في قرارة نفسه إن كان يستطيع قبول هديةٍ كهذه أم لا فقال: راين، يسعدني فعلًا اهتمامك الشديد لكن..... لا يمكنني قبول هديةٍ باهظة الثمن كهذه.

اعتدل راين في جلسته وقال: إن لم تقبلها لأنها هدية زواجك فيمكنك على الأقل اعتبارها ردًا لجزء من جميل عائلة غانيميل لعائلة فالكون.

- حتى وإن قلت ذلك فلا....

قاطعه هنا راين قائلًا بصبر نافد: أرح ضميرك، واكتب لي ورقةً تُفيدُ أنك مدين لي بثمن الخاتم إن كان هذا سيرضيك.

ثمَّ مال إلى الامام قليلًا، وبنبرة خفيضة طُبِع عليها غضب الجحيم قال: ولن أتنازل أكثر من ذلك.

أخرج لورنس زفيرًا طويلًا وقال مستسلمًا: لك ذلك.

كتب لورنس الورقة وناوله إيَّاها؛ فتناول راين دفة الحديث دافعًا الإحراج الذي اتخذه لورنس قناعًا لوجهه وبدأ يحدثه عن مشاكله الخاصة بمساعدة أبيه في حكم الإقليم والتوفيق بين السَّادة، واستغرقهم الحديث حتى مرَّ من الوقت الشيء الكثير ولاح قرص الشمس قتيلًا في السماء؛ فقال راين: يستحسن أن يعود كلانا فغدًا يومٌ مصيري بالنسبة لك، ويجيب أن تنام جيدًا.

أومأ لورنس إيجابًا في قلقٍ بالغٍ وقال: رغم أني أشك في قدرتي على النوم الليلة.

ثم عاد كلٌ منهما إلى بيته، وفي مساء اليوم التالي كان راين أمام منزل عمه فرانك متأنقًا بالمعطف الرمادي ذاته لكنه ارتدى تحته سترة قطنيةً بيضاء، ومرَّت ساعة تجر أختها حتى وصل لورنس مرتديًا سترةً من المخمل الأبيض وفوقها معطف من الحرير القرمزي - كان قد ورثهما عن أبيه- وقد ثُبت المعطف بدبوسٍ ذهبي حمل شعار عائلة غانيميل (الثعلب البري).

- لم كل هذا التأخير؟! ظننت أنك لن تأتي يا رجل!

قالها راين حانقًا على لورنس الذي قال مدافعًا عن نفسه: اعذرني؛ فقد ضللت طريقي من شدة التوتر.

- لا يهم، هيا بنا فالجميع في الداخل والحفل قد بدأ بالفعل.

كان بيت فرانك قصرًا صغيرًا إذا قورن بقصر أخيه نيكولاس؛ فقد تكوَّن من حديقةٍ أمامية وخلفها القصر الذي بنيت أعمدته من الصخور السوداء، وجدرانه من الطوب الرمادي المصنوع عادة من صخور جبال أزتالان وهي إحدى أقوى الصخور في المملكة.

لم يأبه الشابان بالحضور خارج القصر بقدر ما هما مُقبلَين عليه داخله، ولم يلبث راين ولورنس أن دخلا القصر ذاته حتى رأى لورنس ساحة متوسطةً لامعةً ذات أرضية سكرية اللون وسلمٍ كبيرٍ بآخرها، يتفرَّع السلم عند منتصفه إلى فرعين: يمينًا ويسارًا، أمَّا جدران القاعة فقد اكتست بالرايات الرمادية التي ازدانت بالصقر الجارح _شعار آل فالكون_ وبين الرايات كانت ثمة نوافذ مستطيلة الشكل زادت روعة المكان جمالًا فوق جماله.

ووسط الحشود برز فرانك عم راين وأحد الأسياد بالطبع، كان رجال عائلة فالكون عمومًا طوال القامة لكنَّ فرانك كان طويلًا بشكل يجعله بارزًا عن الجميع، وكان بعمر الخمسين فلم يكن تقدُّم السنِّ قد نال منه بعد.

تقدم راين يشُقُّ الحشد إلى أن وصل إليه، ثمَّ صافحه بحرارة مباركًا على المناسبة السعيدة، وتجاذب معه أطراف حديثٍ لم يطل؛ فقد أشار راين للورنس الذي كان وعيه في مكانٍ آخر بالفعل، وتعالت نبرة صوت راين قليلًا بقدر لا يجعل الحضور يلاحظ ذلك فأفاق لورنس أخيرًا، ثمَّ هرع ببلاهةٍ نحوهما حتى أنه كاد يتعثر من فرط التوتر، ثم إنه ما إن وصل

إليهما حنى رأسه أمام فرانك قائلًا: سيدي، إنَّه لشرفٌ لي أن أقف أمامك.

كان صوت العازفين عاليًا والإيقاع صاخبًا قليلًا فلم يسمعه فرانك جيدًا لكنه رد عليه مخمِّنًا كلماته السابقة، وقال: حدثني راين عن شجاعتك يا بني، إنَّ الخدمة في سلاح الكشافة ليست بالأمر الهين.

همَّ لورنس ليؤمن على كلامه لولا أنه لمحها خلفه، قصيرة نسبيًا، مرتدية فستانًا من المُخمل الأرجواني، وشعرها البني منسدل على كتفيها، ووجهها كالبدر، لمحته لوهلة لكنها صرفت نظرها سريعًا للأرض، ولم تلحظ المسكينة راين الذي كان بجوارها بالفعل يسحبها من يدها لجانب أبيها، ثمَّ أشار للعازفين من مكانه أن يتوقفوا ليعمَّ صمتٌ كسره راين قائلًا: أيها السيدات والسادة، أعيروني انتباهكم.

فاتجهت أنظار الحضور جميعًا بلا استثناء نحوهم، وابتعد الواقفون حولهم بضع خطوات فزاد ثقل النظرات أكثر وأكثر، أمَّا لورنس فكان عقله بالفعل مسافرًا لمكان آخر وشعر أنه لربما ثملٌ ويحتاج لكأس آخر من الماء كي يفيق، أو ربما دسَّ له راين خلاصة الخشخاش في شرابه لتُثقِل رأسه لكنه وعلى كل حال أفاق مما كان فيه إثر وكزة راين له فركع برسمية على ركبته أمام فرانك، وبنبرة شديدة التوتر قال بصوت خفيض: سيدي، يسعدني ويشرفني أن.....أن.

وذابت الكلمات في فمه، وغزا العرق كل بقعةٍ في وجهه إلا أنه وبصعوبة قال مزيحًا ثقلًا كان كالصخرة على صدره: أن أطلب يد ابنتك كلاوديا للزواج.

تعالت الهمهمات بين الحضور، وكاد لورنس يقسم أنهم لم يسمعوه لكنه تأكد من عدم صحة ظنه عندما سمع صيحات بعض الفتيات الصغيرات بأطراف القاعة قائلات: لقد طلب الزواج منها بالفعل!

رمق فرانك لورنس بنظرةٍ فاحصةٍ، ثم التفت لابنته ناظرًا لها بنظرة فهمت كنهها؛ فأومأت له إيجابًا في خجلٍ شديد.

قال فرانك: كما قلت لك، لقد حدثني راين سابقًا عنك، وإني أرى فيك فارسًا شجاعًا.

ثمَّ سكت وأردف بعد زفيرٍ طويل: أنا موافق، ولكن بشرطٍ واحد.

تسارعت دقات قلب لونس؛ فهو إمَّا سيطير الآن إلى عنان السماء أو أنه سيدفن حيًا، وهذا كله مرتبط بالكلمات التالية التي ستخرج من فم فرانك، وبات لورنس يقول لنفسه: أرجوك ليكن شرطًا معقولًا، شرطًا معقولًا.

وكاد يفقد وعيه قبل أن يكمل فرانك: عملك في الكشافة يتطلب ترحالًا مستمرًا، وإذا تزوجت ابنتي فأريدك أن تكون بجانبها هنا في أماليثيا؛ لذا أريدك أن تنضمَّ لحرس فالكون.

تنفَّس لورنس الصعداء وشعر براحةٍ لم يشعر بها في حياته من قبل، وكاد ينسى أن يرد على فرانك من فرط الفرحة لكنه تدارك نفسه قائلًا: يُشرفني ذلك.

فصاح الحضور جميعًا فرحين، وارتفع العزف بألحان أكثر صخبًا، واتجه الحاضرون نحوه في بهجة مباركين له تباعًا، وأثناء الصَّخب والرقص انسل راين عبر الحضور صاعدًا درجات السلم واتَّجه إلى فرعه الأيمن، ثمَّ دلف لإحدى الغرف ليجده هناك كما هو، ابن عمه الغامض جون، كان ساحرًا من الدرجة الأولى ومتفوقًا ليس على أقرانه فحسب بل على أغلب سحرة المملكة عمومًا وحتى على بعض معلميه، ولم يمنعه من تولي مهام مرشد في أكاديمية السحرة إلا سنه الصغير؛ إذ لا يُسمَحُ بتعيين من هم أصغر من الخمسين تحت أي ظرف.

كانت الغرفة كما اعتادها راين، مظلمة كسماء محاقٍ بلا نجوم، مُلئت بالكتب في جميع أركانها، وكان ثمة سريرٌ صغيرٌ في ركن الغرفة الأيمن لم يكن جون يستخدمه كثيرًا فبدا في حالة يرثى لها، أما جون فكان جالسًا على مكتبه يقرأ على نور شمعةٍ حاربت جيشًا من الظلام كي يصل نورها إلى صفحات ما يقرأ.

اقترب منه راين أكثر وأكثر، وقال بهدوء محاولًا بجهد عدم قطع تركيزه: كيف تقرأ في هذا الظلام الدامس؟!

رفع جون رأسه متأملًا سقف الغرفة وقال: مخطئٌ إن ظننت أنَّ القراءة بالعين فقط، إن للقلب دورٌ خفي يجهله الكثيرون.

ثمَّ نهض من مقعده بقامته الفارعة التي كانت بنفس طول قامة راين أو أقصر تقريبًا، ورغم ذلك فهو لم يملك أيًا من مقومات راين الجسدية، كان نحيلًا، ذا شعرٍ أسود ورثه عن أمَّه المتوفاة، والتي كانت السيدة إيميليا جرين قد أخذت مكانها منذ كان جون رضيعًا فلم يعرف أمًا سواها، أما ملامحه فتوحي بالطبيبة أو التسامح إلى حد كبير لكنَّه امتلك حذر الثعالب بخلاف ما تُبدي تقاسيم وجهه.

التفت نحو النافذة مستطردًا: إنها لمتعةٌ لا تضاهيها أي لذةٍ من متع الدنيا أن تملأ ما غطاه الظلام بنفسك قبل أن يكشفه النور؛ فتشعر إذا ما أصبت أنك كنت تجلس مع مؤلف الكتاب عندما كتبه.

ثمَّ عاد إلى مجلسه مشيرًا لراين أن يجلس هو الآخر فاتخذ من السرير المتهالك مقعدًا؛ صرخت أخشاب السرير ألمًا فور جلوس راين تدريجيًا ثمَّ قال: غريب الأطوار كعادتك.

فنظر جون لعيني راين متفحصًا إياها، ثمَّ قال: إذًا، وما الذي تريده مني.

قال راين باستياء: أيجب أن يكون عندي حاجة أرجوها منك كي أطمئن عليك؟

رد جون مختصرًا على راين الكثير من جمل الاستسماح والتقديم: أوَتحسبني أحمقًا، صديقك في الأسفل قد طلب الزَّواج من أختي وأنت تترك الاحتفال لأنك تريد أن تطمئن علي؟!

فرك راين مؤخرة رأسه قائلًا: معك حق!

ثمَّ عاد وقال مستدركًا بنبرة مستنكرة: علمت أن أختك قد طُلِبت يدها ولم تذهب للاحتفال معها!

ردَّ جون محاولًا تهدئة راين: أنت تعلم أني لا أحب الصخب، سأحتفل معها بطريقتي عندما ينتهي الحفل.

قال راين: على كلٍ، أبي أوكلني بحضور اجتماع الكبار بدلًا منه لسوء حالته الصحية و..

لم يدعه جون يكمل جملته إذ قاطعه قائلًا: والأمير والأميرة، أعلم كل هذا.

- حسنًا، كنت أرغب أن تأتي معي.

أطفأ جون نور شمعته بإصبعيه بهدوء كالصقيع فغرقت الغرفة في بحر من الظلام، لكن راين لمح شبح يد جون تتحرك في الهواء وما هي إلا لحظات حتى أنيرت الغرفة بلون أُرجواني خرج مما يشبه اليراعات لكنه مال أكثر لكونه سديمًا من نوع ما نُثِر في الغرفة.

قال جون متأملًا الطريق الصخري خارج غرفته: سأذهب معك لكن بشرط.

- وما هو؟

- أن تتبع كل تعليماتي بلا سؤال.

- تعليمات، أي تعليمات؟!

أخرج جون زفيرًا طويلًا مُستعيرًا صبرًا فوق صبره؛ لئلا يصب جام غضبه على راين ثمَّ قال: ألم أقل بلا أسئلة!

فسكت برهةً وأردف: لكي أوضح لك الأمور أكثر، أنا أريد أن نذهب بدءًا من الأسبوع القادم لنصل قبل الاجتماع بأسبوع على الأقل.

ثمَّ نظر لراين وكاد يقسم أنه رأى كلماته التي همَّ بنُطقِها قبل أن يكمل في مللٍ بالغ: سنذهب متخفيَين؛ كي نقلل فرص معرفة الأفالون بأننا قد تحركنا.

ووقف أمام رفوف كتبه في ركن الغرفة وتابع: إذا علموا سيرسلون قتلةً مأجورين لقتلنا بيد نظيفةٍ خارج حدود سيطرتهم.

ونظر إلى راين مرةً أخرى وقال: هل كل شيء واضح؟!

فرد راين بابتسامةٍ خفيفة وبشيءٍ من الخوف: نعم.

ثمَّ استأذنه راين بعدما فهم كل شيء، وأخذ منه وعدًا بأن يفاجئ كلاوديا بطريقته كيلا يُفسِد فرحتها، وهبط درجات السلم ذاهبًا للطابق السفلي حيث كان الرقص والغناء لكن الآن لم يعد هناك سوى عمه وبضعة رجال برفقتهم لورنس، فاقترب منهم راين ليجدهم منهمكين في الحديث عن بعض ترتيبات الزواج فاستأذن منهم قبل أن يخرج ويمتطي جواده عائدًا للقصر.

***

ماضٍ أليم (١)

كان جون يتذكر دائمًا يوم بدئه رحلة التحاقه بأكاديمية السحرة وكأنه البارحة، كان يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا حينها وهو السن الذي يبدأ فيه تحديد مصير الذكور من أبناء المملكة؛ فمن أراد أن يصبح فارسًا عليه أن يكون مرافقًا لأحد الفرسان، ومن أراد أن يتشرب المعرفة فسَيُرسل غالبًا للعاصمة لتَلقي العلم على يد أكبر العلماء في شتى المجالات هناك، ولكن إن أردت أن تتخذ من السحر طريقًا لك فعليك خوض اختبار الالتحاق أولًا، ومن يعلم إذا كان الرسوب في الاختبار يعني الفشل فحسب؛ فهناك الكثير من الألغاز حول هذا الاختبار منذ أن بدأ لكنَّ أحدًا لن يتجرأ على السؤال طالما الأكاديمية تُخرج لهم من السحرة ما هو كفيل بحمايتهم، وهم لم يتساءلوا إذا كان هناك ما يحمي هؤلاء السحرة من أنفسهم.

إنَّ شهوة القوة خدَّاعة، وما إن تتمكن من أحدهم يكون مصيره إما ارتقاء سلم العظمة أو الغوص في بحر الظلمات.

كان يومًا شديد الحرارة وكأن الشمس تشفق عليه محاولةً منعه بشتى الطرق من أن يبدأ رحلة ذات مصيرٍ مجهول، حرص السيد فرانك على اصطحاب جون إلى الاختبار بنفسه رغم أن هذا كان مخالفًا لشروط الأكاديمية ولكنها استثنته من ذلك، امتطى كل من فرانك وجون حصانيهِما بعد وداع حار بين جون وإخوته وأمه وانطلقا سريعًا لخارج أماليثيا نحو غابة الظلال المحيطة بالمدينة، ومرَّا من فوق مياه النهر الأحمر الصافية كالكريستال والتي بدت مع أسماكها الذهبية كعروس متألقة في يوم زفافها، ثم أخذ طريقهم يتعرج بهم ناحية الشمال الغربي وتحديدًا نحو أزتالان عاصمة الغرب ومقر عائلة آدوراي ثالث العوائل الكبرى.

بدأت الغابة تقل كثافةً و تنحسر أشجارها شيئًا فشيئًا، و بدأت الأرض تعلو من فوقها التلال ذات العشب القصير الهش الذي ترعى فيه القرى الفقيرة ، وبعد مرور ثلاثة أيام كان فرانك و ابنه جون قد بلغا حافة سلسلة جبال أزتالان الصخرية و بدأت مظاهر الحياة الصحراوية تستوحش كلما توغلا أكثر في طرق الجبال المتشعبة، أخرج فرانك ورقة من جيبه حملت علامة سهم ووضعها في طبق خشبي خفيف و ملأ دلوًا بالماء، ثمَّ وضع الطبق فوق الماء ليطفوَ برفق، و خلال لحظات تحركت الورقة ناحية أحد الطرق المتشعبة فسلكا ذلك الطريق و الذي انتهى بجبل ضخم لم يَر أيٌّ منهما مثله من قبل.

ترجل الاثنان عن حصانيهما، ثمَّ تقدم فرانك ومن خلفه جون ناحية الجبل، وبدأ فرانك يتحسَّس صخور الجبل ويطرق عليها بخفةٍ

بمفاصل سبابته كأنَّما يبحث عن شيءٍ ما، وعندما وجد مراده قال لجون: ارجع إلى الخلف.

فتراجع جون قليلًا قبل أن يُشمِّر فرانك عن ساعده شادًا عضلات يده، مبرزًا عروقها، مُوجهًا لكمةً قوية نحو بقعة محددة؛ فانهارت بضع صخرات مسببةً غبارًا كثيفًا فشعر جون بقلق شديد على أبيه وصاح عاليًا: أبي، هل أنت بخير؟

اندثر الغبار سريعًا كاشِفًا عن فرانك وأمامه ما يشبه الكهف داخل الجبل، وأومأ فرانك إيجابًا وقال لجون: مِن هنا.

وتوجَّه ناحية جوَاده ليلتقط شعلة ويشعلها سريعًا، ثمَّ دلف كلاهُما إلى الجبل، كان المكان عبارة عن طبقات وطبقات من الظلام، حاربت شعلة فرانك بيأس كي تنير الطريق لكنها نجحت فقط في إزاحة الظلام على امتداد بضع أقدام أمامهما، ولم يكن المكان كهفًا كما توقعه جون بل كان أشبه بحُجرةٍ انتهت بسلمٍ شديد الانحدار لم يُرَ له مثيلٌ من قبل.

هبط درجات السلم مُمسِكًا بيد والده حتى انتهى الطريق، وخرج جون من خلف أبيه ليجد نفسه في حجرةٍ دائريَّة منتظمة وكأنَّها قد شُكِّلت منذ لحظات، ولكنَّ هذا لم يكن ما أثار انتباهه فحسب بل كان الرجل الذي وقف في الطرف المقابل لهم مرتديًا عباءة بيضاء ذات خطوط حمراء كالدم، وأكمام واسعة بشكلٍ يصعب إغفاله، وغطَّى رأسه بقلنسوةٍ ليزيد مظهره ريبةً فوق ريبة.

تقدَّم فرانك ناحية الرجل الذي انحنى للأمام قليلًا مُحييًا إياه، ثمَّ برفق شديد هبط فرانك على إحدى ركبتيه جاعلًا رأسه في مستوى رأس جون، وأمسك بكتفيه قائلا: لقد أصبحت رجلًا يا جون، واخترت أن تتعلم السحر، ربما كانت أية عائلةٍ لترفض ذلك خوفًا على أبنائها لكني.....

ثمَّ لمعت عيناه وقال: لكنِّي أثق فيك.

وضمَّه إلى صدره بحرارة، ومنع نفسه من البكاء بصعوبة بالغة؛ فقد شعر بأن حمم الأرض تُصبُّ على رأسه صبًا، ثمَّ قال بصوتٍ متحشرج: عدني يا بني، عِدني أنك ستعود إلينا سالمًا.

كان جون متجمدًا تمامًا، مختلط المشاعر، يريد أن يُخرج قلبه من صدره ويسحقه كي ينتهي ذلك الإحساس الغريب، يود أن يقول شيئًا لكنَّ الكلام كان يلتصق بحلقه، يودُ أن يبكي لكنَّ الدموع كانت تتجمد في عينيه، ولم يجد شيئًا يفعله سوى السكوت.

نهض فرانك، وتقدم الرَّجل فقال له فرانك: إنه الآن بين أيديكم.

لم يكن جون يعي أنه من الممكن ألا يرى والده مجددًا، لم يكن يدرك ذلك عندما قرر تعلم السحر؛ لقد ذاق الفتى من كأس الفِراق وعلم أنَّ لكل شيء ثمن، علم أنه إن لم يكن مستعدًا ليُضحيَ بأي شيء فلن يحصل على أي شيء.

شعر أن أبواب الدنيا قد أغلقت أمامه عندما أدار فرانك ظهره تاركًا المكان، وكان الثلج الذي طالما كبَّل فؤاده قد ذاب فقال بصوت خفيض: أعدك.

وأخذ نفسًا عميقًا، وصاح بعينين غارقتين في الدموع: أعدك يا أبي.

التفت فرانك مبتسمًا ابتسامة خفيفة خلفها سيلٌ من الدموع يود أن ينهمر لولا إرادة فرانك الفولاذية، وقال الرجل صاحب القلنسوة: هيا بنا يا سيدي.

فالتفَّ جون ليجد بابًا خشبيًا خلف الرجل، كان متأكدًا أنه لم يكن موجودًا عندما دخل هو وأبوه إلى المكان لكنه ذاهبٌ لتعلم السحر وأشياء كهذه من الوارد أن تحدث، ثم تقدمه الرجل ـالذي عَرف فيما بعد أنه يُلقَّب بالمشرفـ وفتح الباب كاشفًا عن ضوءٍ ساطع، ثم أشار له المشرف بالدخول فتحرَّك نحو الباب ببطء مُغطيًا عينيه من شدة الضوء، وما إن دلف وشعر بزوال السطوع عن عينيه فتحهما ليرى رواقًا شديد الفخامة.

كان الرواق كالقصور الموجودة في العاصمة والتي حكى له ابن عمه راين عنها، رواقٌ واسعٌ ذا أرضيةٍ من الرخام اللامع، فُرشت في منتصفه سَجَّادةٌ حمراءُ مزدانةٌ بالخيوط الذهبية، وعلى الجدران عُلِّقت لوحاتٌ فنية حملت معانٍ مختلفة، واتفقت في الجودة التي ليس لها مثيل، لوحاتٌ عن معارك الملوك الأوائل، وأخرى عن مناظر خلابة، وأخرى

لشخصياتٍ تاريخيةٍ معروفة، ووضِعت تلك اللوحات في أطُر ذهبية، ولربما شعر جون ببعض الانزعاج بعينيه من شدة لمعان المكان.

تقدم المشرف مصطحبًا جون عبر الرواق الذي انتهى بساحةٍ مستديرةٍ عملاقة حملت أرضيتها في المنتصف شعارات العوائل الثلاثة الكبيرة، الصقر الجارح شعار آل فالكون يمينًا، والدرع الفولاذية شعار آل آدوراي يسارًا، وفي المنتصف كان طائر العنقاء شعار آل أفالون أكبر منهما وأكثر هيبة.

وحملت الحلقة الخارجية للساحة شعارات العوائل الأخرى، اللهيب الأزرق شعار عائلة موتيوم، والفارس ذو اليد الواحدة شعار عائلة نيكس، والسلاسل الحمراء شعار عائلة ديموس، والثعلب البري شعار عائلة غانيميل، وغيرها من العوائل.

رفع جون رأسه وأخذ يحملق في جدران الساحة اللامعة شديدة الاستدارة، وأكثر ما أثار دهشته هي لوحة الفسيفساء العملاقة التي توسطت الحائط المقابل له؛ ففي ركنها الأيسر بدا ترايتون ملك البشر الأول واقفًا على جبل من جثث المسوخ، رافعًا سيفه، ومستمدًا قوته من نار الشمس التي أخذت تتوهج في زاوية اللوحة، وقبالته ظهر حشد مختلط من الأقزام والعمالقة والجان وغيرها من الأعراق القديمة.

بدأت الساحة مع مرور الوقت تمتلئ شيئًا فشيئًا، وبدأ صغارٌ آخرون يدخلون الساحة عبر أروقة أخرى على أطراف الساحة كالتي دخل منها جون، وما إن اكتظ المكان بالفتية والفتيات من نفس عمر جون أو

أصغر قليلًا سمع الجميع نفخة بوقٍ أسكتت الهمهمات وأُغلقت الأروقة فجأةً مع سقوط حوائط عملاقةٍ من السقف بشكل عامودي أمام كل رواق، ثمَّ خرجت منصةٌ صخريةٌ من إحدى الحوائط واعتلاها رجلٌ ذو ظهر محنيٍّ بدا أن الزمن قد نال منه، قال بصوته المسن: أطفاليَ الأعزاء، أنتم الآن على وشك خوض اختبار الانضمام للأكاديمية.

كان صوته واضحًا صافيًا عكس ما اعتقده جون، ثمَّ أردف الرجل قائلًا: بعضكم هو من اختار هذا المسار بنفسه، وبعضكم أُجبِر عليه، منكم من هو من أبناء النبلاء ومنكم من هو ابن غير شرعي، ومنكم من اخترناه بنفسنا من أبناء العامة.

ثمَّ بدأ الرجل يسعل منهكًا من الكلام لكنه تابع بذات الثبات والوضوح: سنضعكم خلال الاختبار في ظروف صعبة، واختياراتكم وحدها ستقرر ما إن كنتم ستكملون الاختبار أو....

ثمَّ قال ضاغطًا على حروفه: أو ستموتون.

بدأت الهمهمات تعلو شيئًا فشيئًا لكنَّ الرجل أكمل بغير اهتمام: عددكم الآن أربعمائة، مدة الاختبار ثلاثة أيام، الهدف بسيط للغاية، كن على قيد الحياة حتى نهاية المدة المحددة وستنجح، لكن هناك شرطٌ وحيد.

وقال بعينٍ تقطر شرًا: إذا كان عددكم مع نهاية المدة أكثر من خمسين فجميعكم راسبون، والرسوب هنا لا يعني سوى الموت.

ثم قال: أيَّة أسئلة؟

علت الصيحات من الأسفل، وبدأ البعض يبكي والبعض الآخر يتوعد الرجل بالقتل، وغيرها من التهديدات الجوفاء إلا أن الرجل قال غير مكترث بأيٍّ منهم: حسنًا، لنبدأ.

وما إن أنهى جملته حتى عمَّ صمتٌ غريب وكأن الجميعَ كان ينتظرُ شيئًا ليحدث إلا أن الصمت قد قُطع فجأة عندما سُمعت صرخةٌ عاليةٌ، ثم بدأت تخفت وتلتها ضرخةٌ أخرى وأخرى، وبدأ جون ينظر يمنة ويسرة كالمجنون والعرق يتصبب منه من فرط التوتر، وأخيرًا أدرك سبب الصرخات عندما لمح الأرض تُفتح من تحت قدمي أحدهم ليسقط نحو المجهول.

بدأ الجميع يركضون في جميع الاتجاهات بعشوائيةٍ، ولربما شعر جون أنه داس على أحدهم أثناء ذلك لكنه لم يأبه على الإطلاق، ولم تتوقَّف الصرخات، شعر جون أن الزَّمن قد تمجد عندما داس بقدمه على بقعةٍ كانت أرضًا قبل أن يلاحظ قبل فوات الأوان أنها فُتِحت ليسقط هو الآخر صارخًا في الظلام، وظلَّ يسقط حتى انقشع الظلام أخيرًا ليجد نفسه يهوي من السماء نحو البحر.

كان اندفاع الهواء نحو وجهه يَحدُّ من بصره لكنه رأى عدة أجسامٍ طافيةٍ على سطح الماء، أدرك أن هذا سيكون مصيره إن لم يفعل شيئًا؛ فلربما لن يموت جراء اصطدامه بالماء لكنه سيكسر ضلعًا أو اثنين وعندها لن يقوى على السباحة وسيغرق كأصحاب الجثث الطافية في الأسفل،

وبعد تفكير تذكَّر تعويذةً ضعيفة كان قد تعلمها فيما مضى فمد يده أمامه ممسكًا ساعد يده باليد الأخرى، وبدأ يتمتم بكلماتٍ غير مسموعة مرة تلو الأخرى في نسق معين حتى دنا من الماء كثيرًا، وعندما كانت المسافة بينه وبين سطح الماء كطوله تقريبًا خرج انفجارٌ من يده أوقفه للحظة في الهواء دافعًا إيَّاه للخلف قليلًا كي يخفف من الصدمة، ثم وقع في الماء بعدها دون أن يتضرر بشكل يمنعه عن السباحة، كان الماء مالحًا لدرجة أحرقت عينيه ولم يلمح للبحر أيَّ قاع، كان الشيء الوحيد القابع في الأسفل هو الظلام، الظلام والموت!

أصيب ببعض الكدمات بصدره لكن ذلك كان أفضل من الموت غرقًا على أية حال، بدأ يحرك يديه في الماء رافعًا نفسه للسطح، التقط أنفاسه بعدما كان على شفا حفرةٍ من موتٍ محقق، ثمَّ أدار رأسه ماسحًا المكان بعينيه ليلمح قلة قليلة قد نجوا، ثمَّ بدأ يسأل نفسه: وماذا بعد؟

أسيظلون في البحر هكذا؟

إن النجاح في الاختبار كان بأن يبقوا على قيد الحياة، فكيف ترسلني للمقصلة وتطلب مني أن أبقى حيًا بعد قطع رأسي؟

بدأ يسبح عشوائيًا إلى الأمام، ثمَّ رأى بعينيه جزيرة لاحت في الأفق؛ فصاح بأعلى صوته من شدة الفرحة: يابسة.

فنظر من نجوا نحوه، وكان الفتيان والفتيات لا يزالون يسقطون من الأعلى، وبدأ هو يسبح ناحية الجزيرة وكذلك فعل الباقون، على أن

بعضهم كان ذا نفس رحيمة وحمل معه شخصًا أصيب وبدأ يسبح بصعوبةٍ محاولًا إنقاذه.

وبدأت اليابسة تكبر شيئًا فشيئًا، ولاح أمل النجاة في أعين الجميع قبل أن تُسمع صيحةٌ مرعبةٌ في الخلف ثمَّ انتهت تمامًا، وعلت صيحة أخرى مع صوت تلاطم اللحم بالماء، وأخرى حتى تلونت المياه خلفهم باللون الأحمر قبل أن يبدأ الجميع بالسباحة بشكل هستيري، شعر جون أن ذراعاه سيتمزقان، وأنَّ مفاصل وعظام كتفيه قد تهشمت من شدة التعب، وكادت قدماه تنفصلان عن جسده من فرط تحريك الماء، وبعد سباحة مستمرة مميته وصل إلى اليابسة وسقط مغشيًّا عليه من شدة الإعياء.

كانت الشمس تداعب وجه جون عندما أفاق في اليوم التالي، وكانت الآلام تجتاح جسده، وشعر بأنه يشتعل من شدة الحرارة، ثمَّ نهض بصعوبة وجرَّ قدمًا خلف الأخرى، ونظر إلى صفحة الماء ليرى احمرار وجنتيه وجبينه من شده الحمى والإعياء، عاد إلى الشاطئ ماسحًا إيَّاه بعينيه سريعًا فأحصى قرابة المائة وخمسين جسد على الرمال، ولم يهتم بمن كان حيًا منهم ومن قد قذفت المياه جسده إلى اليابسة خاليًا من الحياة.

كانت الجزيرة عبارة عن غابة كثيفة الأشجار، ذات تربة داكنة، رطبة كما هو حال الأجواء الساحلية، وعلم جون أنه فور استيقاظ الباقين ستحدث مجزرة لا محالة فآثر الاختباء داخل الجزيرة آخذًا عهدًا على

نفسه أنه لن يؤذي إلا من يقدم على إيذائه، وأنَّه لن يَقتل إلا في اليوم الأخير بشرط أن يعلم يقينًا أن عددهم يفوق الخمسين، لم يكن صاحب مبدأ بقدر ما كان ضميره البشري يملي عليه تلك الشروط والالتزام بها من عدمه؛ فهو بشرٌ على أية حال وطبع البشر الخطيئة.

بدأ يرتب أولوياته قائلًا في نفسه: أولًا يجب أن أجد مصدرًا للماء العذب، وثانيًا يجب أن أوفر طعامًا يكفيني، وأخيرًا يجب أن أجد مكانًا أختبئ فيه.

ردد تلك الكلمات في نفسه وفصل وعيَه وشعوره عن جسده كأنهما كيانان منفصلان؛ فإن ترك ضميره البشري يتصرف بشكل أخلاقيٍّ زائد عن المطلوب لن ينجو، كما سمح بأفكار معنية فقط بالوصول لأطرافه أوَّلها البقاء وثانيها البقاء وحتى عاشرها إذا أردت!

تعمق شيئًا فشيئًا داخل الغابة، وأخذت أغصانها تتكاثف وتدنو منه فشعر أنَّ هناك ألف عينٍ وعين تراقبه بين الأغصان والنباتات، ثمَّ لمح شجرةً عملاقة بنهاية الطريق الرملي الذي استحال إلى آخر طيني عندما بلغ منه مبلغه، لم يكن يتذكر أنه رأى شجرة بهذا الحجم حتى في غابة الظلال؛ فقد بلغ قطرها المتران ونصف، أما طولها فلم يقدر جون على تحديده يقينًا بسبب تشابك أغصانها، وكثافة أوراقها التي غطت السماء بغطاء أخضر تسللت منه بضع خيوط من ضوء النهار كنسيجٍ حريريٍّ لم يكتمل نسجه.

دار بخلد جون أن هذا المكان سيكون لافِتًا للأنظار حتمًا؛ فقرَّر الابتعاد عنه، لكنه تجمد في مكانه عندما سمع حفيف الأشجار وهمسًا بين الحشائش الطويلة من حوله فأدرك أن هناك من يتتبعه، أخفض جون ظهره قليلًا و شحذ حواسه حتى بلغت أقصاها، و شعر أنه امتلك عيني بومة في الليل و أذني خفاش ولربما اغتر بنفسه قليلًا لكنه لم يكن أحمقًا كي يستهين بالموقف الذي يمر به، راقب النباتات أمامه بحذر الأفعى والتفت يمنة و يسرة حتى لمح حركة بين الحشائش الطويلة؛ فالتقط حجرًا من الأرض و بهدوءٍ بالغٍ مثَّل أنه لا يعلم مكان مطارده لكنه و في غمضة عين ألقى الحجر بكامل قوته في بقعة بين الحشائش فانطلق كالسهم محدثًا صوت ارتطامٍ بلحم.

أطلق الفتى صرخة عالية حتى أن الطيور قد اهتاجت تاركةً الأشجار من فوقه قبل أن يتحرك جون بسرعةٍ نحو الفتى الذي ظلَّ ممسكًا بقدمه إثر ضربة الحجر له، وبدأ الفتى يبكي ويرمق جون بخوفٍ شديدٍ كلما اقترب منه صائحًا: لا تقتلني، أرجوك لا تفعل.

وبدأ الفتى يزحف للخلف بكلتي بيديه مكررًا جملته عدة مرات حتى دنا منه جون، وتردَّد للحظة قبل أن يلمح ابتسامة حادة كالسِّكين لاحت على وجه الفتى، تجمد الوقت لديه للحظة عندما ملأ الفتى يده بكومة من الطين ملقيًا إيَّاها بوجه جون فغمرت عينيه للحظة وبدأ يسعل بشكل متكرر قبل أن يحرك الفتى قدمه الأخرى بخفة ضاربًا قدمي جون ومطيحًا به أرضًا، ثم استل خنجرًا كان مثبتا بساقه وانقضَّ على جون، وكان المسكين يحاول بيأس بالغٍ مسح عينيه من الطين، وعندما نجح

في إزاله جزء منه أبصر الفتى بشكل مشوش يحمل خنجره مُستعدًا لقطع عنقه، قال جون في نفسه:

- أهي النهاية حقًا؟!

ودنا الفتى منه أكثر وأكثر، وشعر جون أنه ميت لا محاله قبل أن تلوح في عقله تلك الكلمات: أعدك يا أبي.

ففتح عينيه بصعوبةٍ و حاول أن يتفادى السكين ممسكًا بنصلها بكلتا يديه، وفقد خنصر يده اليسرى الذي وقف أمام رأس الخنجر أولًا و إبهام يمناه الذي حال بين عنقه و بين النصل، شعر بألم حارق في كلتي يديه؛ إذ عانى باطن كفيه من جُرحين إثر إمساكه النصل بيدين عاريتين، و أخد الفتى يضغط و يضغط حتى دنا رأس الخنجر كثيرًا من عنقه، حينها ركل جون أسفل جذع الفتى بكامل قوته فصاح على إثر الضربة و ضعُفت يده فاستغل جون تلك اللحظة و شدَّ الخنجر منه بقوة فلم يقو على الاحتفاظ به أكثر من ذلك، وقبل أن يتحرك الفتى سدد له جون طعنةً نجلاء في منتصف عنقه فثبتت حركته للحظةٍ، و سال دمه الدافئ على وجه جون الذي ألقاه جانبًا ملتقطًا أنفاسه بصعوبة مع إطلاق الفتى صوت حشرجة يدل على مفارقة الحياة لجسده.

أخد يلتقط أنفاسه بصعوبة وقد شعر باختناق شديد، ومرت الدقائق تباعًا حتى زال أثر الأدرينالين وبدأ الألم يلتف حول يديه كالأفعى، وبصعوبة نهض جون وترك جثة الفتى، وسريعًا أدرك أن عليه فعل شيء ما بخصوص جروح يديه وإلا تلوثت، لم يكن بوسعه تنفيذ التعويذة

التي أنقذته من الموت سابقًا؛ فجَذَبَ جذع شجرة رفيع وبعض أوراق الشجر الجافة وأخذ يدور الجذع فوق الورق ويداه تنثران الدم في المكان، قاوم جون الألم بصعوبة حتى اشتعلت شعلة صغيرة في الورق، أتبعها جون بأوراق أخرى ثم أغصان صغيرة حتى اكتملت ناره.

كانت معدته الخاوية الآن آخر ما قد يهمه، تابع ما يفعله وأخذ جذعًا رفيعًا من الأرض وأشعل طرفه وأخذ يقرب النار من أصابعه المقطوعة بتردد، وأخيرًا شهق نفسًا عميقًا وألصق النار بالجرح الأول فلم يستطع تمالك نفسه وأخذ يصرخ من الألم؛ فأبعد النار عن يده وأمسكها بيده الأخرى بسرعة قبل أن تزيد آلامه أكثر، ثمَّ فعل المثل مع يده الأخرى، وبيدين جريحتين وقف الغلام نصف منتصب وأطفأ النار وأخذ يبتعد عنها سريعًا قبل أن يدرك أحد مكانه.

بدأت أمعاؤه تناشده لملئها، ولكن دون ثمار أو دواب أنَّى له أن يفعل ذلك؟!

صاح في نفسه: يا له من مكان غريب!

اقترب من إحدى الأشجار وقد قرر أن يمكث على أغصانها اليوم متمنيًا ألا يجده أحد، وبدأ يصعد الشجرة بصعوبة حتى بلغ غصنًا عريضًا فتشبث به بإحكام وثبَّت نفسه عليه بصعوبة، وكانت الشمس قد دنت من الغروب، وبدأ القمر في بث عبقه ببطء في ركن السماء قبل أن يداعب النوم عيني الفتى الذي لم يستطع مقاومة التعب والإعياء.

بعد ساعات لاطفت نسمة هواء وجنتيه ليستيقظ في قلب ليل بهيم، كان عقله مشتتًا ولم يقدر على التفكير سوى بملء معدته بأي شيء مهما كان؛ فهبط من الجذع العريض حتى وصل إلى الأرض وملأ رئتيه بالهواء البارد ووقف يتأمَّل القمر بمنتصف السماء، وبدأ يجرُّ نفسه بتثاقل لكن إلى أين؟ هو نفسه لا يدري.

رمق الحشائش الطويلة أمامه قبل أن تلوح في عقله فكرة ما، هو نفسه لا يطيقها لكن ما من حل آخر، ملأ راحة يده بأطراف الحشائش ووضعها في فمه دفعة واحدة وبدأ يمضغ بتقزز، تمنى لو كان كالماشية ليستطيع بلع تلك الحشائش لكن طعمًا مُرًا غزا فمه فبصق سريعًا ما فيه أرضًا وراح يمسح لسانه بيده بتأفف قبل أن تقرع معدته طبولها من جديد، صاح في نفسه أنه لو لم يأكل أي شيء لانتهى أمره، وفكر أن أوراق الشجر من المرجح أن تكون أفضل حالًا من الحشائش؛ فلطالما سمع عن المجاعات القديمة في عصر الظلام قبل الحرب العظمى وكيف كان الناس يأكلون أوراق الأشجار إذا ضاق بهم الحال.

تناول عدة وريقات خضراء، وأخذ يقاوم الطعم المر الذي لم يختلف كثيرًا عن الحشائش، وابتلع دفعة من الأوراق ثم أخرى حتى هدأ جوعه قليلًا، ومع بزوغ الفجر قرر الذهاب إلى الشاطئ علَّه يجد مع الجثث التي حملها الماء إلى الشاطئ ما يفيد، وما هي إلا ساعة أو أقل حتى كان على مشارف ساحل الجزيرة ولمحت عيناه صفًا من الجثث الملقاة على صفحة الرمال، بعضها على بطنه وبعضها على ظهره لكن أكثر ما

أثار اشمئزازه هي الجثث المشوهة، وبقايا الجثث الملقاة على مسافة أبعد من الجثث الأخرى.

كاد يفرغ ما في معدته لكنه تحامل على نفسه وأخذ يتجول بين صف الجثث ببؤس وحزنٍ بالغين، لم يجد ما قد يفيده معهم فأخذ فقط من إحدى الجثث سكينًا صغيرًا وجلس بطرف الشاطئ البعيد.

خمَّن أن هذا من أفضل الأماكن للمكوث؛ فمع دخول الليل لن تبقى سوى سويعات الصباح المقبل وينتهي ذلك الكابوس، ومكوثه في طرف الشاطئ يحمي ظهره ويعطيه مساحة مفتوحة إذا اضطر لاستدراج خصمه لقتال مفتوح، وكذلك يمكنه الهرب للغابة إن اضطر لذلك.

كان حلقه يابسًا كالصحراء، وشفتاه قد بدأتا بالانتفاخ، وجوعه قد عاد يغزو أمعاءه لكنه هذه المرة حمل معه آلامًا حادة، احتضن الفتى نفسه وبدأ يتلوى على الأرض يمنة ويسرة، وبسرعة التقط حجرًا متوسطًا من الأرض وخلع قميصه رابطًا الحجر على بطنه بإحكام فخفَّ شعوره بالجوع والألم قليلًا.

بدأت ساعات الليل تمر تباعًا حتى غاب القمر وتفتقت السحب كاشفة عن السماء بحلة النهار، ولم يكن أمام جون سوى انتظار بضع ساعات أخرى حتى ينتهي كل شيء، سيطر العطش عليه بشكل لا يوصف وأخذ الجفاف ينهش حلقه وسقف فمه ككلب مسعور قبل أن يقوم كجثه بالية ليتحرك متمايلًا نحو ماء البحر، كان يعلم أن الماء المالح لن يزيده

سوى عطشًا فوق عطشه لكنه لم يذق أي سائل منذ ثلاثة أيام تقريبًا وأي شيء سيفي بالغرض، أو هكذا واسى نفسه.

سقط أرضًا قبل أن يصل إلى الشاطئ، وبدأ يزحف جارًّا جسده خلفه حتى لامست رأسه ماء المد فأخرج لسانه وبدأ يلثم ماؤه المالح بنهم قبل أن يشعر بظل قد غطاه؛ فرفع عينيه ليرى المرشد أمامه قائلًا بصوتٍ رخيم: مبارك لك، لقد نجحت يا جون.

ثم تسلل الوعي بعيدًا عن جون برفق راحمًا إيَّاه من أي عناء آخر، وشعر بدفء غريب يحاوطه لكنه لا يبصر سوى الظلام.

- هل أحلم؟

قالها في نفسه قبل أن يتفتق الظلام من أمامه عن مشهد مهيب.

ساحة مستديرة وسط صحراء خالية، وعلى أطراف الساحة تراصت أبراج صخرية غير منحوتة، بدت أنها من تكوين الطبيعة، وعلى كل برج وقف رجل ذو عباءة حمراء خُططت بخطوطٍ سوداء عريضة ورسم عليها نقوش لم يكن قد رأى مثلها قط، وتقدم شخص ما نحو الساحة بثبات لكن جون لم يكن قد ميز حتى أدنى التفاصيل عنه؛ فقد ارتدى عباءة بيضاء ذات قلنسوة غطت رأسه بالكامل، وما إن بلغ منتصف الساحة حتى علت الترانيم والتعاويذ بنسق شيطاني ملعون وبلغة مجهولة، وبدأ الأفق يتلون بشتى الألوان، واشتعلت النار حول الساحة قبل أن يصيح أحد الرجال الذين اعتلوا الأبراج بصوت كهل: هل توافق على حمل الهبة؟!

فرد عليه الشخص من منتصف الساحة بصوت ثابت كالجبال: نعم.

صاح الرجل وقد تدلى شعر ليته الأبيض من العباءة متناثرًا بفعل الرياح العنيفة التي ضربت المكان قائلًا: فينوس بن كاموس، أعلنك سيدًا لعرق الإركالا.

أفاق جون ليجد نفسه على سرير وقد ضمت جراحه، وتدلى أنبوب زجاجي ذا نهاية معدنية دقيقة متصلة بيده المثبتة بإحكام على طرف السرير، فُتح الباب فإذا برجل في نهاية الأربعينيات قد أهلَّ على مشارف الغرفة، وبخطىً سريعة لاحظ أن الفتى قد أفاق، وبدأ يفحصه ويسأله عن عدة أمور قبل أن يطمئن على حالته تمامًا، وبعد وهلة جاءه المشرف وقد جلس على طرف السرير موليًا جون ظهره، وقال: لو تعلم يا بني عدد الذين نجوا من هذا الجحيم لعملت أنك محظوظ أيَّما حظ!

فلاحت على محيَّا جون أمارات استفهام قبل أن يداويها المشرف قائلًا: عدد من نجحوا في الاختبار عشرة أطفال، ولم ينج منهم سوى ستة.

ثمَّ أخذ يخبره عما هو مقبل.

***

كلاوديا

كانت حفلة عيد ميلاد كارل أخيها أبهى يوم قد مرَّ عليها في عمرها كله، لم تذكر أنها رقصت في غرفتها حتى غزا التعب مفاصلها بهذا الشكل، كانت تحب لورنس منذ زمن ليس بالبعيد، أحبت فيه شجاعته وإقدامه واستمتعت بالاستماع لمغامراته مع الكشافة، وكانت لتتخيله كأبطال

الحكايات القديمة حيث الفارس الوسيم مفتول العضلات الذي ينقذ الأميرة المحبوبة من براثن الشر حيث يحتجزها تنين ملعون، لكنها بالطبع كانت تضحك بسرعة عندما يمر ذلك الخاطر على عقلها مغرقةً وجهها بخجل في إحدى وسائِدِها، واليوم كل هذا حقيقة فقد طلب لورنس يدها وسار الأمر بسلاسة هي نفسها لم تتوقعها.

مع صباح اليوم التالي كانت كلاوديا نائمة بسبب إرهاق الليلة الماضية؛ فدلفت إحدى الوصيفات لغرفتها لتوقظها قبل أن تصحوَ كلاوديا برقة كالحملان، مارست طقوسها الصباحية كالمعتاد، حمام دافئ وزيوت طبِّيّة لبشرتها وعطور من أجود الأنواع، ولم تنس الفطور اللذيذ المنعش.

كل شيء كان يبدو مثاليًا وكأنَّ الدنيا تفتح ذراعيها ضامةً إيَّاها بحنان، حتى جاء أخوها جون لطاولة الطعام وبدأت تصف له فرحتها وما تريد فعله في زفافها، واسترسلت في حديثها قائلة: فلتنبذ غموضك قليلًا يا أخي، كيف سترقص وتفرح في زفافي وأنت هكذا؟

رد جون بشيء من الأسى: لكنني... لن أكون موجودًا.

توقف الجميع عن تناول طعامهم، وهدأت أصوات الصحون، وبدأ الترقب يغزو الجميع.

تابع جون: إن عمي مريض جدًا، ولن يحضر اجتماع الكبار هذه المرة، وراين هو من سيذهب.

سكت برهة ورمق الجميع مكملًا: لم يرد إرسالك يا أبي لكي تكون في الإقليم إذا ما أصابه مكروه فتحل محله، وراين طلب مني أن أذهب معه.

تجرع فرانك كأسًا من الماء قبل أن يقول: أبلغني نيكولاس بذلك منذ مدة، اذهب يا بني فلن يجد ابن عمك من يسانده أكثر منك.

اعتلى الحزن وجه كلاوديا وتركت الطاولة باكية وقد قصدت غرفتها، وبعد مدة ليست بالقصيرة طرق الباب، وتسلسل صوت جون مكتومًا من خلفه: أيمكنني أن أدخل؟

كانت كلاوديا متعلقة بشدة بأخيها؛ فقد كان الدرع الذي تحميها والنور الذي تبصر به، تذكرت السنين التي قضاها في الأكاديمية والفراغ الذي تركه حينها، تذكرت الحفرة التي تكونت في فؤادها، تذكرت ألمها عندما لم تجد من تشكو ألمها له، وراحت الدموع تنهمر من عينيها بغزارة وبدأت تصيح بصوت متقطع لاهث.

دلف جون إلى الغرفة، وتأمل أخته التي احتضنت وسادتها باكيةً بحرقة، كان هو الآخر يشعر بمسؤولية تجاهها وتجاه كارل الصغير الذي دلف هو الآخر إلى الغرفة وقد شعر جون به ممسكًا بطرف بنطاله، وقال بصوت أرهقه الحزن: هل ستتركنا يا أخي؟

وبدأ الصغير يتأمل جون في ترقب وأسى، ولما لم ينبس جون ببنت كلمة احتضن قدمه وبدأ يبكي قائلًا: أرجوك يا جون، ابق معنا.

هبط جون على ركبته وحمل أخاه الصغير متجهًا نحو كلاوديا، ثمَّ قال بصوت رقيق بعد ما وضع كارل بجانب أخته: لا تقلقا، إنها عدة أشهر قليلة وسأعود إليكم، ليس الأمر كأنني سأذهب دون عودة.

وضمهما إلى صدره بحنان، شعرت كلاوديا بدفئه فألصقت وجهها بقميصه وتشبثت به بكلتي يديها وبدأت تبكي، إنه دفء حنان أخيها الذي لو ارتحلت عبر الدنيا كلها لن تجد ما يحل محله، رفعت رأسها نحوه وبملامح قد عبث البكاء بها قالت بصوت متقطع: عدني أنك ستعود.

بعطف قال جون: أعدك.

وبعد وهلة كان كارل قد نام إثر بكائه المتواصل، همَّ جون أن يخرج من الغرفة قبل أن يقول متداركًا لنفسه عند الباب: كدت أنسى.

وعاد إلى كلاوديا وقد أخرج من جيب قميصه علبة صغيرة كعلب الجواهر النفسية، وقال بصوت خفيض كيلا يوقظ كارل: هدية زفافك، مبارك لك.

تناولتها كلاوديا وهمَّت بفتحها لكنَّ جون قال لها: انتظري حتى أخرج.

ولما خرج جون وأوصد الباب خلفه فتحت العلبة فنُثرت رائحة عطرة في أرجاء الغرفة وإذا بها تحتوى على قلادة ذهبية تدلى منها حجر من العقيق الأحمر اللامع والذي كانت تحبه بشدة؛ فارتدت القلادة حول عنقها وأخذت ترمقها في المرآة بفرح.

راين

مرت ساعات الصباح تباعًا حتى دنى الليل عندما بدأ راين بتجهيز أمتعته للسفر شمالًا، كان نيكولاس قد رتَّب أغلب الأمور، واختار لهما ثلاثة فرسان من حرسه الخاص لمرافقتهما نحو العاصمة، وعلى الرغم من أن نيكولاس كان يريد إرسالهما في بعثة كبيرة كما يحدث كل اجتماع إلا أن جون أكَّد تحذيره لعمه بأن في هذا الأمر خطرًا جسيمًا عليهما؛ فإن صحت الهمسات الآتية من الشمال فإن الأمير تورون سوف يستغل أي فرصة لزعزعة الجنوب، ولهذا فالتحرك مع رفقة محدودة أسرع لهم وأكثر أمنًا.

اختار راين بالاتفاق مع جون التحرك ليلًا بمباركة نيكولاس حتى لا يلاحظهما أحد، وعندما دق القمر أبواب السماء كان راين على أعتاب غرفة دريك الذي غاب في سبات عميق، راح يقلب نظره بينه وبين أخته إليا في الغرفة المجاورة مودعًا إيَّاهما، ثم هبط درجات القصر قبل أن يرى أمه السيدة ديانا في الطابق الأرضي منتظرة إيَّاه.

اقترب منها راين وتأمل ضعفها البيِّن ونضارتها التي اختفت، كانت قد أصيبت بمرض خبيث لا يُعرف كنهه وكلما مر ذلك الخاطر عليه امتعض قبله وشعر بالأسى، طبع قبلة على جبينها وضمها إليه قبل أن تقول بصوت خفيض متهالك: عد إلينا سالمًا يا بني.

فردَّ برقة: أعدك يا أمي.

غادر بعد ذلك الطابق الأرضي متجهًا نحو الباحة الأمامية حيث وجد الفرسان الثلاثة ـلوران وكالي وروزـ في انتظاره برفقة أبيه الذي تمنى له السلامة مؤتمنًا إيّاه على مستقبل الإقليم، واعتلى راين صهوة جواده، وملأ صدره بهواء الليل البارد قبل أن يصيح في الفرسان: هيا بنا!

انطلقوا عبر البوابة نحو ساحة المدينة وهناك كان جون على ظهر حصانه الفحمي ذي الغرة البيضاء منتظرًا إياهم في صبر نافد، وما إن رآه راين قال ساخرًا: لو لم أكن أعلم أنك تنتظر هنا لظننتك قطعة من سماء هذا الليل البهيم.

رد جون بغير اكتراث: مزاحك باهر يا ابن العم، والآن هلا توقفنا عن إضاعة المزيد من الوقت؟

شعر راين ببعض الإحراج لكنه وعلى كل حال لكز حصانة وتبعه البقية نحو ضواحي أماليثيا ومنها إلى غابة الظلال المهيبة، وكانت غابة الظلال اسمًا على مسمى؛ فهي غابة ذات أشجار شاهقة الارتفاع، وقد اكتسى أغلبها بلحاء قاسٍ عتيق ذا لون بني قاتم، وحجبت الأغصان المتشابكة أعلاهم السماء فساروا على خيوط ضوء القمر التي تسللت من بين الأغصان، ومع صوت احتكاك حدوات الأحصنة بالأرض وتهشم أوراق الأشجار الجافة أسفلها اقترب راين من جون وقال بنبرة اعتراها الهم: كم أتمنى أن ترث فيورا العرش.

ثمَّ سكت برهة وأتبع: لا أمل لنا في الخلاص لو لم تفعل.

- ولمَ تظن ذلك؟!

- فكر بواقعية، لو ورثه تورون الذي يحاول منذ الآن إشعال فتيل الحرب بيننا وبينهم فبالتأكيد لن يتوانى عن شنِّ الحرب عندما يمتلك كل السلطة.

زفر طويلًا، ثم تابع: لديهم المال، والرجال، وكل شيء.

قال جون مطمئنًا إياه وقد تأمل الأفق المحجوب أمامه: لا تقلق، ليس الأمر كأنَّ الملك على فراش الموت، ثمَّ إنها لعبة كلمات ليس إلا كي نوصلها للعرش.

والتفت لراين وقال مجاملًا إيَّاه: وفي لعبة الكلمات والإقناع لا أجد من هو أمهر منك يا صديقي.

أطلق راين ضحكة خفيفة وقد شعر بزوال همه بعض الشيء حتى لاح سهل النهر الأحمر أمامهم، ومع إظلام الغابة وتلألؤ مياه النهر لم يكن من العسير تمييزه حتى من مكانهم البعيد عنه نسبيًا، بدأت الأرض بالانحدار قليلًا، وقلَّ صوت احتكاك حدوات الجياد بالأرض بفعل تربة السهل الرطبة، وسريعًا ترجلوا عن خيولهم وسقوها قبل أن يمسك كل منهم بلجام حصانه متحركين بشكل جانبي على ضفة النهر حتى بلغوا منه بقعة ضحلة بعض الشيء، ومرَّ كل منهم عبر النهر حتى بلغوا الضفة الأخرى.

مرت عدة أيام حتى بدأت الأرض تنحدر بشكل ملحوظ، وراحت الأشجار تقل شيئًا فشيئًا حتَّى اختفت تقريبًا، وتكاثفت الحشائش ذات اللون الأخضر الفاتح في الأفق وقد داعبتها الرياح فتمايلت كخيوط الحرير

الناعمة، وكان هذا إعلانًا صريحًا باقترابهم من مراعي فلينيا التي تسبق المدينة العتيقة فيلينيا (المدينة التي لا تنام)، كانت فيلينيا وما زالت مصدر غذاء المملكة الأول، بمراعٍ تمتد على مساحات شاسعة جنوبًا وبإدارة صارمة تنظم رعاية الماشية بدقة متناهية.

وعلى عكس أغلب المدن والأقاليم فلا توجد عائلة محددة تحكم هذه المدينة وإنَّما هو مجلس مكون من خمسة من كبار تجار المملكة وهم من يبتُّون في كل شأن، ولأنها تُحكم من قبل من يهمش قيمًا رفيعةً كالنبل والعفة والشرف فكانت فيلينا مقرًا لكثير من النزوات والمتع الفانية، فالأمر ببساطة أنَّك إن امتلكت الذهب امتلكت فيلينيا، حتى أنه ولشدة ارتباط المدينة بالذهب والتجارة أصبحت جملة "كذهب خزائن فيلينيا" مثلًا مشهورًا لوصف المبالغ الطائلة.

كانت الشمس قد توسطت السماء عندما بدأت الخيول تقطع المراعي في نهم، وما هي إلا ساعات حتى لاحت بوابات المدينة في الأفق، ارتدى الجميع العباءات وغطى كلٌ منهم رأسه بقلنسوة لكيلا تُعرف هوياتهم فمروا بسهولة من حراس المدينة.

قال راين مخاطبًا الجميع خلفه: سنمكث هنا الليلة، إننا أحوج ما يكون إلى فراش دافئ بعد هذه الرحلة الطويلة.

لم ترق الفكرة كثيرًا لجون الذي كان يفضل ألا يمكثوا في مكان واحد مدة طويلة وخصوصًا لو كانت مدينة كفيلينا، لكنه وعلى كل حال لم يبد أي اعتراض وفضل مسايرة راين والبقية الذين بدت أمارات التعب والإرهاق

عليهم بوضوح، وخصوصًا الفارسة روز التي لم تكن قد أَلِفت الترحال بعد.

كانت الشمس قد غابت وتربع في السماء قمرٌ وهَّاج عندما دخلوا جميعًا إلى حانة متوسطة، وقام كل منهم باختيار غرفة بشكل منفصل حتى لا يثيروا أي شكوك حولهم، دلف جون إلى غرفته والتي كانت غرفة بسيطة ذات طاولة قصيرة يسارًا، وسرير خشبي قبالة الباب وقد استقبل يساره نافذة صغيرة، وأصدرت أخشاب السرير صريرًا مزعجًا مع جلوس جون عليه، استلقى على ظهره وقد أخذ التعب والإرهاق يأخذان منه مأخذهما حتى حاوطه النوم بكنفه دون استئذان.

ظلام!

هذا ما أبصره جون فراح يحرك يديه أمامه فلم ير شيئًا حتى انقشع الظلام عن عينيه كاشفًا عن قاعة مهيبة.

- أأحلم؟!

هكذا خاطب جون نفسه، وتراصت على أطراف القاعة رايات حملت فارسًا قد وقف بحزم وفخر رافعًا سيفه بثبات للأعلى، وكان جون يعرفها جيدًا فهي راية مملكة البشر الأولى قبل الحرب العظمى، وبين الرايات كان ثمة دروع حديدة مثبتة، ولوحات فنية ذات إطارات ذهبية، وكانت القاعة فارغة تمامًا عدا من الفارسين الذَيْن وقفا منتصبين عند البوابة.

تأكد جون أنَّه يحلم عندما لاحظ عدم رؤية الفارِسَين له، وسريعًا سُمِعت خطوات من الخارج صاحبت همهمات علت تدريجيًا حتى فتحت البوابة

كاشفة عن رجل خمسيني يرتدى معطفًا ذهبيًا خِيط بخيوط زرقاء كمياه المحيط، تقدَّم إلى الأمام بعصبية حتى جلس على كرسيه المهيب فسكت الجميع ينتظرون كلماته القادمة، صاح الرجل في الحشد الصغير أمامه: لقد استقر بالي على أمر سيغير مصيرنا إلى الأبد.

ثمَّ سكت برهة، وانخفضت نبرة صوته قليلًا قبل أن يكمل: يجب علينا أن ننبذ العهد، ونطرد هؤلاء المسوخ من الأرض التي من المفترض أن تكون لنا.

علت الهمهمات أكثر وغزا التوتر الأجواء قبل أن يشقَّ رجلٌ الحشد صائحًا بصوت عالٍ: أفقدت عقلك؟!

تقدم السيد آدوراي حامي الملك بدرعه الفولاذية اللامعة وسد الأفق أمام فالكون بجثته الضخمة، وصاح فيه زاجرًا: كيف تتجرأ على مخاطبة ملكك بهذه الوقاحة؟!

أشار له الملك فأنزل الفارس سلاحه قبل أن يقول: تكلم يا فالكون، هاتِ ما عندك.

قال الرجل بصوت لاهث: إنك إن فعلت ما أنت مقدم عليه ستجلب لنا الموت لا محالة.

ثم تابع: تذكَّر العهد الذي يحفظ حقوقنا، ولو نفذت ما برأسك فعلًا سينكسر العهد.

قال الملك بصوت عالٍ: بل أنتصر بقوة العهد.

لمعت عينا الملك، وقد ارتسمت على محياه ابتسامة حادة تشي بخبث مختمر.

صاح الملك في الحشد رافعًا قبضته عاليًا: لأجل مستقبل الأرض!

فرددوا معه بصوت أعلى هز أرجاء المكان: لأجل مستقبل الأرض!

كان ذلك قبل أن يقول السيد فالكون بصوت خفيض التقطته أذن جون بطريقة ما: لا مستقبل لهذه الأرض معك يا ترايتون.

وعندها لاح رمز في الهواء أمام جون بلون أسود، ذا حواف شيطانية حمراء وكأنما كتب بعصارة الأرض.

أفاق جون من نومه رافعًا جذعه عن السرير كالملسوع، وقد غرق جسده في العرق قبل أن يدرك طرقات الباب الذي تسلل منه صوت فتاة مكتوم يقول: الطعام يا سيدي.

فتح لها الباب بصدر عارٍ وأخذ صحني الطعام ووضعهما على الطاولة، ثمَّ جلس على السرير فلم يصب شيئًا منه، وضم وجهه بكلتي يديه قائلًا في إعياء: ذلك الرمز اللعين مجددًا.

***

ماضٍ أليم (٢)

كان عقل جون قد نشط في قلب الليل بسبب الحلم الذي رواده والذي ذكَّره بقصة ودَّ لو نسيها منذ زمن بعيد، ربما حملت معها اللعنات له منذ بدايتها لكنها أيضًا لم تخلُ من اللحظات السعيدة، تذكَّر ما حدث بعد كابوس اختبار القبول وبداية تعلمه السحر تحت إشراف معلمه كين، وكان جون يعتقد أن كين رجلٌ سوداويٌ غامض لكن الأيام أثبتت له عكس ذلك، وحدثه كين في دار الطبيب عن طريقة الأكاديمية في تعليم السحر وهي أن يقضوا ثلاث سنوات في رحلة عبر صحراء المجهول، سيتعلم فيها الكثير عن السحر لكن بشكل عملي، وسنة أخيرة بنهاية الرحلة عندما يصلون للمقر الرئيسي لتعلم قوانين مجلس السحرة وأسس أخلاق الساحر وغيرها من الفنيات اللازمة.

اصطحبه كين عبر باب قد ظهر في غرفته عندما تعافى جون تمامًا، وعندما عبر الباب وجد نفسه أمام بحر من الرمال الذهبية، كانت الصحراء ذات حضور قوي فشعر أنها تملك إرادة ما، وبسبب صمت المكان الصارخ

شعر أنَّ حواسه قد أصبحت أحدَّ عدة أضعاف؛ فزاد شعوره بنعومة الرمال أسفله وحرارة الشمس على وجنته.

كانت رحلتهم عبر الصحراء شاقة، يمشون نهارًا ويتعلمون السحر في قلب زمهرير الليل، وتذكر جون حديث كين عن تعلم البشر للسحر عندما قال: إن القارة الأم لم تعرف السحر حتى في وجود الأعراق القديمة، لكن وعبر البحر أتى أسطول مكون من خمس عشرة سفينة لجنوب غرب القارة على ساحل كروستافيا، وكان هذا قبل تأسيسها على كل حال.

تنهد وأخذ يرسم بسبَّابته على الرمال قائلًا: كانت على متنها مخلوقات لم يُر مثلها قط، يشبهون البشر لكن عيونهم كالعقيق الأحمر، ولم تحو بشرتهم شعرة واحدة، آذانهم كانت طويلة حادة لكنها كانت أقصر من آذان الجان، وأظافرهم كانت مدببة اكتست بلون الفضة، وقد عُرِفوا بين الأعراق بالسحرة الأوائل.

أنهى كين رسم رسمة رديئة عن تصوره لتلك الكائنات، وتابع: حملوا معهم علمًا غزيرًا، ليس ذلك في شتى العلوم فحسب بل أيضًا جلبوا معهم فنًا جديدًا وكان ذلك هو السحر، لقد نقلوا العالم وقتها إلى مستوى آخر، سحرهم ساعد في تشييد المنازل والجدران العملاقة وحفر الآبار في أوقات قياسية.

أطلق زفيرًا طويلًا متأملًا السماء، وتابع: قيل أنَّ العاصمة إستليريزيا قد بنيت بالكامل من قبلهم، ومر الوقت وتأسست الممالك القديمة ولكن

طمع البشر لم يكن ذو حدود؛ فقد استغلوا سحرهم أيَّما استغلال، وصنعوا تعاويذ القتل والدمار فغضب منهم السحرة الأوائل وحاربوا البشر قبل الحرب العظمى، ثمَّ انقسموا مع نهاية الحرب إلى قسمين.

أخذ يرسم ثانية على الرمال وقال: الفريق الأول قرر التخفي والبقاء على القارة بعدما كانوا قد كونوا عائلات هناك، والفريق الثاني قرر العودة من حيث قدِموا، وأثناء عودتهم ألقوا تعويذة عملاقة على ظهر البحر بجنوب كروستافيا منعت الرياح من الهبوب عليه فسُمي منذ ذلك اليوم بالبحر المسطَّح.

كان جون ينهل منه العلم بشره، وعندما مرت السنون الثلاثة كانا أمام المقر وقد أصبح جون سيد زمانه في السحر، أو هذا ما كان يعتقده على الأقل، كان مبنى المقر الرئيسي مبنىً متوسطً الحجم ذا ثلاثة طوابق قد شيدت على الطراز القديم؛ حيث يغلب استخدام لحاء الأشجار للزينة والطوب الأبيض للحوائط ونظيره الرمادي للأعمدة، وأودع كين جون في المقر بعد وداعٍ حار فدلف جون لبوابة المقر بخوف قبل أن يلمح ممرًا قصيرًا ينتهي بباحة تراصت على أطرافها غرف كبيرة للدروس النظرية.

وعندما قابل السيد فليك مدير المكان قام بأخذه في جولة حول المكان، كان فليك شابًا في الثلاثينيات وقتها، وعمله في إدارة المكان رغم سنه الصغيرة ليس أمرًا شاذًا أبدًا؛ فهو مسؤول فقط عن ترتيب احتياجات الطلاب ومعلِّميهم والتأكد من توافر سبل الراحة لهم، وبعدما انتهوا

تمامًا من الباحة بالدور الأرضي اصطحبه للطابق الأول وقال: هنا مسكن الطلاب، يكون فارغًا عمومًا طوال العام؛ فكما تعلم هناك ستة منكم هذه السنة.

وعندما وصلوا إلى الطابق الأول كان هناك ممر عريض متسع، وتراصت عدة أبواب على جانبيه، أشار له فليك قائلًا: جميع الغرف متاحة، اختر منها ما شئت.

سأله جون: وماذا يوجد في الطابق الثاني؟

رد فليك بابتسامة: مكاتب المعلمين وغرفهم، إذا احتجت شيئًا مني ستجدني هناك، ارتح الآن، وستبدأ دروسك في الغد.

وتركه ليختار غرفته.

مشى جون في الرواق متفحصًا الغرف فوجد جميع الأبواب موصدة عدا باب غرفة واحدة، أخرج المفتاح من قفل الغرفة ودفع الباب برفق ليكشف عن حجرة صغيرة عادية، ذات سرير مرتب، ومكتب صغير ومكتبة من ثلاثة أرفف، ربما كان الأمر عاديًا لأي شخص لكنها كانت جنةً بالنسبة لجون الذي لم يذق دفء الفراش منذ ثلاث سنوات.

طُرق باب غرفته فإذا بأحد العاملين قد أحضر له ثيابًا جديدة، شكره جون وسريعًا بدَّل ثيابه وترك الفراش يأخذه لعالم الأحلام، وبعدها كانت أيامه في المقر طبيعية، يستيقظ صباحًا ليحضر دروسه، وفي الليل يطالع بعض الكتب التي يعطيها له فليك وهكذا دواليك قبل أن تتغير تلك الحياة عندما أنهى دروسه في أحد الأيام حين عاد لغرفته ليجد رمزًا

غريبًا قد نقش على الحائط، كان رمزًا حادًا لم ير جون مثله من قبل؛ فقد كانت أغلب اللغات القديمة ذات حروف ناعمة ومتصلة كلغة الجان وغيرها من اللغات، أمَّا هذا النقش فكان نقشًا ذا خطوط حادة ومتقاطعة، أشبه ما يكون بالتشققات التي تصيب الصخور، لكنها بالتأكيد لم تكن من تكوين الطبيعة.

ترك جون غرفته وقصد مكتب السيد فليك الذي سارع بالذهاب مع جون ليتفقد الأمر بنفسه، ولما دخل فليك إلى الغرفة قال بتعجب: أي نقوش، إني لا أرى شيئًا!

غزا العرق جسد جون، وشعر ببرودة تنخر عظامة؛ فقد كان النقش قابعًا وسط الحائط كما هو، أولى فليك ظهره لجون قائلًا: ارتح غدًا يا جون، يبدو أن التَّعب قد نال منك.

وغادر الغرفة ليترك جون غارقًا في بحر أسئلته.

مرَّت تلك الأيام صعبة وثقيلةً عليه؛ فمع كل يوم كان يجد نقشًا آخر قد ظهر ليملأه بالتساؤلات من جديد، حاول مقارنتها عدة مرات بالحروف القديمة للغة البشر أو الأقزام فلم يجد أدنى تشابه بينهما، وبعد مدة بدأ يسجل النقوش في مذكراته بدايةً بالنقش الأكبر ثم النقوش التي تلته، وفي أحد الأيام قرر أن يأخذ خطوة جادة لحل لغز النقوش فزار فليك في مكتبه، وحصل على إذن بدخول مكتبة المقر، وكانت تلك المكتبة تقبع تحت المقر الرئيسي ولا يستطيع أحد دخولها إلا بتصريح من أحد المعلمين أو فليك نفسه.

هبط سلمًا من الدور الأرضي قبل أن يقابل باب المكتبة في الممر الضيق أمامه فطرق عليه عدة طرقات، فُتحت فتحة في أعلى الباب كاشفة عن عيني شخص، وقال لجون بصوت طاله الكبر والعجز: تصريحك.

رفع جون الورقة التي أعطاها فليك له وقد برز ختمه الشمعي عليها قبل أن يُفتح الباب كاشفًا عن شيخ طويل القامة، ذا جسد نحيل قائلًا لجون: تفضل.

دلف إلى المكتبة التي غزاها الظلام عدا بضع البقع التي ظفرت بها أضواء الشموع؛ فتناول إحداها وأخذ يبحث بين الرفوف عما يفيده دون جدوى، وبعد عدة ساعات قال له الشيخ: إن مكتبتنا هنا يا بني صغيرة، وربما لن تجد ضالتك لدينا.

تنهَّد جون، وقد تسلل الهم من بين أنفاسه سائلًا: وماذا أفعل إذًا؟

قال الشيخ له وقد بدأ في مطالعة كتاب كان يقرأه: اذهب إلى مكتبة العاصمة؛ فالمكتبة هنا أصغر من رف واحد من المكتبة الكبرى هناك.

اندهش جون من قول الشيخ؛ فالمكتبة هنا ليست بالصغيرة ويمكنه التخمين دون قلق أنها تحوي آلاف الكتب، وهو عدد لم يره مجتمِعًا في مكان واحد قط.

قال جون متعجبًا: أحقًا ما تقول!

نظر له الشيخ بطرف عينه وقد أومأ له إيجابًا؛ فترك جون المكتبة وعاد لغرفته، وبدأ يعد الأيام حتى موعد خروجه من المقر، وبعد مرور سنة كاملة عليه في المقر تسلَّم جون معطف الباحثين الأسود ذا الخطوط

الحمراء والذي كان يعتز به أيَّما اعتزاز، وقتها سُئل ستتهم عن المكان الذي يحبون أن يصلوا إليه مباشرة عبر بوابة المقر السحرية فاختار جون بلا تردد العاصمة إستيليرزيا.

ربما كانت لديه تلك الرغبة الملحة بالعودة إلى دياره، والاطمئنان على أهله لكن دافعًا خفيًا هو نفسه لم يستطع تفسيره كان يدفعه دفعًا نحو البحث عن كنه تلك النقوش الملعونة، استيقظ باكرًا غير مصدق أن ذلك اليوم قد حان، وبدأ يتحسس النقوش على الحائط في شغف قبل أن يهبط درجات السلم نحو الباحة في الطابق الأرضي، وقد امتثل بابٌ كبيرٌ من خشب البلوط الداكن في مدخل الممر القصير وزملاؤه يقفون في صف واحد، وقبل أن يأتي دوره للخروج عبر الباب شعر جون بآلام في معصمه الأيمن فرفعه نصب عينه ليرى ما حدثه عنه المعلم كين فيما مضى، كائنٌ أسود اللون، كثيفُ الشَّعر، ذا عينين صبغتا بلون رمادي منطفئ، وقد التفَّ حول معصمه عاضًا إيَّاه بأسنانه الكليلة، ومن ثم اختفى الكائن ومعه الألم.

كان ذلك سوار جلادور الذي يلتصق بالساحر قبل مغادرته للمقر، أما عن وظيفته فقد كانت منع كل من تسول له نفسه ممارسة السحر الأسود المحرم؛ فعندما يستخدم المرء السحر تجري الطاقة في جسده عبر نوع من البوابات، وللسحر الأسود نسقٌ معين في جريان تلك الطاقة، وإذا لاحظ الجلادور ذلك يمتص طاقة الساحر كلها محولًا إياه إلى غبار متطاير، ولم تكن تلك وظيفته الوحيدة فحسب بل كان لمجلس السحرة الحق في وضع شروط إن خُرقت ستعاقبهم الجلادورات.

جاء دوره ففتح الباب كاشفًا عن ضوء ساطع كان قد اعتاده، وتعلَّم أن هذا سحرُ انتقال رفيع المستوى يحتاج لمكان ذا أساس سحري قوي لتطبيقه كالمقر، والصحراء المجهولة، وقلوب جبال أزتلان، وكل ما احتضنته الطبيعة بعيدًا عن البشر.

مر عبر الضوء برفق، ولمَّا انسلَّ منه فتح عينيه بهدوء ليبصر شيئًا جديدًا غير الصحراء وأوجه المعلمين التعساء والنقوش الملعونة التي كان لا يرى غيرها لعدة سنوات، وجَدَ نفسه واقفًا فوق صفحة من الحشائش الذهبية التي طالما سمع عنها، إنَّها بساتين جنوب العاصمة، ولمَّا رفع عينيه رأى جسر البوابة المعلق بوضوح.

كانت العاصمة إستيليريزيا ذات بوابة واحدة قبعت في نهاية جسرٍ معلق بجنوبها فوق بحيرة فارلون العريضة، ربما كان هذا الجسر أحد أقوى الأدلة على بناء السحرة الأوائل لهذا المكان؛ فقد كان سابقًا لعصره بكل المقاييس.

كتلٌ صخرية عملاقة عريضة امتدت أمام جون على مشارف الجسر، لم تحملها فوق البحيرة غير السلاسل الفولاذية المتينة السوداء التي تدلت من عامودين من الصخور المدعمة بالحديد اتَّصلت بمنتصف الجسر ومن ثم بعامودين آخرين آخره، لم يحمل ذلك الوقت من العام الكثير من الزوار للعاصمة فقد خلا الجسر تمامًا فتسنَّى لجون الاستمتاع بمنظر البحيرة من أطراف الجسر مع نسائم الهواء الباردة، ولم تمض عدة دقائق حتى كان جون عند البوابة المهيبة التي بلغَت من الطول

ثمانية أمتار نُقِشَت عليها عبارات فخر وتبجيل لعائلة الأفالون، وبمنتصفها طائر عنقاء بلون كهرماني خلاب، تقدَّم جون نحو الحرس فسأله أحدهم بملل قاتل: ما اسمك؟ ولماذا جئت للعاصمة؟

أخرج جون من جيب معطفه ورقة تعريف كان قد أعطاهم إيَّاها السيد فليك مفادها أنهم سحرة تحت رعاية المجلس، وقال جون وقد ناوله الورقة ببرود: أدعى جون.

ولم يشأ ذكر اسم عائلته حتى لا تحدث بلبلة حول قدوم أحد أفراد فالكون رفيعي المستوى إلى العاصمة دون سبب، تناول الحَارِس الورقةَ في امتعاض وقد عقد حاجبيه وهو يهمُّ بإلقاء دلو من السباب على جون لعدم تعريف نفسه بالشكل اللائق قبل أن يقرأ الورقة، وتبدلت ملامحه وضرب الأرض بقاعدة الرمح قائلًا في رسمية: تفضل يا سيدي.

ولم يُدخِله من باب العامة الصغير القابع يمين البوابة العملاقة بل أشار لفرسان البوابة ففتحت له على مصرعيها، وكانت الشمس لا تزال في أوج قوتها وقد انتصفت السماء عندما وضع جون أولى خطواته في العاصمة.

كانت إستيليريزيا مثالًا حقيقيًّا للطبقية؛ فتصميم المدينة ذاته بُني على هذا الأساس، قُسمت إلى ثلاثة مناطق أو قطاعات، فبدأت جنوبًا من البوابة حيث الضواحي التي اتخذت شكل هلال قلَّ سُمكُه كلما اتجهت شرقًا أو غربًا، تلا الضواحي قطاع الحدادين، وقد سمي بذلك

نسبة لساحة الحدادة الكبيرة التي تنتصف القطاع والتي كانت مصدرًا للسلاح والعتاد الدائم لحرس المدينة وآل أفالون، وقد كان أكثر القطاعات سكانًا لاحتوائه على العمال والموظفين وحتى بعض خدم القصور، وقد ملأ ذلك القطاع من باطن هلال الضواحي جنوبًا حتى أكمله كقمر أحدب، وأخيرًا ما يُكمل قطاعُ الحكم العَاصِمَةَ لتبدو كبدر مكتمل.

احتوى ذلك القطاع على الصفوة والنبلاء والأعيان وبعض رجال العلم، وانتهى في أقصى الشمال بقصر الحكم المصطبغ باللون الأبيض، وقد أطلَّ مشرفًا على المدينة برجه العلوي الذي خرج من منتصف القصر وتحديدًا من فوق قاعة العرش تارِكًا خلفه ما يسمى بالحافَّة وهو خندق عظيم كان والد جون السيد فرانك قد حكى قصصًا عن كيفية بناء ذلك الخندق، وأخبره أنَّ السيدة ماريانا أعظم السحرة الأوائل قد شكلت العاصمة وسراديبها التي تصلها بكبرى المدن لكنها تهدمت، ولم تعد تعمل على أية حال، ثمَّ حفرت الخندق المسمى بالحافة بعد أن اكتسبت أعداءً بمملكة كروستافيا غربًا، عمقه غير معروف بالتحديد، ولكن طوله قد بلغ الفرسخين، وعرضه بالكاد يصل إلى الفرسخ ونصف؛ لذلك كان بحرًا من الظلام.

كانت وجهة جون هي المكتبة والتي توجدُ على أطراف قطاع الحدادين حيث تكثر هناك مظاهر الرقي التي انتقلت إليهم من قطاع الحكم، وعلم جون طريقه مسبقًا من السيد فليك حيث أخبره أن يسلك طريق

المجد من البوابة وحتى آخره، وهو الطريق الذي يصل بين البوابة ومدخل قطاع الملك، وقد كان أكبر طرقها.

تنهد جون وهمَّ بتحريك قدمه لكنَّه وجد رجلًا يقود حصانًا ويجر من خلفه عربة ذات مقعدين، وقد اقترب منه صائحًا: أتريد توصيلة يا سيدي؟

قال له جون: أريد أن أذهب إلى المكتبة الكبيرة.

تفحَّصه الرجل بعينيه، ثمَّ قال له: تفضل يا سيدي، تفضل، سآخذك إلى هناك.

وتقدم بعربته حتى أصبحت درجات الصعود الخشبية أمام جون الذي اعتلاها سريعًا قبل أن يصيح الرجل بحماس في جواده، كان طريق المجد طريقًا صخريًا ممهدًا، وبدت علامات الأصالة في أوله، ثم بدأت آثار الغنى والترف تظهر كلما تقدم شمالًا، كان الهَواء البارد يداعب وجهه وهو يتأمَّل البنايات يمنة ويسرة وكانت تختلف تمامًا عن نظام آماليثيا الدقيق جدًا، وربما لمح في بداية الطريق مبانٍ من طابقين تليها مبانٍ من أربع طوابق وهو ما لم يره في عاصمة الجنوب، وحين قاربت الشمس على الغروب وصل إلى المكتبة أخيرًا، وقال له الرجل مبتسمًا: خمس فضيات من فضلك.

تعجب من الثمن الذي يطلبه لكنه أرجع ذلك لكونها العاصمة، ومن الطبيعي أن تكون أسعارها أبهظ بكثير مما اعتاد عليه، ناوله القطع الفضية سائلًا: أيمكنك أن تدلني على مكان للمبيت؟

قال له الرجل: لا أنصحك بالمبيت هنا على الإطلاق؛ فليلة في قطاع الحدَّادين ستكلفك ذهبية كاملة على أفضل حال.

وقبل أن يشد لجام حصانه عائدًا إلى الجنوب قال: نصيحتي أن تبيت في الضواحي، وإن أردت قصد المكتبة مرة أخرى فثمنُ الطريق والحانة سيكون أقل بكثير.

شكره فانصرف الرجل قبل أن يلتفت جون ليبصر المكتبة الكبرى، أطلق صفير إعجاب وقال: لم يكذب الشيخ فيما قال.

كان أي شخص ليقول ذلك؛ فالمكتبة الكبرى صرحٌ ضخمٌ وقد تكون من عدة أبراج متصلة متباينة الطول، وقد خرجت من قاعدة واحدة ضخمة ذات حديقة أمامية تليها بوابة مهيبة، كانت الشمس في ركن السماء كثمرة برتقال على وشك الانفجار لشدة نضجها، وقد ألقت بأضوائها الحمراء على المكتبة عندما دلف جون عبر بابها الحديدي الكبير.

وسريعًا عبر الحديقة الأمامية حتى وصل إلى باب المكتبة الرئيسي، فلما دخل المبنى إذا به في باحة كبيرة تتوسطها شجرة عتيقة ذات لحاء بني داكن قد شققه الزمن، وحولها بركة من الماء تراقصت داخلها أسماك ذهبية بصورة بهية، وعلى أطراف الباحة وجدت حجرات الوكلاء وهم موظفون في المكتبة مهمتهم تصنيف الناس حسب رتبهم واحتياجاتهم، فحتى العلم في العاصمة قد غُلَّ بالطبقية.

راح يتجول في الساحة حتى قادته قدماه لإحدى غرف الوكلاء فانتظر خارجه حتى سمع صوتًا من الداخل صاح فيه: تفضل.

فدخل الحجرة وقد بلغ حماسه أوجه، وخلف المكتب الخشبي جلست موظفة ذات شعر أرجواني داكن قد خُلط ببعض الخصل السوداء، قالت له بهدوء: أهذه زيارتك الأولى؟

رد جون: نعم، إنها كذلك.

- وماذا تعمل يا سيد....

- جون.

ابتسمت في حرج وقد نسيت أن تسأله عن اسمه قبل أن تقول مبددة ذلك الحرج: أدعى ريتا، شرفت بمعرفتك يا سيد جون.

أخرج جون الورقة التي سلمها لهم فليك، ثم ناولها إيَّاها فارتسمت على وجهها علامات الانبهار قبل أن تقول: مرَّ زمن منذ زارنا ساحر باحث.

كانت تلك هي رتبة جون والتي قلَّت عن مشرفي الأكاديمية برتبة واحدة، أخرجت له من درج مكتبها خاتمًا ذا حجر من الزفير الأزرق، وقد علم منها أن كل شخص يحصل على خاتم بلون معين حسب عمله يُحدد قدر المعلومات التي يستطيع الوصول إليها، وقد كانت رتبته الرابعة من أصل ستة رتب.

ابتسمت له بلطف، ثم قالت: كيف يمكنني خدمتك يا سيدي؟!

أخرج مذكراته مشيرًا إلى أكبر النقوش، ثمَّ قال: إنني أبحث عن كتب عن هذه اللغة.

وحاول أن يجرب حظه معها؛ فقد أخبره الشيخ أمين مكتبة المقر ذات مرة أن وكلاء المكتبة الكبرى يطَّلعون على كتبها بنهم شديد فجال بخاطره أن أحدهم ربما علم إلى أي لغة تنتمي تلك النقوش، ارتسمت علامات التعجب على وجه الفتاة، ثم أسندت وجنتها لباطِن يدها مفكرة حتى قالت: في الحقيقة لم أر مثلها من قبل، ولو لم تخبرني أنها لغة ما لظننتُ أنها سطح صخرة متشققة لكن بعد ذكرك لذلك...

ملأت صدرها بالهواء، ثمَّ قالت بعد زفير طويل: يبدو بالفعل أنها ليست من تكوين الطبيعة.

أخرجت ورقة صغيرة ودوَّنت عليها بضع كلمات، ثمَّ ناولتها لجون قائلة: أعط هذه الورقة لعامل المصعد وسيوصلك إلى قسم اللغات القديمة.

شكرها في ودٍّ، ثم اتجه نحو المصعد وناول العامل فيه الورقة التي كتبتها ريتا.

كان المصعد عبارةً عن قفص حديدي، ذا قاعدة فولاذية مصمتة، فوقها طبقة من المخمل الأحمر الذي اهترأ وبهت لونه، وعلى جدار المصعد كانت هناك لوحة حملت دوائر على كل منها حروف وأرقام مختلفة، أخذ يضغط على الدوائر ناظرًا للورقة بحرص قبل أن يتحرك بهم بشكل رأسي لأعلى، ثمَّ مال بهم بعدة زوايا حتى توقف تمامًا، خرج جون من

المصعد وشكر الرجل وبدأ يُحرِّك عينيه أمامه بتلك القاعة التي وجد نفسه فيها.

كانت قاعة كبيرة، اكتست جدرانُها بأرفف من الكتب والمخطوطات، ومن ثم كان هناك ممر وسط أرفف خشبية من الكتب تراصت فوق بعضها، وقد برز من أمام كل رف قطعة خشبية صغيرة كُتِبت عليها أحرف مختلفة ليسهل إيجاد الكتب، وفي نهاية ذلك الممر كانت هناك مساحة خالية من الكتب وضعت عليها طاولات أنيقة الشكل لمطالعة الكتب بهدوء.

لم يكن هناك أحد في المكان تقريبًا؛ فأخذ يتمشى بين الكتب قبل أن يلتقط عدة مجلدات ويجلس إلى إحدى الطاولات، أخذ يقرأ تلك الكتب في نهم عدَّة ساعات حتى انتصف القمر بالسماء وتسلل التعب والإعياء إلى جسده دون أن يجدَّ أي جديد فعاد أدراجه وقد اعتراه الإحباط، وشعر أنه قد فقد فرصته الأكبر لحل هذا اللغز اللعين.

استأجر غرفة بأحد حانات الضواحي الرخيصة لعدة أيام دون أن يدري كم سيمكث فيها، وكانت أيَّامه في العاصمة روتينية لا تختلف عن بعضها كثيرًا، يقرأ الكتب صباحًا دون أن يجد شيئًا جديدًا، وعندما يحل الليل يغزوه التعب ويعود للمبيت في الحانة، وفي أحد الأيام دخل المكتبة كالمعتاد، ثم همَّ بالتوجه إلى المصعد قبل أن يستوقفه صوت ريتا آتيًا من خلفه بخوف: سيد جون!

التفت لها وزيَّف ابتسامة وقال: ريتا، كيف حالك؟!

- أنا بخير.

ثم ضمت يديها إلى بعضها البعض، وطالعت الأرض بحرج قائلة: هل لديك ما تفعله الليلة؟

رد جون بعفوية: كلا.

ابتسمت ريتا وقد احمر وجهها خجلاً، ثم قالت بتردد: أيم.. أيمكنك... أيمكنك تناول العشاء معي الليلة؟

فكر لهنيهة فلم يجد مانعًا من ذلك؛ فقد سئم الكتب والأوراق وراحت نفسه تضيق كلما أبصر مذكراته التي تحمل الرموز.

فرد بهدوء: ولم لا.

ابتسمت ريتا وقالت بحماس: حسنًا، بعد الغروب مباشرة عند بحيرة الذكريات.

وهربت من أمامه بسرعة في سعادة غامرة، لم يدر جون ما سر تلك البهجة الكامنة في تناول وجبة عشاء مع تعيس مثله.

أنهى بحثة اليومي سريعًا، وفي طريقه وقبل أن يعود مرَّ على متجر لبيع الملابس لم يبتعد كثيرًا عن المكتبة؛ فقد أراد أن يغير معطف الباحثين ولو قليلًا فقد سئم المعطف نفسه منه، ولو كان للمعطف لسانٌ لأمَّن على ذلك، ابتاع من هناك سترة زرقاء قاتمة قد زخرفت بخطوطٍ بيضاء، واشترى أيضًا معطفًا أزرق كمياه قاع المحيط، وقد أبرز بوضوح السترة من ورائه، ثمَّ عاد سريعًا للحانة مبدلًا ثيابه، ولما رآه الساقي سأله: لما لم ترتدي هذا من قبل؟

وداعبه قائلًا: لقد اعتقدت أنك ولدت بذلك المعطف الأسود.

فأطلق جون ضحكة خفيفة قبل أن يخرج من الحانة قاصدًا إحدى العربات.

كان يمقت شوارع العاصمة ليلًا؛ فقد أظهرت المدينة على حقيقتها وخلعت ثوب العفة والشرف الذي كانت ترتديه صباحًا، كانت أقرب ما يكون إلى شوارع فيلينيا لكن الفرق الوحيد هو شفافية فلينيا، فاحتقر ذلك بشدة وكتمه في أعماقه.

ركب عربة، ثم قال لقائدها: بحيرة الذكريات من فضلك.

ابتسم الرجل بخبث، وأومأ إيجابًا، وأخذ يشق طرق العاصمة حتى بلغ وجهته، أخذ الفضيات من جون وقال بلزوجة: أتمنى لك التوفيق.

ثم غادر سريعًا.

لم يدر جون مقصد الرجل من عبارته تلك لكنه وعلى كل حال أدار ظهره للطريق كي يرى أجمل منظر رآه في حياته، بحيرة زرقاء صافية كسماء بلا سحب، وحولها مساحة كبيرة من العشب قد أخذ من الزمرد لونه ومن الحرير نعومته، وانتشرت في المكان طاولات جلس إلى كل واحدة منها فتىً وفتاة، هنا تذكر سعادة ريتا المفرطة وتمني قائد العربة له التوفيق عندما غادره، فقال في نفسه: أوافقت على موعد غرامي دون أن أدري؟!

ثمَّ تأكدت شكوكه عندما ظهرت ريتا أمامه على مسافة ليست بالبعيدة وقد ارتدت فستانًا أبيض من المخمل قد خيطت به طبقة زهرية شبه

شفافة، وأضفى عليها جمالًا أخاذًا للقلب قبل العين، لم تكن علاقة جون بريتا قوية حقًا لكنه دائمًا ما أُعجب بترشيحاتها لبعض الكتب الجانبية التي يكسر بها مرارة البحث عن سر النقوش.

تقدمت نحوه في خجل، وضمت يدها إلى وجهها بإحراج قائلة: آسفة، تأخرت بعض الشيء.

ابتسم جون في توتر قائلًا: لا عليكِ، لقد وصلت لتوي.

أشار لها تجاه إحدى الطاولات قبل أن يبعد كريسها عن الطاولة قليلًا، ثم قال: تفضلي.

فجلست وقد احمر وجهها قبل أن يجلس جون قبالتها، أججت الإضاءة حول البحيرة مشاعر ريتا بلونها النحاسي الخافت ووترت جون أيضًا الذي لم يسبق له أن وضِع في موقف كهذا، رمقها بطرف عينه، ثم قال: تبدين جميلة.

فداعبت أطراف شعرها الذي لمع مع أضواء المكان، وقالت دون أن يفارقها الخجل: لم أعتد أن أتزين هكذا.

ضحك جون قائلًا: هذا مشتركٌ بيننا إذًا.

بلؤم قالت ريتا: أعلم ذلك، لم تأت للمكتبة يومًا بمعطف مختلف.

فضحك الاثنان، وقد أخذا يعتادان الموقف حتى تآكلت الحواجز بينهما شيئًا فشيئًا.

جاء رجلٌ إليهما حاملًا وجبة خفيفة تكونت من خبز محمص معجون بالثوم وطبق صغير من اليخنة الفاخرة، تناولها كلاهما ببطء وقد تبادلا أطراف الحديث.

سألت ريتا بفضول: لماذا تهتم باللغات القديمة كل هذا الاهتمام؟

- إنها قصة طويلة.

همَّ بحكي كل شيء لها قبل أن تعلو أصوات العازفين من خلف البحيرة بنغمة رقيقة؛ فقام الجميع من مجالسهم، وعلى ضفاف البحيرة شرعوا يتراقصون، وأخذ جون يتأملهم قبل أن يشعر بريتا وقد جذبت يده قائلة: هيا بنا.

أخذته حتى وصلا إلى الضفة، وعندها قال جون بحرج: إني لا أجيد الرقص.

أمسكت بيده وأسندت يدها اليمنى إلى كتفه قائلة: لا عليك، فقط اتبع خطواتي.

أخذت تتحرك إلى الخلف خطوة فيتبعها هو للأمام بواحدة ويمينًا ويسارًا، ثم تتشبث بطرف يده فتلتف أمامه ليلتقطها هو بيده مسندًا إياها إلى صدره بهدوء، كان يتأمل عينيها في حيرة، ويرمق شعرها اللامع كنفيس الجواهر حتى وقع في شركها وذاب قلبه فسيطرت على كل ذرة من عقله، كان الأمر وكأن فؤاده قد استسلم لها استسلامًا غير مشروط، وأخذ العرق يغزو كليهما وعلت الأنغام حتى بلغت الرقصة ذروتها قبل أن تنتهي به مائلًا نحوها قليلًا مع توقف العزف.

اعتدل كل منهما بخجل، ووقف جون منتصبًا، ثم قال بصوت لاهث: لم أشعر بحيوية بهذا الشكل من قبل.

وعبر خيوط الضوء الخافت قالت: ولا أنا.

ثم جرَّ كل منهما نفسه للطاولة وقد أخذ التعب منهما مآخذ كثيرة، تأمل جون نجوم السماء مالئًا صدره بشذى الليل في أسندت ريتا وجنيتها إلى باطن يدها برقة، وقالت: لم تخبرني سبب فضولك الشديد باللغات القديمة.

تنهد جون وبعد زفير طويل قال: لقد بدأ الأمر منذ التحقت بالأكاديمية.

ثمَّ أخذ يقص عليها أمر ظهور تلك النقوش من العدم وعدم رؤية أي شخص لها غيره، وذلك الدافع الغريب الذي يقوده للبحث عنها دون فعل أي شيء آخر فتنهدت قائلة: للمجهول شغف لا يضاهيه أي شيء آخر، أليس كذلك؟!

ثمَّ تسلل الإحباط والأسى لأنفاس جون عندما رد عليها بهدوء قائلًا: هذا صحيح في البداية على الأقل، لكن الآن وقد انتظرت أكثر من عام كي أحل لغزها وقد أجلت الاطمئنان على أسرتي!

سكت، وقد راح يرمق الطاولة بندم، ثم وقال: ربما تسرعت بالفعل في خوض رحلة كهذه.

قالت ريتا محاولة مواساته: ألم تسأل أيًا من معلميك هناك؟!

ربما أحدهم يعلم شيئًا عنها.

- معلمونا ليسوا أشخاصًا يمكن أن أجدهم حينما أريد، إنهم أشخاص مرتحلون باحثون عن العلم والمعرفة.

ثمَّ سكت برهة، وأسند ظهره إلى كرسيه قائلًا: وعلى كلٍ فجميع معلمينا في المقر لم يعلموا شيئًا عنها، إذا كان هناك من يعرف سرها فلا يوجد سوى معلمي كين.

ابتسمت ريتا، ثم قالت بشغف: راسله إذًا.

- لا يمكنني، فحتى بأسحار خاصة بذلك لن أستطيع، لقد علمني فيما مضى أن كثيرًا من فخاخ السحرة تأتي على هيئة رسائل تفعل حين فتح الرسالة.

ثمَّ قال بعد زفير طويل قد ملأه اليأس: إنه رجلٌ شديد الحذر، ولن يقبل أي رسالة حتى لو كانت من والده المتوفى.

شعرت ريتا بالأسى عليه؛ فربتت على كتفه برفق قائلةً: ستجد حلًا، لا تقلق.

ثم تسامرا حتى انتصف الليل دون أن يشعر أي منهما بثقل الوقت، إنها تلك الأوقات السعيدة التي يطير فيها الوقت كالخيل في ساحة القتال، كمواخر البحر، كطيور السماء.

نهضا سويًا، ثم اصطحبها جون لإحدى العربات، ولما اطمأنَّ عليها عاد هو الآخر إلى الحانة التي اعتاد المبيت فيها، وفي اليوم التالي راح في سبات عميق فلم يستطع الذهاب إلى المكتبة، لكنه في صباح اليوم الذي تلاه كان في ساحة المكتبة بوجه قد اشتد نورًا وكأنما دبت فيه الحياة من

جديد؛ فمن يراه منذ يومين أو ثلاثة لا يصدق أنه نفس الشخص، فلألاعيب القلب تأثير أقوى من السحر وأشد وطأة من اللعنات.

راح يمسح الساحة بيعنٍ ملتمعة عميَت عن كل الموجودات سواها، كان شعورًا غريبًا بالنسبة لجون أن ينصبَّ تفكيره تجاه شخص واحد نابذًا غموضه المعتاد، وانغلاقه على نفسه فكان الأمر بالنسبة له وكأنما وقع تحت تأثير تعويذة لا يجد لنفسه مفرًا منها، وكانت ريتا تفرض نفسها على كل أولوياته ضاربة بطباع جون ورسميته التي اكتسبها من الأكاديمية عرض الحائط، إنَّ دقة القلب الأولى تظل مميزة عن الباقيات إن فاتتك.

ولم يلبث بضع ثوانٍ حتى وجدها في مكتبها المعتاد الذي لم يدخله سوى عدة مرات لكنه هذه المرة شعر كأنه يراه للمرة الأولى، أخذت عينه ترمق الغرفة بنظرات خاطفة، وقد لاحظ ذوقها الرفيع وحبها الواضح لأزهار الياسمين، أما عن اجتماع ضوء النهار المتسلل عبر نافذة الغرفة مع شعرها ورائحة الزهور فقد شعر جون وقتها أنه بارتدائه الدائم للملابس السوداء كذبابة قد دخلت إلى بستان زهور أو جنة ثمار بالخطأ.

كان وجهها مختلفًا قليلًا عما رآه آخر مرة؛ فقط مزجت ملامحها ببعض الحزن وأذهبت بعض نضارتها، نادته ريتا عدة مرات حتى أدركت أطلال صوتها مشارف أذنه فالتفت إليها بتوتر قائلًا: معذرة، لم أنم جيدًا البارحة.

- أستظل واقفًا هكذا طوال اليوم؟

- بالطبع لا، كنت أود حقًا لو أمضي بعض الوقت هنا لكن يجب أن أعود إلى بحثي.

ثم صمت برهة، وقال بارتباك محاولًا تبرير زيارته: كنت فقط أريد أن أراكِ وأطمئِن عليك.

وقبل أن يخرج قالت له: أعتقد أنك بهذا تضيع وقتك.

التفت لها جون وقد كان يعلم بالفعل ما تريد قوله قبل أن تتابع: لقد راجعت الأعمال التي قرأتها و...

أراحها جون وأكمل: ووجدتِ أنني راجعت كل اللغات تقريبًا التي دخلت القارة الأم منذ نشأت.

شعرت ريتا بالذنب وقد أحست أنها قد داست على موطن ألمه فقالت: آسفة لم..

هامت عيناه على سطح المكتب وقال: لا داعي للأسف.

- انهض، وأعدك أن أجلب لك المزيد من المراجع.

نهض جون كحصان عجوز راثيًا ما وصل إليه، محدثًا نفسه بسخرية عن كونه أحد أفضل السحرة بالمملكة وأنه كان سيعين مشرفًا لولا سنه الصغيرة، عاد إلى مكانه المعتاد وقد جلس إلى إحدى الطاولات منفردًا وجامعًا حوله كمًّا كبيرًا من الأوراق والكتب، راح يطالعها لساعات قبل أن تخمل روحه ويسيطر اليأس عليه، أكمل النظر إلى أرفف الكتب

أمامه، ثم صاح بصوت عالٍ: إن كان هناك من يعلم سر تلك النقوش فليدلَّني عليه.

ربما لو رآه أحد لظن أن الفتى قد أصيب بلوثة عقلية، ثمَّ أراح راسه على الطاولة أمامه حتى غلبه النعاس.

عندما انتصف النَّهار شعر بدفء يحاوطه؛ فلمَّا فتح عينيه وجد الطاولة أمامه فارغة تمامًا من أي كتب وقد وضِع غطاءٌ على ظهره حتى كتفيه، رفع رأسه عن الطاولة بهدوء قبل أن تأتي ريتا حاملةً كوبين من الشراب الساخن، ثم قالت: يبدو أنك قد أفقت.

ثمَّ وضعت أحد الكوبين أمامه؛ فتناوله جون وأخذ يرشف منه قبل أن يشعر بحدة المشروب، لاحظت ريتا ذلك فقالت: إنها أعشاب الشاي من الزنجبيل، سيساعدك هذا على استعادة نشاطك.

مرَّت فترةٌ من السكون ولم يفعل جون أي شيء فيها غير احتساء مشروبه واختلاس بعض النظرات إليها، وبعد وهلة شعر كلاهُما بثقل الصمت فأنهاه جون قائلًا بتردد: إذًا، ما الذي أتى بك إلى هنا؟

قامت ريتا بخفض صوتها في محاولةٍ بائسة لتقليد نبرة جون وقالت: لا شيء، جئت لأراك وأطمئن عليك.

فتذكَّر ضاحكًا زيارته لها صَباحًا في مكتبها.

أردفت قائلة بابتسامة قد مُزجت بشيء من الغم: أمزح معك، بالتأكيد أردت رؤيتك لكن... جئتُ لأطلب منك معروفًا.

اعتدل جون في جلسته، واقترب من الطاولة قائلًا: كُلِّي آذان صاغية.

نظرت إلى الطاولة بنظرةٍ جوفاء وقد ضمَّت ساعدها بباطن يدها، ثمَّ قالت بصوت غزاه الحرج: أعلم أنه من الوقاحة أن أطلب خدمة من شخصٍ لم أعرفه سوى لفترة قصيرة.

ثمَّ رفعت وجهها الذي طغى عليه الأسى وعلى صوتها قليلًا، ثمَّ قالت: صدقني، لم أكن لأفعل ذلك لو لم يكن الأمر هامًا.

أومأ جون إيجابًا في تفهُّم وقال: لا عليك، فقط قولي لي ما تريدين.

فأسندت ريتا ظهرها إلى الكرسي وقالت: إنها أمي، منذ مدة طويلة وهي تُعاني من كوابيس مرعبة.

ثمَّ رمقت جون في توجس قبل أن تتابع: لو كانت مجرد أحلام تعيسة لما أعرتُ الموضوع اهتمامًا وقتها، ولكنها كانت تصف لي أنها رأت عيونًا تلمع وسط الظلام قبل أن تمتد أيادٍ حمراء اللون لتمزقها إربًا.

بدأت الدموع تتسلل من عينيها لكنها تحاملت على نفسها وأكملت: تطورت حالتها أكثر، وبدأت تفقد وعيها لساعات، ثمَّ تُفيق متحدثة بصوت أجش غليظ وبكلمات شيطانية لا تنتمي لهذا العالم.

كان جون يراقبها بتركيز تام؛ مُحاوِلًا فهم حالة والدتها قبل أن تغطي فمها بكفها وقد خفت صوتها وبحَّه الأسى، وتسلَّل صوتها من بين شفتيها قائلة: أخذ جسدها يتغير وقد اعوَّجت قدمها، وبدأت تصغر وطالت أظافرها وقد آلت إلى اللون الأسود.

سكتت برهة مُحاولة جمع شتات نفسها؛ فقال جون مُواسِيًا إياها: لا عليك.

مسحت عبراتها، ثم تابعت: هنا قرر أبي أخذها إلى قرية بعيدة عن العاصمة تدعى آديري وتركِي هنا وحدي، خشي أن تؤثر على وظيفتي في المكتبة، وقد استمرَّ الحال هكذا لفترة لكن...

أخرجت رسالة من جيب سترتها وقالت: صباح اليوم وصلتني رسالة من أبي ذكر فيها أنَّ حالة أمي قد ساءت أكثر، وأنَّه اضطر لتكبيلها بالسلاسل و.....

أخذت الدموع تنهمر بغزارة من عينيها، وقد حارب صوتها للخروج فقالت: أخبرني أنه سيُسلمها للكهنة.

وأجهشت بالبكاء.

قام جون من مجلسه، واقترب منها مُربتًا على كتفها وقال: هوني على نفسك.

ثمَّ ضمها برق فشعر بها كلوح زجاجٍ رقيق، دلَّه قلبه على التمسك بها وخاف أن يضم ذراعيه أكثر فتتهشم بينهما، شعرت بدفئه فأغرقت وجهها في صدره، ثمَّ فقالت بصوتٍ متقطعٍ باكٍ: كيف أفعل؟!

سأفقد أمي يا جون.

وظلت تبكي لعدَّة دقائق، ثمَّ هدأت قليلًا قبل أن تقول: أريد أن أسألك إذا كان يمكنك إنقاذ أمي.

أمسك جون بذقنه مفكرًا لوهلة، ثمَّ قال: مثل تلك الأمور لا يستطيع أحدٌ البتَّ فيها دون فحصٍ مُباشر، ربما تكون لعنةً ما أو مسًّا لكن...

نظر في عينيها مباشرةً وقال: لم أسمع قط عن مسٍ قويٍّ يغير الجسد، فحتى اللعنات لا تفعل شيئًا بالتدريج؛ فإما أن يحدث التشوه وقت الإصابة أو لا يحدث أبدًا.

ذبل وجه ريتا قليلًا بعد سماع كلام جون؛ فقال متداركًا نفسه: نظريًا يُمكنني إنقاذها، لكن لا أعدكِ بشيء.

أرجع ظهره إلى الكرسي مفكرًا، ثمَّ قال: المشكلة فقط في ضيق الوقت لدينا...

قالت ريتا مطمئِنة إيَّاه: إذا وافقت على مساعدتي وتحرَّكنا غدًا سنصل خلال يومين تقريبًا، ولا تقلق ففي القرى الصغيرة كآديري لا يستطيع رجال الدين البقاء هناك بشكلٍ ثابت؛ لكثرة تلك القرى فهم يُرسلون لبعثات وعظ كل فترة، أعتقد أنهم سيصلون إلى القرية خلال أسبوع على أسوأ تقدير.

ابتسم جون متنفسًا الصَّعداء وقال: هذا أكثر مما نحتاجه.

وقفت ريتا وقد انحنت قليلًا، ثمَّ قالت بامتنان: لن أنسى صنيعك هذا ما حييت.

وفي حرج قال جون: لا عليكِ، لقد ساعدتني كثيرًا خلال بحثي، أنا من عليه شكرك.

ثمَّ اتفقا على التحرك في اليوم التالي مع أول ضوء للفجر.

عاد جون إلى الحانة وقد شعر بالحماس يتوغل في فؤاده؛ فأخيرًا وجد شيئًا يثير اهتمامه غير تلك الرموز اللعينة، ولكنه أيضًا لم ييأس من حل لغزها.

كالي

كان منتصف الليل قد كُسِر بساعتين تقريبًا عندما أفاق كالي من سُباته شاعِرًا بشعورٍ بضرورة قضاء حاجته؛ فنهض من فِراشه وجرَّ نفسه بتثاقل للمرحاض بعينٍ نصف مفتوحة، وعندما عاد على إلى غرفته أخذ كوبًا من الماء البارد وسقى حلقه الجاف فشعَر ـمن نسائم الهواء الخفيفة التي لاطفت وجنته وسريان الماء البارد بنعومة عبر فمهـ بالنَّشاط قد دبَّ فيه، وكرِه العودة إلى النوم؛ فارتدى معطفًا، وعدَّل هندامه، وهبط إلى الطابق الأرضي حيث الحانة الساهرة ففي فيلينا لا توجد مفردة تعبر عن النوم أو الراحة، وأغلب الحانات والأسوق تفتح أبوابها طوال اليوم بلا انقطاع.

بلغ الحانة فلمَح بطرف عينه جون وقد جلس وحيدًا إلى طاولة في ركن الحانة البعيد، هائِمًا بين ذكرياته وقد أرخَى رأسه على الطاولة ممسكًا بكأس نصف ممتلئ بالشراب، توجَّه نحوه بخطوات حثيثة، ثمَّ هز كتفه سائلًا: سيدي، هل أنت بخير؟

لم يُجِبه جون؛ فعلم سريعًا أنه قد ثمل تمامًا وصاح في الساقي: هل لي بدلوٍ من الماء؟!

أومأ الرجل له إيجابًا وصاح في أحد الفتيات فأحضرت له سريعًا ما طلبه.

ثمَّ أمسك بالدلو فأفرغه بالكامل على جون دفعة واحدة؛ فبدأ يسعل بشدة وأخذ يمسح وجهه الذي غرق تمامًا، ثمَّ رفع عينه قبل أن يقول بصوتٍ غزاه التعب والإنهاك: كالي؟

ثم أفرغ ما في معدته.

أشار كالي لإحدى الفتيات؛ فنظَّفت المكان سريعًا وأحضرت إبريقًا من الماء المُثلج لجون الذي شرب منه كأسًا واحدًا، ثم قال بأسف: يبدو أنني أفرطت في الشراب.

- لا عليك يا سيدي.

ثمَّ جلس إلى الطاولة قبالة جون.

كان كالي شابًا في منتصف عقده الثالث، وقد امتلك قامة طويلة وجسدًا متناسقًا، وبشعر رمادي أقرب للبياض منه إلى السمرة، ولدية مهارة في القتال؛ لذلك لُقِّب بين حرس فالكون بعُقاب الجنوب.

أشار للساقي فأسرع بصب كأس من الشراب له، ثم أخذ يتجرعه ما إن وصل إليه.

قال بهدوء محدثًا جون: ما الذي يقلقك يا سيدي؟!

دفن جون وجهه بالطاولة مرة أخرى، وقال بصوتٍ خافت: لا تقلق، هي مجرد كوابيس لا أكثر.

رمقه كالي بنظرة شكٍ، ثم قال: إن كان هنالك ما يمكنني إعانتك فيه فسيسرني لو أخبرتني.

رفع جون جزءًا من وجهه؛ فظهرت عيناه من بين شعره الأسود كعيني سمكة نافقة، ثم قال: ذكرى قديمة قد قررت نسيانها، لكنَّ عقلي يأبى دون ذلك.

ابتسم كالي ابتسامة خفيفة، ثمَّ قال: إنَّ الأعشاب الضارة يا سيدي يجب استئصالها من الجذور تمامًا وليس تجاهلها.

- هذا إن كنتُ أعدُّها عشبة ضارة.

ثم سكت برهة وقال: لا تشغل بالك بي يا كالي أرجوك، ودعني أختلي بنفسي قليلًا.

فنهض كالي عن الطاولة معتذرًا وعاد إلى غرفته.

***

راين

كانت الشمس في أوج قوتها عندما استيقظ راين على صوت طرقات الباب وقد تسلَّل صوت جون من خلفه قائلًا بحنق: هلا تفضَّل علينا مولاي واستيقظ؛ فلدينا رحلة طويلة.

فرك راين عينيه بكسل شاعرًا برغبة ملحة في إكمال نومه لكنه تحامل على نفسه ونثر الماء البارد على وجهه فنشط جسده قليلًا، ثم ارتدى سترته ومن فوقها العباءة ذات القلنسوة قبل أن يخرج معتذرًا لجون عمَّا بدر منه من تأخير، خرجا من الحانة بخطى حثيثة، واعتلى كل منهما صهوة جواده قبل أن تبدأ حركتهما عبر شوارع فيلينا الصباحية وقد

ترامى الرجال على جوانبها منهارين بعد أن نال منهم الشراب، أخذ راين يرمقهم بتقززٍ جاهد لإخفائه بعكس لوران الذي عبس وجهه، وأخذ يبصق أرضًا كُلَّما مروا على حفنة من الرجال السكارى، وعندما مضى النهار كانوا قد خرجوا من المدينة متجهين نحو جسر نهر الريفز الذي بناه ترايتون بعد الحرب العظمى مباشرة.

كانت الطبيعة تتبدل كلما اتجهوا شمالًا لكن من حسن حظهم أنَّ الشتاء كان على بعد عدة أشهر منهم، وقد ذكر راين ذلك الأمر لروز التي قالت متذمرة في إحدى الليالي حول النار: ما بال هذا الطقس اللعين؟!

وأخذت تنفخ بيديها وتفركهما ببعضهما البعض بشدة قبل أن يقول لها راين: إذا كنت تعتبرين هذا بردًا فأنتِ لم تري البرد الحقيقي.

ضمَّ ركبته إلى صدره، ثمَّ رشف رشفةً من شرابه الساخن وأكمل: شتاء العاصمة زمهريرٌ ينخر العظام بلا هوادة، هناك من الطبيعي أن تستيقظ لتجد جثةً أمام بابك لطفل قد أتى طالبًا الطَّعام لكنه تجمد حتى الموت.

قال جون وقد أولى ظهره لهم: هذا طبعًا دون ذكر عصر الظلام قبل الحرب العظمى عندما كانت الأجنة تموت في بطون أمهاتها قبل أن تولد، وترضِع الأم طفلها لتجده قد فارق الحياة على صدرها.

ارتعشت روز وقتها رعبًا وأخذت تشرب شرابها في نهم قبل أن تطلع الشمس ليكملوا مسيرهم نحو الجسر، وبعد مرور يومين من تركهم فيلينا كانوا على مشارف جسر ترايتون الحجري المقام على نهر الرفيز، أطلق لوران صفيرًا نمَّ عن انبهار شديد بالجسر الحجري؛ فقال له جون

قبل أن يحرك حصانه ليعبره: أتوق لرؤية ردة فعلك عندما ترى جسر العاصمة المعلق.

فضحك لوران بحرج، ثمَّ اندفع وراءه عبر الجسر.

أما نهر الريفز الذي قطع المملكة عرضًا فكان نهرًا عريضًا ينبع من الشرق بين الممالك الخضراء - وهي أربعة ممالك متحاربة بشرق أُتروبوس- ويمر عبر أُتروبوس، ثمَّ ينقسم في كروستافيا إلى رافدين مُنتهيًا هناك، وقرَّر راين أن يخيموا عندما يحل الليل على بعد برهة من الجسر، وعندما عادت الشمس لنشر خيوطها الذهبية تابعوا المسير في الشمال الغربي، كانت الأشجار تتناثر على الطريق يمنة ويسرة، والحشائش القصيرة تغزو حوافه وبدأ لونها يتبدَّلُ شيئًا فشيئًا إلى لون ذهبي صافٍ كلما مضوا في طريقهم نحو إستليريزيا، وبعد مرور ستة أيام من عبورهم الجسر كانوا في منتصف البساتين الذَّهبية التي تسبق العاصمة.

كانت روز قد اعتادت على البرد أو أن جمال المنظر قد أنساها لكنها على كل حال تركت خيلها، وأخذت ترمق المكان بإعجاب قبل أن ينغص جون عليها تلك اللحظات قائلًا: يجدر بنا التحرك وإلا سنبيت على الجسر.

فعقدت حاجبيها، وامتطت حصانها بامتعاض، ثمَّ اتجهوا ناحية الجسر المعلق الذي ما إن رآه لوران صاح دون أن يدري قائلًا: يا إلهي!

ثمَّ أخذ يتأمل البحيرة أسفل الجسر أثناء عبورهم قائلًا: كيف بُني صرحٌ كهذا قبل ثلاثمائة عقد من الزمن؟!

فردَّ راين بشيء من الرتابة قائلًا: كانت المدينة في الأصل ملكًا للمسوخ الغُزاة وقد حفروا أمامها حفرةً عميقة لحمايتها، وبعد انتهاءِ الحرب بانتصار الملك ترايتون أمر ببناء قواعد الجسر، ثمَّ وضعت فوق القواعد تلك الألواح الصخرية العملاقة.

فسأل لوران: إذًا، ألم يكن مُعلقًا من الأساس؟

هنا فرك راين مؤخرة رأسه، وأخذ يتذكر قبل أن يرد جون قائلًا: لم يكن كذلك، إنَّ الملك ولسببٍ ما بعد اكتمال الجسر أمر بملء الحفرة بالماء من نهر الريفز، وبعد اكتمال ملئها لاحظ البناؤون تشقُّق بعض الصخور التي لم تتحمل الماء وتزحزح البعض الآخر عن مكانها.

ثم نظر إلى الأعمدة في نهاية الجسر وقال: أتى كبير البنائين بحلٍ، وأمر الحدَّادين بتشكيل سلاسل عملاقة، وتشييد أعمدة على نوافذ الجسر من الصخور والمعادن قبل أن يصل السلاسل بالجسر.

عندما أنهى جون كلامه كانوا قد وصلوا إلى ذيل صف الدخول إلى العاصمة، والذي ازدحم بالتجار الذين يأتون كل اجتماع للتربُّح من حركة التجارة التي تصل إلى ذروتها في ذلك الوقت.

هنا قال جون بنبرةٍ عملية: ما فعلناه مع حرس فيلينيا لن يُجدي نفعًا مع حرس البوَّابة هنا.

سأل راين جون بنفاد صبر وقد شعر باختناقٍ من استعجاله الدائم لهم وتعليماته المستمرة: لماذا لا ندخل المدينة كما نفعل عادةً؟!

ثمَّ أتبع بغضب: إن كنت تخشى إرسال تورون مَن يغتالنا في الطريق فقد وصلنا، ولا أجدُ داعيًا للتخفي أكثر من ذلك.

تجاهل جون غضب راين وسأله: أدخلت الضواحي من قبل؟

رد راين بامتعاض: لا.

- إنَّ الضواحي هي موطن الفقر في العاصمة، ومَن فيها أخطر من أي مغتال قد تصادفه في طريقك إلى هنا.

ثمَّ رمق الصف الطويل أمامهم، وأشار للشمس التي كانت تستعد لترك مكانها وقال: لن نصل إلى البوابة قبل الليل، وسنضطر للمبيت في الضواحي.

فقال راين باستنكار: ألم تقل منذ قليل أنها أخطر مكان يمكنُنا الوجود فيه؟

فردَّ جون سريعًا؛ شارحًا وجهة نظره بنفاد صبر: هذا إن كانت هويتنا معروفة، وصدقني إن كُشِفت هويتك قبل بلوغ القصر فلن يتوانى تورون عن إرسال الصعاليك والفرسان المارقين؛ لقتلك قبل أن يرجؤوا ذلك للتقرُّب إلى جلالته ونيل رضاه فيتبرَّأ منهم.

تذكَّر راين نصيحة أبيه بدخول القصر في ذروة النهار؛ فليس من شيم النبلاء أن يصل المرء إلى مُضيفه أسفل غطاء الليل وكأنَّما يخشى رؤية الناس له، فالنبيل الحقيقي يمخر طريقه وسط الناس نحو مكان مضيفه

في وضح النهار لكنَّ نيكولاس كان قد أذن لهم بالتخفي عملًا بنصيحة جون، شريطة دخولهم القصر نهارًا.

ونظر خلفه فوجد التعب والإعياء قد نال من فرسانه الثلاثة؛ فزفر ثمَّ قال بغير اقتناع: فلتفعل ما تراه صوابًا.

ثمَّ ترجَّل جون عن حصانه وأعطى اللجام لكالي قبل أن يتجه نحو عربة مسقفة ذات حصانين كانت بالقرب منهم، نظر إلى ما في داخل العربة فوجدَها قد مُلئت بالبرتقال؛ فابتسم مُتجهًا إلى قائدها الذي كان رجلًا عجوزًا، قد وشت ثيابه وملامحه بأنه من إحدى قرى الريف البعيدة.

بادر جون الرجل قائلًا: أهلًا بك يا سيدي، إنه برتقال باهر ذلك الذي لديك.

لم يلتفت له الرجل، وظلَّ يرمق الصف في تبرُّم بينما أمسك جون بثمرة، ثم قال: أريد شراء كل برتقالك.

نظر له الرجل، ثم انفجر في الضحك قبل أن يقول جون له بهدوء: إنني لا أمزح، بكم تبيع كل ما في العربة؟!

قال الرجل مازحًا: خمس ذهبيات.

أعاد جون الثمرة إلى العربة، واقترب من الرجل، ثمَّ جذبه من سترته فألقاه أرضًا قبل أن يقول بغضب: ألم أقل لك أني لا أمزح معك يا هذا! والآن أخبرني بكم تبيع؟

قال الرجل وقد غرق في عرقه: ثلاث ذهبيات يا سيدي.

رد جون مُعترضًا: إني أوفر عنك عناء الدخول وبيع تلك الثمار في الداخل خلال أيام أو أسابيع، ومن يدري إذا إن لم تُسرق عربتك تلك في الداخل.

عدَّل الرجل من ملابسه وقال: ذهبيتان، ولن أقبل بأقل من ذلك.

- سآخذ العربة أيضًا.

- إنَّها مصدر رزق لي، ولا أملك غيرها، ولن أبيعك إيَّاها بأقل من ذهبية إضافية.

- ذهبية كاملة مقابل عربة وحصانين؟!

- ومن قال إنني أقصد الحصانين معها، سأعطيك حصانًا واحدًا لأجد ما أعود به.

اقترب جون منه وقال: اصدقني القول يا رجل، أيطير حصانك؟

ثمَّ تابع: ثلاثون فضية إضافية، ولن آخذ أيًا من أحصنتك.

أخذ الرجل يفكر قليلًا قبل أن يمُد يده مصافحًا جون، وقال: لدينا اتفاق.

فأخذ العملات من جون غير مصدق لما حدث، وغادر برفقة حصانيه لخارج الجسر، أشار جون لراين والفرسان وسرعان ما اقتربوا منه قبل أن يقول لراين: سنتخلص من أحصنتنا، وعندما نقترب من البوابة سنختبئ بين الثمار.

ثمَّ وجَّه نظره نحو الفرسان وقال: لوران وروز ستلعبان دور زوجين ريفيين أتيا لبيع الثمار، وأنتَ يا كالي ستدخل بمفردك على أنك فارس جوال.

سكت برهة، ثمَّ قلب نظره بينهم وقال: تخلصوا من الدروع قبل الدخول، لا نريد أن يشكَّ أحدٌ في أمرنا.

وأتبع مستدركًا: يكفيك يا كالي التخلص من حامية الصدر والذراعين، ولا تنس أن تلبس حامية ساق لوران بدلًا من خاصتك؛ فلا يوجد فارس جوال يرتدي درعًا كاملة بهذا الشكل.

فأومأ الجميع إيجابًا في فهم، وعندما وصلوا إلى البوابة كان جون وراين غارِقين بين ثمار البرتقال، وقد وجَدَا صعوبةً بالغة في التنفس، أمَّا كالي فقد عبر بسلاسة مُنتظرًا إيَّاهم خلف البوابة الكبيرة التي كانت تظلُّ مفتوحة على مصرعيها في هذا الوقت من السنة.

اقترب الحارس من العربة، ثمَّ ألقى نظرةً داخلها؛ فشعر راين بثِقلها أسفل الثمار قبل أن يقول بصوتٍ أجش: عرف عن نفسك.

اصطنع لوران الخوف لكنه قال بترددٍ حقيقي: ويليام فاندون يا سيدي.

ثمَّ أشار إلى روز وقال: وهذه زوجتي، وقد أتينا لبيع محصولنا هنا.

أدخل الحارس رأسه داخل العربة، وأخذ يحرك البرتقال؛ فشعر راين الذي كان أقرب له بتساقط حبات البرتقال من فوقه، وبدأت خيوط ضوء القمر تنسلُّ عبر الفتحات التي زاد اتساعها، ثم بدأ قلبه بالتراقص بين ضلوعه قبل أن يترك الحارس العربة مُشيرًا للوران بالدخول؛

فأمسك باللجام سريعًا، وصاح في الحصانين قبل أن يتقدم بهما عبر البوابة العملاقة.

كان جون قد أخبر كالي مسبقًا بأنه ينتظرهم في زقاق معين داخل الضواحي كيلا يثيروا أي انتباه، وبالفعل مرت دقائق عدة وكان الحُراس قد اختفوا تقريبًا من جنباتِ طريق المجد؛ فخرج جون وراين من أسفل ثمار البرتقال قبل أن يُشير جون للوران فانعطف بالعَربة يمينًا في أحد الأزقة، ترجَّل الجميع من العربة وقد لاح كالي واقفًا، مُسنِدًا ظهره لأحد الأعمدة القديمة ومنتظرًا إيَّاهم، وما إن اجتَمعوا قال راين مفكرًا: ماذا سنفعل بالعربة؟!

لن نستطيع التحرك بها داخل الضواحي.

قال جون بكياسة: سنتركها هنا.

اقترب لوران من العربة، وأمسك بأحد الثمار قائلًا: من الخسارة التخلص من كل هذا البرتقال.

ربعت روز يديها وبتبرم قالت: ومن الفحش كذلك.

فالتفت راين نحو جون وقد رمقه بنظرة فهم كنهها؛ فقال جون مبررًا ما يريد فعله: إنَّ الناس هنا يأكُلون الثمار وإن كانت عطنة، ويأخذون من الأرض كل شيء حتى ولو كانت قطعة حديد صدئة قد سقطت من إحدى العربات.

وأشار للعربة قائلًا: إنَّ ما أفعله هنا خدمةٌ إنسانية لهم، عربة ممتلئة عن آخرها بالثمار الناضجة؛ فلو كنتم تعتقدون أنها ستمكث هنا أكثر من ليلة فأنتم لا تعلمون شيئًا عن الضواحي.

تقدمهم راين وقد أولاهم ظهره قائلًا: لن نضيع وقتًا أكثر من ذلك.

وبدأوا يتحركون عبر أزقَّة الضواحي الضيقة، كانت نفس راين تضيق كلما توغلوا أكثر في تلك المنطقة وقد غطت رائحة الفقر المكان حتى طغت على رائحة العطن التي أخذت تلكم أنوفهم بعنف؛ فغطوها قدر استطاعتهم عدا جون وكالي اللذَين كانا قد اعتادا الرائحة من قبلهم وتبعهم راين في ذلك.

كان راين قد قرأ عمَّا يدعى بفخ العاصمة فيما مضى؛ ففي كتابٍ عتيق وجده في مكتبة أبيه منذ زمن وجدَ ذلك العنوان فشدَّ انتباهه قبل أن يبدأ نهب سطوره في نهم، تذكَّر عباراته التي تقول: "إنَّ أضواء العاصمة البرَّاقة أخذت تسحر أعين البسطاء من الناس، وقد أقنعهم كلام مليكهم عن بداية عهد جديد من البناء والتعمير بوجود فرص للحياة بشكل أفضل في العاصمة، في البداية كان الأمر ليبدو صحيحًا إذا ما قورنت أجورهم في تلك المدينة بسواها لكن الفخ كان في ضريبة الغرباء كما أسموها وقتها، وهي مبلغٌ معين يؤخذ كل شهر من كل من دخل العاصمة قاصدًا العمل والاستقرار فيها."

أخذ راين يرمق الجوعى و العرايا من الناس بأسف وقد افترشوا الأرض والتحفوا السماء؛ فمرت عبارات الكتاب على عقله: "أخذت الديون

تتراكم عليهم، وعندما عجزوا عن الدفع مُنِعوا من ترك المدينة حتى يقضوا ما عليهم من ديون والتي كانت تتزايد كلما مكثوا في العاصمة أكثر، كان أمامهم خيارين لا ثالث لهما: أمَّا الأول فهو الخدمة في أرض الحديد، و لو علمت أجور العمال هناك و خاصةً الذين تحولهم العاصمة لتسديد الديون لبكيت دهرًا و جففت دموعك دهرًا آخر؛ فلو أخذ المرء هناك نحاسية كل يومين لكان من المحظوظين اللذين يُشكُّ في أمرهم و تدور حولهم شائعات الوساطة لدى رئيس العمال، والثاني هو التعفن داخل جدران المدينة حتى يموت فيورث دينه لأبنائه أو زوجته أو حتى أقرب أصدقائه فلا يخير إلا بما خُيِّر به سلفه.

ففاض قلبه شفقة، وودَّ لو يساعدهم بأي شيء لكنه علم أن ذلك سيثير انتباه الكثيرين ولن يجلب لهم سوى السوء والأذى، وخرجت آخر عبارات الكتاب من ثنايا ذكرياته التي أفاقت وقد كانت تقول: إن الأصل في ذلك حسب اعتقادي أن يجمع آل الأفالون باستمرار مَن هُم مستعدون لفعل أي شيء مقابل المال؛ فيستخدمونهم في حروبهم أو يُستخدموا كطعم في المعارك، أو يعملوا كذواقة لمن يشعر أن أحدهم يريد تسميمه، كلُّ ذلك مقابل إعفاء كلِّي أو جزئي من ديونهم.

فغمره الغضب، وجرَى فيه مجرى الدم في العروق، وحاول كظم غيظه مكورًا قبضة يده وبرزت عروق جبينه، وبعد أقل من ساعة وصَلوا عبر الأزقة إلى بناءٍ متهالك مكون من طابقين.

ترجل جون من حصانه قائلًا: سنمكث هنا الليلة.

قبل أن يعطي راين حصانه للوران، وقد أعلمه جون مسبقًا بأخذهم خلف البناية وهناك سيتناوبون على حراستها.

تقدَّمهم راين نحو الباب الذي مُلأ بالتشققات والفتحات؛ فكشفت عن جزء لا بأس به مما خلفه، ثمَّ دفعه فصرَّت أخشابه ألمًا قبل أن يدلفوا تباعًا إلى البناية، كانت حانةً صغيرة بدا الإنهاك واضحًا عليها وضوح الشمس في كبد السماء؛ فقد كانت ذا ثلاث طاولات فقط، وأمام كل واحدة منها ثلاثة كراسٍ خشبية، كان أحد الكراسي التسعة ملقىً على الأرض وقد كُسِرت أحد قوائمه.

أخذت رائحة العطن وجثث الفئران المتحللة تنهشُ أنوفهم، ووصلت حدَّةُ تلك الرائحة إلى أعينهم فبدأت تدمعُ لشدة سوئها.

تقدَّم جون نحو رجلٍ عجوز قبع خلف الطاولة العريضة ـالتي كانت خلفها أرفف محطمةً، وعلى الأجزاء السليمة منها وجدت زجاجات فارغة أو نصف ممتلئة وقد غطى الغبار أغلبهاـ ولمَّا وصل إلى الرجل تقزَّز من فتحه لفمه وسط بحر النتانة تلك، لكنه تحامل على نفسه وقال بصوتٍ كتمه كمُّ قميصه الذي غطى أسفل وجهه كله: أريد غرفك كلها.

فتح الرجل عينيه بتثاقل، ورفع رأسه ببطء نحو جون، وأخذ يتفحص وجهه، ثمَّ ابتسم قائلًا: مرحبًا بعودتك يا سيدي.

ونهض محركًا جسده الشيخ نحو أحد الأرفُف، جاذِبًا منها زجاجةً حوَت ما كان جون يعتقدُ أنه نبيذ من نوع ما، ثمَّ أخرج خمسة كؤوسٍ خشبية وصبَّ فيها الشراب فملأ ربع كل كأس منهم.

أشار الرَّجُل نحو الشراب ببشاشة قائلًا: تفضَّلوا يا سادة، تفضلوا.

تعجَّب راين مما كان يحدث لكن جون بادرهم قائلًا: كنت أمكث هنا عندما أتيت للعاصمة أول مرة، وأعرف السيد يوري فاندون حق المعرفة.

وأتبع: إن كان هناك من يستحق الثقة في هذا المكان فهو الأجدر بذلك.

مال راين عليه، وهمس في أذنه قائلًا: أيعلمُ من نكونُ حقًا؟!

لكنَّ السيد يوري قال لجون متسائلًا: أهُناكَ خطبٌ ما يا سيد كايل؟

ففطن على الفور لعدم صحة ظنه، ثمَّ ابتعد قليلًا عن جون وأخذَ يُجاهِد الرائحة النتنة بحنق.

ردَّ جون قائلًا: لا يا سيدي، فقط سنبيتُ هنا ليلةً واحدة وسنغادرُ في صباح الغد.

وبتأسف قال يوري: كنت أود حقًا أن تمكُث أكثر من ذلك.

ثمَّ قلب نظره بينهم خلفه قائلًا بفضول: ألن تعرِّفني بأصدقائك؟

ابتسمَ جود ابتسامةً خفيفة، وفرك مؤخرة رأسه قائلًا: إنهم كتومون بعض الشيء.

بتبرم قال: أولاد المدن!

ثمَّ أشار نحو الشراب قائلًا: تناولوا شرابكم يا سادة.

أمسك كلٌّ منهم بكأسه، وكانت كأس كالي فارغةً تمامًا ولم يبق فيها سوى أطلال الشراب الذي كان فيها؛ فقلَّب الكأس في يده قبل أن يلمح

شقًّا فيها قد تسرَّب السائل منه، أمَّا روز فقد اجتاحت وجهها نظرة متجهمة عندما أبصرت قطعًا من الفاكهة التي نال منها العفن وطافت على سطح الشراب بلونها الأخضر القاتم الذي مُزِج بالسواد.

تجرَّع جون كأسه دفعة واحدة بينما رمقه راين بتعجب بعد أن أبصر كأس روز؛ فتناقلت النظرات بينهم قبل أن يُبرَم اتفاقٌ بينهم دون كلمات على التَّخلص من ذلك الشراب، أخذ لوران يقلب كأسه ويشتمُّها فلا يدري أيهما أسوأ رائحة المكان أم الشراب، وأثناء انشغال الشيخ في الحديث مع جون ألقى كلٌ منهم ما في كأسه فتسلل عبر شقوق أخشاب الأرضية، وعندما انتهى جون من الحديث مع الرجل عاد إليهم، ثمَّ قال لكالي: هلا أخذت أول مناوبة على الأحصنة؟

هنا صاح لوران: الأحصنة!!

فانتبه جون لوجود لوران بينهم الذي يفترض أنه يحرس الأحصنة خلف الحانة؛ فركضوا سريعًا مُلتفين حول البناء الهش قبل أن يتجمدوا في أماكنهم عندما وقعت أعينهم على بقعةٍ طينية فارغة؛ فالتفت راين لكالي وقد تطاير الشرار من عينيه، وركع لوران على الأرض قائلًا بصوت مرتعش اجتاحه الأسف: اعذرني يا سيدي، أرجوك.

ورفع رأسه، ثمَّ تابع: لم أكن أقصد فعل ذلك، سامحني.

هنا أمسك جون بكتف راين قائلًا: يمكننا شراء أحصنة جديدة من قطاع الحدادين، لا تقلق.

فالتف له راين وقد هدأت ثورته قليلًا قبل أن يُتابع جون: سنحتاج أيضًا إلى شراء دروع جديدة من هناك بدل التي تخلصنا منها خارج المدينة.

نظر راين لكالي وقال: ستذهب أنت غدًا مع أول ضوء للنهار لتحصل لنا على الدروع والأحصنة.

وضع كالي يده أمام صدره في رسمية، ثمَّ انحنى قائلًا: عُلِم يا سيدي.

وبتأفف قال راين: ألم تجد مكانًا أفضل من هذا؟

رد جون موضحًا: إنَّها الحانة الوحيدة التي لا تبعد عن البوابة وطريق المجد في الوقت ذاته.

ثم عادوا لداخل الحانة قبل أن يسألهم يوري إذا حدث مكروه ما فطمأنه جون، ثمَّ ارتقوا درجات السلم الخشبية التي تهشمت بعضها بصعوبة ليصلوا إلى ممرٍ ضيق لم يحتمل عرضه سوى شخص واحد، وتراصت أربعة أبواب، بعضُها كان مفتوحًا على مصراعيه والآخر كان مغلقًا، ولم تمر دقائق حتى كان راين وجون وروز في غرفهم، أمَّا لوران وكالي فاضطرَّا للمكوث في الغرفة ذاتها.

دخل راين الغرفة فلم يجد فيها سوى سريرٍ متهالك دون أغطية أو فراش وقد استقبل على يساره نافذة صغيرة، اقترب من النافذة بسرعة وملأ صدره بالهواء والذي لم يكن أفضل بكثير من رائحة الهواء في الداخل، وأسند ساعده على النافذة وركن كتفه الأيمن إلى جانبها الخشبي، وأخذ يتأمَّل فصَّ القمر الذي اختفى خلف ستار الليل في خجل وقد ظهر جزؤه الآخر لامعًا كاللؤلؤ.

قطع ذلك المشهد عبور طائر في المساء متجهًا نحوه؛ فتراجع قليلًا قبل أن يحطَّ الطائر على عتبة النافذة، نظر إليه راين بنظرة متفحصةٍ فأدرك حمله لحافظة رسائل جلدية، وبسرعة فتحها وداعب الطائر قائلًا: اعذرني يا عزيزي فلا شيء لدي لأطعمك إيَّاه، وحتى لو كان لدي فإني أخشى عليك من طعام هذا المكان.

ثم رفعه وأطلقه إلى السماء، نظر إلى الرسالة التي حملها الطائر فوجدها قد أغلقت بختمين من الشمع؛ فانفرجت أسارير وجهه وجلس على أخشاب السرير الخشنة متناسيًا كل ما قابله منذ دخوله الحانة، وفضَّ الختمين فاتحًا الرسالة، ثمَّ بدأ يقرأ: عزيزي، راين لقد اشتقت إليك، لا أستطيع وصف سعادتي عندما تلقيت رسالتك التي تخبرني أنك ستأتي إلى العاصمة حتى أنني استخدمت ذلك الورق كي تصلك الرسالة بأسرع ما يمكن، سأنتظرك في مكاننا المعتاد كل يوم بعد منتصف الليل.

مُخلصتك فيورا.

أرجأ ظهره إلى الحائط خلف السرير ورفع رأسه إلى سقف الغرفة المتشقق وقد شعر بتدفق الدماء في جسده بسرعة، ودقَّ قلبه كما لم يفعل خلال عدة أشهر، إنَّها حب عمره، حبه الأول والأخير كما قال لنفسه، هام في ذكرياته لا إراديًا وراح يتذكر أول مرة قابلها عندما حضر اجتماع الكبار مع والده عندما كان صغيرًا، كان يمشي برفقة نيكولاس في بهو القصر وعيون الحاشية ترمقه باحترام وتقدير أعجب به راين، وإن

كانت كل تلك النظرات مزيفة، حتى توقف ليلقي والده التحية على أوبيرون ملك أتروبوس الحالي، كانت أقصر من راين وقد تشبثت بمعطف أبيها مختبئة خلفة؛ فأخذ يرمقها بفضول، ولمَّا شعرت بثِقل نظراته غزاها الإحراج واختفت خلف أبيها تمامًا.

التفت أوبيرون لها برقَّة، ثم قال لها بعطف: قدِّمي نفسك للضيوف.

تقدَّمت بضع خطوات طفيفة، ثمَّ أمسكت طرفي فستانها الذي اصطبغ بألوان سماء الظهيرة، وانحنت إلى الأمام قليلًا مقدمة قدمًا خلف الأخرى بشعرها الذهبي الذي بدا كسنابل القمح، ثمَّ قالت: ف..فيورا أفالون شر.. شرفت بمعرفتكم.

ثمَّ ركضت سريعًا خلف أبيها مرة أخرى، وقد احمرَّ وجهها خجلًا.

كان راين في العاشرة من عمره، ولم يكن ليدرك أنَّ هذا الموقف قد غرس بذور شجرة حبهما، تعدَّدت اللقاءات بينهما، ولم تقتصر فقط على المرات التي أتى فيها إلى العاصمة لحضور الاجتماع مع أبيه بل كان يذهب مع كل فرصة تسنح لذلك حتى شعرا بخيط القدر الأحمر قد ربط بينهما، وتأكَّدا أنهما خُلِقا ليكونا سويًا.

كانا قد اتفقا على تبادل الرسائل، وصاغا خصيصًا لها ختمًا ذا رمزٍ خاص وزادا بأن دقَّا رسائلهُما بختمين من الشمع ليميِّزا على الفور رسائل بعضهما، مُؤكدين على مُستقبِلي الرَّسائل أن يحضروا تلك الرسائل لهم على الفور؛ فوقوع ابنة الملك أوبيرون في حب أمير إقليم

الجنوب ـالذي يمثل عائلة هي العدو الأزلي لهمـ خبرٌ يجب أن يكتم وإلا لانقلبت المملكة كلها رأسًا على عقب بين عشية وضحاها.

تجاهل راين تلك الخواطر الحزينة، واكتفى بكلماتها له وليحترق العالم كله بعد ذلك، ورغمًا عنه وجد نفسه يتواثب في الغرفة كالملسوع مهللًا بصوت منخفض، ولم يلحظ جون الذي وقف على مشارف الغرفة متكئًا بكتفه على جانب الباب، ولمَّا أدرك راين مكان جون تجمَّد للحظة وابتسَم ببلاهة؛ فقال له جون: حالتك تستحق التحليل يا صديقي.

بتوتر سأل راين: ما... ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- لا شيء، سمعتُ جلبةً في غرفتك ونحن في مبنى لو رفسه حصانٌ لسقط؛ فقررت أن آتي لأرى ما سبب تلك الضجة.

لمح جون الورقة في يده؛ فأخذ يرمقه بنظرة متفحصة حتى قال راين: إنها رسالة من فيورا.

كان جون الوحيد الذي يعلم بأمر حب راين وفيورا المُتبادل لكنه هنا لم يلق بالًا لمكانة كليهما، وضاق ذرعًا من إهمال راين لأهمية اختفائهم حتى وصولهم للقصر، جلس جون أرضًا بعصبية قد ملأت المكان فشعر راين بثقلها.

قال جون بحنق: وكيف علمت بمكانك؟!

جلس راين إلى السرير المتهالك، وقال مُعترفًا بخطئه: كنت قد راسلتها عندما أخبرني أبي بأنني مَن سأحضرُ إلى الاجتماع بدلًا منه.

ثمَّ طالع الورقة وقال: لا أعلم كيف عرفت بمكاني لكن...

مدَّ الورقة لجون قائلًا: لقد ذكرت شيئًا عن الورق الذي استخدمته في كتابة الرسالة.

تناول جون الورقة، وأخذ يقلبها بيده، ثمَّ اتسعت عيناه عندما رأى اسم راين قد دُون أسفل الورقة بدم متجلط.

نظر جون لراين قائلاً بهدوء: إن هذا نوعٌ خاص من الورق، يدون اسم مستلم الرسالة أسفله بدم الراسل.

ثمَّ أشار لاسم راين المدون أسفل الورقة وتابع: تُربط بقدم أي طائر قادر على السفر وتصل لصاحبها إذا كان الوصول إليه ممكنًا.

فقال راين متعجبًا: إذًا، لماذا لا نستخدمه في جميع مراسلاتنا؟!

لو علمت بوجوده لوفَّر عليَّ الكثير من الوقت.

أخذ جون يفرك مؤخرة رأسه بنفاد صبر فقال: صناعة ورقة واحدة كهذه عملية طويلة ومعقدة؛ فحتى أنا لا أملك منها سوى ورقةٍ واحدة.

وبعدها اعتذر راين عن الضجة التي سببها، وعندما همَّ جون بالعودة إلى غرفته قال: ستضطر للاختيار بين قلبك وما يمليه عليك عقلك عند نقطة ما، لا محالة.

ثمَّ خرج تاركًا راين غارقا في بحرٍ من الهموم.

كان جون على حق؛ فكيف تنجح تلك العلاقة وهو ابن عائلة فالكون ووريث إقليم الجنوب، وهي أميرة آل أفالون وابنة الملك الوحيدة، إن

الاسمين لا يجتمعان في جملةٍ واحدة لشدة العداء بينهما، فكيف حال قلب راين وهو يُمنِّي نفسه بالزواج منها؟!

ارتمى على السرير فاهتزَّ به بشدة، وشعر أنه سيتفكك إلى مئة قطعة، وتجاهل التعب والإعياء وخشونة أخشاب السرير وغاب في سبات عميق.

جون

ترك جون غرفة راين عائدًا إلى غرفته التي لم تختلف كثيرًا عن غرفة راين؛ فالسرير بلا أغطية، وهناك نافذةٌ صغيرة ولا شيء آخر.

جلس على سريره وأرجأ ظهره إلى الحائط خلفه وراح يستعيد ذكرياته في هذا المكان، لقد مكث هنا أكثر من أسبوعين ولا يدري إن كانت تلك بداية اللعنة أم نهاية لها وشفاء لفضوله، مال بجذعه إلى صفحة السرير الخشنة كالصوف غير المجدول وتركَ النوم يداعب عينه حتى نال منهما، شعر بثِقلٍ شديد على جسده وراح الظلام يحاوطه من كل جانب، بدأ بتحريكِ أطرافه بعشوائية فشَعر كأنما يسبح في الماء لكنه بالتأكيد كان يتنفَّس، وأخيرًا شعر بجسدِه يهبط رويدًا حتى لامست قدماه أرضيةً صخرية حادة وهنا انقشع الظلام.

وجد نفسه في ممر صخري ضيق قد برزت منه أحجار التالوم المشعة ذات اللون الأزرق القاتم، وبثت سماء الغروب عبيرها الأحمر من فوقه، أخذ يتحرك عبر الممر فوجده شديد التعرج، وأخيرًا عبَر ثنايا الممرَّ لمح نهاية الطريق؛ فأسرع نحوها في تلهف، ولما بلغ من الطريق نهايته رأى منظرًا مهيبًا أطاح بكل فضوله واستبدله بالخوف ولا شيء غيره، طاولة صخرية دائرية الشكل قد جلس إليها ممثل لكل عرق، كلٌّ من الأقزام والجان والعمالقة، كلهم ما عدا البشر، وأمام كل منهم كانت رايةٌ حملت شعار كل عرق منهم، وبمنتصف الطاولة أبصر رايةً حملت

ذلك الرمز اللعين، الرمز الذي طالما كان يطارده، غير أنه لا أ حد كان يجلس عندها.

تحدَّث ممثل الجان قائلًا: وصلتنا رسالة من قلب مملكة البشر تؤكد على أنهم سيلجؤون للعهد.

تعالت الهمهمات بينهم، وصاح ممثل الأقزام: سينتصر العظيم لنا بالتأكيد، نحن لا نهاب أحدًا ونُحبُّ الموت كما نحب الحياة.

فقال ممثل الجان باستنكار: هذا ما قد يقوله أحمق مثلك.

امتعض القزم، واعتلى سطح الطاولة قائلًا: آخر ما أود فعله هو أن أحارب إلى جانب جبناء مثلكم.

- ماذا تقول؟!

ثم بدأوا التراشق بالإهانات واحتدَّ الجو تدريجيًا قبل أن تضرب صاعقة رعدية الراية التي حملت الرمز المجهول، صمت الجميع وبدأوا يرمقون الراية برعب حقيقي لا يتناسب مع هيئاتهم المهيبة، وبعد وهلة انقشع الغبار الذي سببته الصاعقة لتكشف عن اختفاء الراية لكنَّ الرمز قد نقش على الجدار الصخري وراءه بلون أحمر كعصارة الأرض، واشتعل الرمز مصدرًا لهيبًا وهاجًا وقد صدر صوتٌ شيطاني تسلَّل إلى عقول الجميع قائلًا: إذا ظللتم هكذا فلن نتقدَّم في هذه الحرب ولو خطوة واحدة.

كان جون الذي ارتمى أرضًا من شدة الرعب يستمعُ إلى الصوت بنفس مُرتابة؛ فهو لا يعلمُ اللغة التي يتحدث بها الصوت لكنه قد فهمها بطريقة ما.

تابع الصوت قائلًا: إن كان البشر سيلجؤون حقًا للعهد فليكن ذلك، أولئك الحمقى يظنون أن لهم حقًا في أرضنا.

سكت برهة، وتابع بصوت يقطر حقدًا: لقد كُنَّا نعمر هذه الأرض قبل أن يزحف أجدادهم خارج الطين، سيقودهم غرورهم إلى الهلاك.

وهنا أفاق جون رافعًا جذعه عن السرير كالملسوع، وأخذ يلهث بشدة كأنَّما كان يعدو وهو نائم.

شعر بحرارة الشمس، وقد داعبت وجنته فرمَق النافذة قائلًا بتعجُّب: أحلَّ الصباح بالفعل؟

ثمَّ خرج من غرفته، وهبط سلالم الحانة فإذا بالعجوز يوري في مكانه المعتاد.

حيَّاه جون ومكثا يتجاذَبان أطراف الحوار، وسريعًا انضمَّ لهم راين ولوران أمَّا روز فقد فضَّلت انتظار عودة كالي بالخيول والدروع، ثمَّ مرت ساعات النهار تباعًا فشعر الجميع بتأخُّر كالي الذي دلف إلى الحانة قبل الغروب بعدة ساعات، وتوجه نحوهم وهمس في أذن راين: لن نستطيع المغادرة قبل الغد.

لكن راين لم يبد مُمتعضًا على الإطلاق، ثمَّ أشار له بإكمال حديثهم في الطابق العلوي حتى لا يسمعهم ذلك الشيخ الفضولي، قال كالي عند

وصولهم إلى الممر الضيق: لا توجد أيَّة دروع جاهزة لدى الحدادين؛ فحرس المدينة قد استهلك أغلب ما لديهم للتجهيزات الأمنية الخاصة بالاجتماع، لكني تمكنت من اقناع أحدهم بتجهيزها وستكون جاهزة في الغد.

سأله راين: والخيول؟

بأسفٍ قال كالي: حتى الخيول أصبحت قليلة جدًا، بذلتُ قصارى جهدي حتى حجزت مجموعةً من الخيول التي ستصل غدًا.

همَّ كالي بالاعتذار مجددًا لكن راين قال: لا داعي لذلك؛ فالأمر ليس بيديك.

ثمَّ هبط السلم، وأبلغ جون بما قاله له كالي، والغريب أنَّ جون لم يبد أي امتعاض هو الآخر، وقف جون وبدأ يعدل هندامه قائلًا: بما أننا لن نغادر قبل الغد سأذهب؛ فلدي ما كنت أريد فعله سريعًا.

لم يُعلق أحد عَدا نظرات كالي ولوران التي كانت تتعلق به، وقبل أن يغادر غمغم كالي: ألا تريد أن أرافقك يا سيدي؟!

دون أن يتلفت له جون قال: لا عليك، زيارةٌ لصديق قديم لا أكثر.

فعاد كالي إلى مكانه قبل أن يخرج جون من الحانة، ثمَّ صعد راين إلى غرفته ولما اطمأنَّ أنه لا أحد في الأسفل خرج من غرفته متسللًا، ثمَّ غادر الحانة متلفتًا حوله وسماء الليل تظله، أمَّا جون فقد ركب إحدى العربات والتي انطلقت به سريعًا عبر الطرقات نحو أطراف قطاع

الحدادين إلى مكان يعرفه جيدًا، نزل من العربة مناولًا قائِدها عدة فضيات، ثمَّ تقدَّم عبر الحشائش الزمردية الناعمة نحو البحيرة الصافية.

كانت تلك بحيرة الذكريات التي حملت له ذكرى عزيزة على قلبه؛ فهنا تعرَّف على جانبٍ جديد من ريتا وقضى معه أجمل أوقات عمره قبل الرحلة المشؤومة، جلس إلى إحدى الكراسي، ثمَّ أخرج من حقيبة ظهره علبة مغلفة بالحرير المصبوغ باللون الأسود، وضَع العلبة أمام ناظريه وفتحها بحذر وهدوء فكشفت عن جرة فخارية نُقش على صدرها ذلك النقش الملعون، وبينما كان جون هائِم النَّظرات في تلك الجرَّة لم يلحظ الأعين التي كانت تراقبه من أطراف البحيرة، وأخذ يتأمَّل النقش جيدًا فراحت خلايا عقله تنشط، وقرَّرت الذكريات التي كانت في سُباتٍ طويل أن تستيقظ من جديد.

ماضٍ أَلِيم (٣)

لفظ القمر آخر أنفاسه تاركًا السَّماء لشمس الفجر عندما استيقظ جون من نومه، وإن كان لم ينعم بنومٍ هادئ؛ فقد كان يُحلل حالة والدة ريتا التي كانت تدعى تانيا، ويستذكر نصائح معلمه كين وأعراض المسِّ واللعنات، ويفكر كيف سيرفعها إن أمكن ذلك، ونهض ململمًا أغراضه سريعًا، ثمَّ خرج من الحانة العتيقة وأطلق قدمه للريح خوفًا من التأخر، وعندما بلغ طريق المجد أخذ عربةً إلى بوابة المدينة العملاقة، وهناك كانت ريتا تنتظره برفقة حصانيها.

هبط من العربة سريعًا، ثمَّ نظر إليها بتعجب وقد بدَّلت جلدها بين ليلة وضحاها؛ فوكيلة المكتبة ذات الشعر المرتب والعينين الواسعتين والتي لم تكن الابتسامة تفارق وجهها قد أولت القيادة لفتاةٍ أخرى تمامًا، حملت عيناها علامات السَّهر والنحيب وقد لمسها لون أحمر طفيف، وارتدت عباءة رمادية ذات قلنسوة غطَّت رأسها بالكامل، وما

إن وصل لها جون اعتذر عن تأخُّره فتفهمت بصدرٍ رحب، وناولته لجام حصانه فاعتلاه سريعًا ثم طارا خارج البوابة.

كانت الرِّحلة كئيبةً صامتة؛ فلم يدر جون أيواسيها أم يُحدثها عن احتمال نجاة تانيا، وإن كان لا يُفضل فعل لذلك لئلا يُعطيها أملًا زائفًا للتمسُّكِ به، ثم يُسحَق بسهولة عندما يفحصها بشكل مباشر ففضَّلَ الصمت، كان الطريق جنوبًا يأخُذُ طُرقًا مُتعرجة شديدة الانحدار فأرض العاصمة على مرتفعٍ أشبه بالهضبة الصغيرة، والطُّرق التي تؤدي إلى الجنوب الغربي كلها تؤدي إلى مناطق ريفية وقرى فقيرة؛ فلم يهتم أحد بتمهيدها بعكس الطرق الواصلة بين العاصمة وفيلينيا أو أزتالان عاصمة الغرب.

عانَت خيولهم في تلك المنحدرات بشدَّة وأخذ الطريق منهم ثلاثة أيام وليس يومين بعكس ما توقعته ريتا، وكانت تقضي لياليها هائمةً في نجوم السَّماء أو باكيةً بصوتٍ مكتوم بعيد عن جون، وعندما وصلا إلى القرية أدرك جون أنها اسمٌ على مسمى؛ فكلمة آديري تعني أرض الموت، والحقيقة أنَّ من بنى هذه القرية لم يقصر أبدًا في جعلها تبدو كذلك.

كان الهواء مكتومًا شديد الرطوبة، وألوان القرية اقتصرت على دواكنها في كل شيء وإن غزا الرَّمادي القاتم والبني أغلبها، أمسكَ جون بسترته وأخذ يُحركها ليدفع الهواء إليها قائلًا: لو كانت أمك سليمة لمرضت في هذا المكان.

رفع رأسه عاليًا فوجَدَ السَّماء مُلبدةً بالسحب الرمادية التي توشك أن تثور؛ فأشار إليها مُغمغمًا: حتى السَّماء تأبى أن ترسل بعض نورها إلى هذا المكان.

ثمَّ أتبع بنبرةٍ عملية: يجدر بنا التحرك قبل أن تغرقنا الأمطار.

فأومأت ريتا له إيجابًا وقادت الطَّريق.

كان جون يرمق يدي ريتا المرتعشتين وهي تمسِكُ باللجام بنفسٍ خائرة؛ فمع تأخرهم ليوم واحد زاد توترها، ولاحظ أنها لم تنم تقريبًا منذ ذلك الحين، كان عددُ المارة في الطرق قليلٌ يُعد على أصابع اليد الواحدة، ورغم كل هذا تعجب جون من عيش أحدهم في مكان كهذا.

اقترب جون بحصانه ناحية ريتا فوجد نظرةً متجهمة قد اعتلت وجهها فالتفت لها، ثمَّ قال مطمئنًا إيَّاها: لا عليكِ، كل شيء سيكون على يا يرام.

فزادت قبضتها ضيقًا على لجام حصانها بيد مرتعشة، ثمَّ قالت: آمل ذلك.

ثمَّ رفعت رأسها نحو منزلٍ صغير ذا سور خشبي رديء لاح في الأفق قائلة: لقد وصلنا.

ثمَّ لكزت حصانها فطَار عبر الطريق الطيني نحو البيت قبل أن يتبعها جون.

ترجَّل كلٌّ منها وبدءا في ربط الأحصنة في السور الخشبي، ولاحظ جون عند وقوفه على الأرض أنَّ جزءًا من قدمه قد غاصت في الوحل قبل أن

يفتح باب المنزل ليظهر رجلٌ خمسيني، ذا ملامح حادة، وفمٍ قد غطَّاه شاربٌ رمادي كث، تقدَّم بجسده النَّحيل نحوهم بخطوات ثقيلة قبل أن تتسع عينه عندما رأى ريتا، والتي ما إن أبصرته وثبَت نحوه وغاصا في عناق طويل.

قالت ريتا بأعين دامعة: أبي، اشتقت إليكم!

ضمَّها إليه بقوة قائلًا: وأنا كذلك يا صغيرتي.

ثمَّ أشارت إلى جون قائلةً: أريدُ أن أعرفك على صديقي.

تقدم جون نحو الرجل، ثمَّ انحنى قليلًا برسمية قائلًا: جون فالكون، شرفت بمعرفتك.

اتَّسعت عينا الرَّجُل قائلًا: فالكون؟

ثم تنهد قائلًا: وما الذي يفعله ابن عائلة نبيلة في قرية بالية كهذه؟!

رمقت ريتا جون بنظرة شك وقد علمت توًا اسم عائلته لكن جون فعل ذلك كيلا يكون هناك أي شيء ليخفيه عنها، بدأت علامات الريبة ترتسم ببطء على وجه الرجل لكنَّ ريتا أشارت له قائلة: إيان، والدي.

أدار إيان ظهره عائدًا إلى المنزل وقال: تفضلا.

تعجَّب جون من معاملته الجافَّة، وهمَّ بالتقدم نحو المنزل قبل أن تقول له ريتا: لماذا أخفيت عني أنك ابن فالكون؟

فرد مبررًا موقفه: كنَّا في العاصمة، وتعلمين أنَّ وجودي هناك سيسبب مشاكل جمة، وخصوصًا إن كان وجودي في العاصمة لسبب علمي بحت لا علاقة له بالسياسة؛ فلا داعي لتضخيم الأمر.

أدارت ريتا وجهها بتبرم، ثمَّ اتجهت نحو البيت قبل أن تقول لجون: أستظل خارج البيت طوال اليوم؟!

فاتجه سريعًا نحو المنزل، وما إن دلف لاحظ الفقر المُدقع للمكان؛ فقد كان بيت إيان قليل الأثاث وقد احتوَى على الكثير من المساحات الفارغة، تكوَّن من غرفةٍ واحدة متوسطة الحجم، واحتوى الجدار يسار الباب على مدفأةٍ مُلِأت ببقايا الحطب المشتعل، وحولها تراص كرسيان خشبيَّان بينهما طاولة صغيرة.

أشار لهم إيان بالجلوس، وذهب لتحضير بعض المشروبات الدافئة، وبعد عدَّة دقائق من الصمت عاد حامِلًا ثلاثة كؤوس فناول كلًا منهم كأسًا وجذب كُرسيًا قصيرًا، ثمَّ جلس عليه قائلًا: والآن، أخبرني ما الذي أتى بك إلى هنا.

كان جون ما يزال متعجبًا من فظاظة الرجل وتعامله الحاد معه؛ فهمَّ بالرد عليه قبل أن تسأل ريتا: كيف حال أمي؟!

رمقها إيان بعينٍ تقطر غضبًا، ثمَّ قلب النظر بينها وبين جون ففهمت ما يرمي إليه وقالت: إنَّ جون هنا للمساعدة، إنه يعلم بكل شيء.

فنهض الرجل سريعًا بغضب وقد أُلقي كرسيه إثر وقوفه المفاجئ، وهمَّ بصب جام غضبه على ابنته لكنها صاحت: لقد أخبرني أن هناك أملًا بعلاجها.

سكت قليلًا، ثمَّ قال ثائرًا: ربما أقنعك ابن فالكون هذا بلسانه المعسول بأملٍ زائف للتقرب منك لا أكثر.

هنا قال جون مهدئًا الرَّجُل: صدقني يا سيدي، أنا هُنا للمساعدة لغرض علمي لا أكثر.

وأخرج ورقة التعريف الخاصة بالأكاديمية مناولًا إيَّاها لإيان قائلًا: لقد كُلِّفت ببحثٍ عن اللعنات والمَس، ولمَّا علمت ريتا بذلك اقترحت عليَّ إلقاء نظرةٍ على السيدة تانيا.

فأخذ الورقة وبدأ يقلب عينيه فيها قبل أن يعيدها إليه وقد هدأت ثورته قليلًا، عدَّل كرسيه قائلًا: سأتماشى مع ذلك رغم أني لا أصدق حرفًا مما تقول.

ونظر إليهما ثمَّ تابع: إنها في الأسفل.

نهض جون قائلًا: إذًا؛ لنلق نظرة عليها.

وبتأفف نهض إيان واتجه نحو الباب، ولما لمح ريتا قد قامت معهم صاح فيها بجدية: ابقي هنا.

فانكمشت ريتا على نفسها كطفلةٍ صغيرة وعادت إلى مكانها بتوتر، خرج جون وإيان لخارج المنزل، ثمَّ التفَّا مع السور نحو مدخل القبو، كانت هناك كومة من القش في ظهر المنزل فأزَاحها إيان لتكشِف عن

بابٍ مربع في الأرض وقد ثُبت مقبضٌ معدني أعلاه، أمسك إيان بالمقبض وفتح الباب فبدا خفيفًا بعكس توقعات جون، ظهر عبر الباب سلمٌ خشبي شديد الانحدار قد غطَّت طبقات الظلام آخره، وسريعًا أمسَك إيان بشعلةٍ ثبتت على أول السلم وأشعلها قبل أن يكمل النزول.

أسند جون يده إلى الحائط هابِطًا الدرجات الخشبية بحذر قبل أن يتوقف إيان عند نهاية السلم وقد ظهر باب معدني، أُغلِق بثلاثة أقفال كبيرة، وحول الأقفال الثلاثة لُفَّت سلسلة أغلقت هي الأخرى بإحكام، وبدأ يفُكُّ تلك الأقفال التي بدأت تتهاوى على الأرض تباعًا قبل أن ينتهي إيان تمامًا.

وقف الرجل والتفَت لجون قائلًا: فلتعلم أني رافضٌ لوجودك هنا تمامًا، ولولا أنَّ ابنتي هي من جاءت بك لكنت أغلقت الباب بوجهك.

امتعض جون قليلًا لكنَّه لم يرد ولم يدر ما سر تعامله الجاف معه منذ أن ذكر اسم عائلته، لكنَّه عذر حالة الرجل المسكين الذي على وشك التخلي عن زوجته للكهنة ليتخلصوا هم منها، ثمَّ دفع الباب قبل أن تتجمَّد الدماء في عروق جون فخلف الباب ظهرت امرأة في آخر عقدها الرابع لكن مظهرها كان يوحي بأنها أكبر من ذلك بكثير، وقد برزت عظامها وتشقَّقت شفتاها، وأخذت ترمق سقف القبو الضيق بنظرات جوفاء، كانت أطرافُها مُكبَّلةً بسلاسِل ثُبتت إلى الحائط خلفها وقد ارتدت بعض الأنسال البالية التي بهت لونها ومُلِأت بالشقوق والفتحات.

غمغم جون: لهذا لم تُرد من ريتا الحضور.

ثم التفت إلى إيان بغضب، وأمسكه من سترته دافعًا إياه إلى الحائط بحنق قبل أن يقول: إذا لم يقتلها الكهنة كان إهمالك ليقتلها لا محالة.

تشبث إيان بيد جون بكلتي يديه قائلًا بامتعاض: لا يُغرنك مظهرها الآن؛ فالقابعة أمامك يمكنها التحول إلى مسخ يستطيع الفتك بي وبك في غمضة عين.

تركه جون فسقط على الأرض جاثيًا على ركبتيه وبدأ يسعلُ متحسسًا رقبته، تركه جون في مكانه والتفت نحو تانيا، ثمَّ جلس على ركبته وأزاح شعرها الأشعث المتناثر عن وجهها، ثمَّ كوَّن ضوءًا أبيض في طرف سبابته وفتح عينيها وأخذ يقربه منها فلم تستجب.

أخرج من حقيبته كتابًا وأخذ يُقلِّب صفحاته حتى توقف عند صفحة محددة، ثمَّ وضع يده على رأسها وأخذ يتمتم بتعويذة كان يقرأها من الكتاب، وسرعان ما التفتت تانيا له في حركة واحدة وقد اتسعت عيناها، وأخذت أنيابها في النمو، ثمَّ صرخت بصوتٍ هزَّ أركان القبو حتى ظن جون أنه سينهار عليهم، أمَّا إيان فقد تراجع للخلف مختبئًا خلف الباب، ثمَّ فغرت فمها مُصدِرةً ضوءًا شديد الاحمرار كأنه آتٍ من قعر الجحيم.

هنا كان جون قد نجح في تعويذته وتسلل إلى عقل تانيا، فتح عينيه فرأى واديًا شديد العمق، وفي قاعة وجد مجموعة من المسوخ والأعراق القديمة قد وقفوا جميعًا ناظرين إلى السَّماء بأفواهٍ مفتوحة، كانت

نظراتُهم وتعابيرهم أقرَب للصراخ لكن أحدًا منهم لم يصدر صوته، كانوا كمن يبحث عن صوته عند لحظةٍ محددة فلا يجده، يفعل الخوف أكثر من ذلك على كل حال، نظر جون إلى السَّماء فوجدها خاويةً ممَّا قد يدعو لأي رعب، لكن سرعان ما علت دقات من أحد جدران الوادي وأخذت تهتزُّ وقد تساقطت الأحجار من ذلك الجانب على مجموعة من المسوخ؛ فالتفتوا جميعًا إلى مكان الانهيار بحركةٍ واحدة كالمسحورين، وبعد انتهاءِ ذلك الانهيار ظهرت بوابةٌ عملاقة من صخورِ الجرانيت الأسود، وقد سلسلت بإحكام، ونُحِت على البوابة في منتصفها النقش الذي كان جون قد يأس من إيجاد حل للغزه.

انتفض جون عند رؤيته للباب إلا أن المشهد لم يتوقَّف هنا؛ فقد استمرَّ الباب بالاهتزاز بعنف كأن هناك من يُحاوِل الخروج من خلفه فصاح الواقفون أسفل الوادي بأصوات أثيرية مرعبة، وهنا أفاق جون ووجد نفسه ممسكٌ برأس تانيا والتي ما إن تركها ارتمت أرضًا فاقدةً للوعي.

التفت خلفه فوجد إيان قد طُرِح أرضًا على درجات السُّلم برعب، غَارِقًا في عرقة، وصاح إيان بصوتٍ متقطع لاهث: قتلتها!!

أبعد جون ناظريه عنه بتقزز وأخذ يبحث عن شيء ما في حقيبته فأعاد إيان سؤاله قبل أن ينهض جون ثائرًا نحوه؛ فتراجع إيان زاحِفًا على ظهره فوق درجات السلم قبل أن يقول له جون: ألم تكن تنوي تسليمها للكهنة؟ أحياتها تُهمك من الأساس؟

ثمَّ التفت إلى تانيا وأخرج من حقيبته مكعبًا زجاجيًا، ذا فتحة علوية قابلة للفتح والغلق، وقد صمم ذلك المكعب خصيصًا لحفظ دماء الملعونين والمصابين بالسحر الأسود وغيرهم.

تناول سكينًا حادًا، ذا نصلٍ رفيع وجرح إصبع تانيا، ثمَّ وضع بعض القطرات من دمائها في تِلك الحافظة، ونهضَ بعدما انتهى من كل شيء، واتَّجه نحو السلم فنهض إيان قائلًا: أعلمتَ بِما أصابها؟

لم يلتفت إليه جون لكنه رد عليه باقتضاب: سنعلم جميعًا، لا تقلق.

واعتلى درجات السلم بخطوات حثيثة قبل أن يُعيد إيان إغلاق الباب كما كان، وبعدَ أن عادا إلى داخل المنزل وقفت ريتا وعلاماتُ التَّرقب بادية على وجهها قبل أن يشير لها جون بالجلوس إلى كرسيها، اتَّجه جون نحو المدفأة وأفرغها من الحطب المُحترق، وطلب من إيان إحضار حطبٍ جديد فأحضر ما طلبه منه بتثاقلَ، وعندما كان جون مشغولًا بإشعال المدفأة بدأ حديثه قائلًا: إنَّ ما أصاب والدتك هي لعنة من نوع خاص.

ضمت ريتا يدها إلى صدرها، بعينٍ غارقة في الدموع قبل أن يتابع جون كلامه بعد زفير طويل: يمكنني رفع اللعنة، لكن بشرط واحد.

امتعض إيان وغمغم بتهكم: تفضل يا مولاي.

لكن ريتا لم تفعل شيئًا سوى الإنصات بحذر لكل كلمة سيقولها.

أردف جون قائلًا: أريدكم أن تنفذوا تعليماتي بلا أي أسئلة.

همَّ إيان بالاعتراض بوجهٍ حانق إلا أن ريتا قالت بثبات: لك ذلك.

فطلب جون منهم إناءً معدنيًا وبعض الماء؛ فأحضرت له ريتا كلَّ ما طلبه، وسريعًا أخرج من حقيبته عدَّة أعشاب جافة وألقاها في الإناء مع الماء حتى وصل لدرجة الغَليان، وتأكد أنها نُقعت فيه جيدًا، ثم أخرج الحافظة الزجاجية وأفرغ الدم منها في الإناء مُتمتمًا ببعض الكلمات، بصوتٍ أثيري قبل أن ينفخ على سطح السائل الذي آل لونه إلى لون أزرق صافٍ كسماء بلا غيوم.

أخذ أحد الكؤوس الخاوية من خلفه على الطاولة وملأها بالسائل، ثمَّ عاد إلى مجلسه، ومدَّ جون يده بالكأس إلى ريتا قائلًا بنبرة عملية: أريدكِ أن تشربي هذا السائل وتغمضي عينيك.

فتناولت منه الكأس وقبل أن تقربه إلى فهما قال محذرًا إيَّاها: إياكِ أن تفتحي عينيك قبل أن أقول لكي.

نهض إيان واقترب من جون قائلًا: أقسم لك، لو أصاب ابنتي أي مكروه جراء شعوذتك تلك لأقتلنك!

لم يهتم له جون فقالت ريتا: لا تقلق يا أبي.

ثمَّ أمسكت بيده قائلة برقة: سأكون بخير، أعدك.

فهدأ قليلًا، وعاد إلى كرسيه قبل أن تتجرَّع ريتا كأسها دفعةً واحدة، أغمضت عينيها فشعرت بجسدها يُسحب إلى الخلف بسرعةٍ مهولة حتى سكنت مكانها، ومن خلف جفنيها المطبقين بدأت ترى مشهدًا وسط الظلام، رأت والدتها تمشي متلفتة حولها بحذر في أزقة قطاع الحدادين، وبدأت تانيا تقترب من أحد الممرات شديدة الضيق، وهناك

رأت رجلين قد وقَفا قبالة بعضهِما، أحدهما بدا عليه كبر السن بشكلٍ واضح حتى لو لم ترى وجهيهما بوضوح، راح المشهد يقترب من الرجلين أكثر فأبصرت وجهيهما، كان الأول هو السيد إيان والدها، والثاني هو السيد تورس مستشار الملك ذو السمعة السيئة.

تبدَّل المشهد أمامها لترى منزلها في العاصمة عندما كانت تعيش برفقة أبويها، رأت والدتها تتشاجر مع أبيها كما لم ترها من قبل وقد احتدَّ الجدال بينهما قبل أن يتبدل المشهد مرة أخرى لوالدها وهو يحادث السيد تورس مرة أخرى، لكن هذه المرة ابتسم السيد تورس ابتسامةً حادة كالسكين، ثمَّ أخرج من كمه الواسع جرَّةً فخارية في حجم قبضة اليد، وقد حُفِر على صدرها نقش عجيب كان مألوفًا لدى ريتا لكنها لم تتذكر أين رأته تحديدًا.

كان إيان واقفًا أمامه بانكسار وضعف واضحين إلا أنه تناول منه الجرة عائدًا إلى المنزل في قلب ليلٍ بهيم، ثم اقترب من تانيا التي كانت نائمة بوداعة وفتح الجرة فاندفع إلى الخلف مُصطدِمًا بالحائط، وقد خرج من الجرة سديمٌ أسود كثيف، انتشر في أنحاء الغرفة قبل أن يتجمع أمام تانيا التي وجدت نفسها ترتفعُ عن الفراش رغمًا عنها وقد فغرت فمها؛ فانسلَّ ذلك السديم عبر فمها إلى داخل جسدها وصرخاتها المكتومة تملأ المكان، وقبل أن ينتهي كل شيء رمقت إيان بنظرةٍ من الأسى، مادَّةً يدها نحوه بضعف ثم قالت: أرج.. ووك.. أنقذ..ني.

كان إيان مُلتصقًا بالحائط، راحَ الرُّعب يأكل فؤاده وتمنى لو تبتلعه الأرض في تلك اللحظة، كان هذا سيكون أفضل بكثير من رؤية زوجته تستنجد به وهو أمامها مكتوف اليدين بل بالأحرى هو من سبَّب لها كل ذلك.

انتهت المشاهد أمام ريتا، وشعرت بجسدها يُدفَع إلى الأمام دفعًا بسرعة كالريح حتى استقرَّت تمامًا؛ فراح صوت جون يتسلل عبر أذنها بصدىً كأنه على بعد أميال منها قائلًا: ريتا...ريتا.

فقالت بصوت لاهث: أأفتح عيني الآن؟

- يمكنك ذلك.

ففتحت عينيها ببطء لتُبصِر جون أمامها، حاملًا بيده كأسًا من الماء فشربت منه بضع شربات قبل أن تلمح والدها على كرسيه بجوار جون؛ فانسلَّت دمعة من عينيها، ثمَّ مرت المشاهد التي رأتها تباعًا قبل أن تقول بصوت قد خالطه النحيب: لماذا يا أبي؟

توتر إيان، وبدأ العرق يغزو جسده قبل أن يسألها جون: ماذا رأيتِ؟

فبدأت تحكي المشاهد التي رأتها تباعًا حتى وصلت إلى الجزئية التي فتح والدها فيها الجرة ولم تستطِع إكمال حديثها وانفجرت في البكاء، وقف إيان من كرسيه منتصبًا وركض سريعًا نحو الباب؛ فوثب عليه جون، مُلقيًا إياه أرضًا، ثمَّ أخذ يتلوى مُحاوِلًا الفرار من قبضة جون حتى ضربه جون ضربة أسفل عنقه ففقد وعيه.

تناول جون حبلًا كان بجوار المدفأة وأحكَم وثاق إيان، أمَّا ريتا فقد كانت تراقب في صمت بأعين متسعة خاوية، اقترب منها جون ثم سألها أن تحكي كيف كان شكل الكائن الذي خرج من الجرَّة، وكيف دخل إلى جسد تانيا فقالت ريتا في فتور بصوت خالٍ من أي مشاعر: كان كالغبار الأسود، تجمَّع أمام أمي، ثم ارتفعت عاليًا وتسلَّل إلى جسدها عبر فمها.

أخذ يقلب المعلومات التي أخذها من ريتا والتي جمعها من فحصه لتانيا، ثمَّ تذكر الجُزئية التي قالت عندها ريتا أنَّ الجرة قد حملت رمزًا مُعينًا، وتذكر الباب الذي رآه عندما دخل عقل تانيا وقد نُحِت عليه أول الرموز التي رآها في الأكاديمية وأكبرها؛ فأخرج سريعًا من حقيبته مذكراته التي كان يدون فيها كل نقش جديد يراه في غرفته، ثمَّ ناولها لريتا قائلًا: أيمكنكِ تمييز النقش الذي كان على الجرَّة بين هذه النقوش؟

فتناولت منه المذكرات، وفتحت أولى صفحاتها وأخذت تتأملها برهة قبل أن تعيد الدفتر له قائلة: أعتقد أنه كان يشبه هذا؟

كانت الصفحة هي الصفحة الأولى في مذكراته والتي حملت أول نقش رآه، كان الأمر كما توقع تمامًا، وأثناء ذلك سمع صوت سعالٍ مكتوم؛ فالتفت لإيان ووجده قد أفاق فاقترب منه جون بحذر وقال: والآن ستخبرني بكل شيء.

أخذ يقلب نظره بين جون وريتا بقلق وتوتر، ثمَّ بلل شفتيه ونظر لريتا قائلًا: الأمر ليس كما تظنين يا بُنيتي.

فقامت بغضب، واتَّجهت نحوه كبرُكان ثائر قبل أن يقول: لقد سحرك هذا المشعوذ وهيَّأ لكِ كل ما رأيته.

- كفاك كذبًا، لقد رأيتُ كل شيء بوضوح.

أخذ يرمقهما بتوتر وقلق وقد أدرك أنه لا مفر له سوى البوح بالحقيقة التي يكتمها؛ فقال بصوتٍ ملأه الأسى وخالطه النحيب: على الأقل استمعي لما لدي لأقوله.

فتقدمت بضع خطوات نحوه بوجه محمرٍ قائلة: إذًا فما رأيتُه كان صحيحًا.

فوجه نظره للأرض ولم يقو على رفعه في وجهها.

اقترب جون منه قائلًا بهدوء: هاتِ ما عندك.

رفع رأسه إليه بأسف قائلًا: إن الأمر بدأ.....

ثمَّ انقطعت كلماته فجأة، وأخذت نظرة متجهمة تجتاح وجهه قبل أن يرتمي أرضًا، وبسرعة اقترب منه جون فوجد عروق رقبته بارزة، ولون وجهه قد بدأ يصطبغ بالأرجواني، وقبل أن يتسنى لجون فعل أي شيء بدأ صدر إيان يشع بنور وهاج؛ فشقَّ جون سترة الرجل كاشفًا عن شيء أقرب ما يكون لوشم لثعبانين على صدره، أخذا يتحرَّكان زاحفَين نحو عنقه، وعندما التفَّا حولها تمامًا كان إيان قد سكن تمامًا وأخذت الرغوةُ تفيض من فمه.

حاول جون فعل أي شيء لإنقاذه دون جدوى حتى انطفأ النور من عينيه تمامًا وتأكَّد من مفارقته للحياة، وراحت الأفكار تشتعلُ في رأسه تِباعًا وراح يفكر بخُطورة الأمر الذي ورَّط إيان به نفسه لدرجة تجعلهم يُطبقون عليه سحرًا يمنعه من الكلام، أمَّا ريتا فقد وقفت متجمدةً من هول الموقف؛ فالمسكينة قد فقدت للتو أباها ولا تعلم مصير والدتها، لم تدر أتحزن لموت أبيها أم تشعر بالرضا للثأر من الرجل الذي كان سببًا في المرض الذي ألمَّ بأمها؟!

كانت رأسها تكاد تشتعل، وفؤادها قد غاص في حرب أهلية، سمعت صوتًا من أعماقها يقول: لقد كان سببًا في معاناة أمك، يستحقُّ ما أصابه.

ثم أتبعه صوت آخر: لا تستمعي لها، إنه والدكِ قبل كل شيء.

- ماذا تقولين؟! أي أب سيحرم ابنته من أمها!!

لقد نال جزاءه.

- انتظري ولا تحكمي الآن؛ فلربما كان مضطرًا لفعل ذلك.

كانت الأفكار تتضارب في رأسها؛ فجثمت على الأرض وضمَّت ركبتيها إلى صدرها وأخذت تصرخ بصوت عالٍ، راح جون يرمقها بعين تقطر شفقة، ولاح الأسى على وجهه فغطَّاه، ولم يجد لنفسه شيئًا من الكلمات قد يواسيها به؛ فاتَّجه نحو جثمان إيان وأغلق عينيه، ثمَّ غطاه بأحد الأغطية وعاد ليجد ريتا قد مسحت دموعها وغزت الحمرة أسفل عينيها المنتفختين فهبط على ركبته قائلًا: أعلم أنه ليس بالوقت

المناسب لكن... إن اللعنة تأكل روح والدتك وأخشى أن نفقدها في أيَّة لحظة و.....

فنهضت نصف منتصبة من مكانها ببطء، ثم قالت بصوت خنقه البكاء وقاطعه النحيب: لنذهب.

وجرَّت نفسها ببطء كعصفورٍ مكسور الجناح، وبدأت تمشي برفقةِ جون الذي أخذ يتأمَّلها بأسى؛ فالوردة التي كانت في العاصمة تستقبله بابتسامة عذبة قد ذبلت وتساقَطت أوراقها من شدة الألم الذي ألمَّ بروحها، وعندما وقفا أمام باب القبو قالت ريتا بصوتٍ خافت: لا أدري لماذا فعل هذا بنا.

ردَّ جون بنبرة انتابها الحزن: لن نعلم حتى نعالج والدتك.

فردَّت بخيبة أمل كأنها فقدت الأمل في علاجها: آمل ذلك.

رفع جون باب القبو ثم نزل عبر السلم ومن خلفه ريتا، وأخذ يفك الأقفال عن الباب حتى بقي قفلٌ واحد، وقبل أن يزيله قال بهدوء ضاغطًا على حروفه: ما سترينه ربما يكون طبيعيًا نظرًا لحالتها وقلة اهتمام والدك بها أثناء احتجازها.

ضغطت ريتا بيدها على ساعدها محاولة جمع شتات نفسها التي أصبحت كحطام الزجاج قبل أن يزيل جون القفل دافعًا الباب، وكان ارتطام القفل الحديد بالأرض أقل بكثير من ارتطام عقل ريتا بالواقع أمامها، أبصرت أمها التي كانت تملأ البيت بهجة وسرورًا وقد كُبلت بالأغلال وبرزت عظامها، أخذت تفكر كيف كانت تتقي البرد بتلك

الحلة الرثة التي مُلأت بالثقوب والفتحات، حتى أنها أبصرت جلدها محمرًا أسفل تلك الأنسال لشدة خشونتها.

تقدم جون نحوها بثبات بينما غطت ريتا فمها بباطن يدها، وأخذت الدموع تنسلُّ من عينيها مُصدِرةً صوت نحيب مكتوم، وكانت عينا تانيا تائهة في السقف أو ربما الجدار، من يدري؟

لن يُشكل هذا فارقًا كبيرًا؛ فلولا شعلة جون لغرق المكان كله في الظلام.

أخذت ريتا تقترب من والدتها ببطء وقد ارتعشت أقدامها فلم تقو على حملها أكثر من ذلك؛ فجثت على ركبتها أمام أمها، ثمَّ مدت يدها نحوها وتحسَّست وجنتها وغمغمت: أمي، إنها أنا.

ولما وصل صوتها إلى أذن تانيا سُرت رعشة في جسدها، وأخذت تلف رأسها ببطء حتى بلغت وجه ريتا والذي ما إن أبصرته انسلت دمعة من عينها وقالت بصوت مشوه: يي...تاا...ييتا..

لو كانت للكلمات أعين لبكت، ولو أن لريتا أن تعطيها حياتها لقاء أن تشفى لبذلتها رخيصة، فمن الذي يسهل عليه كتابة نعيٍ لأمه وأبيه في يوم واحد؟

دمعت عينا الفتاة، وهمَّت أن تدفن رأسها في صدر أمها قبل أن تجد يد جون قد أمسكت كتفها ساحبةً إيَّاها للخلف بعنف حتى أن ركبتها قد جرحت، صاحت ريتا باستنكار: ما الذي فعلته؟!

فردَّ جون بهدوء: انظري إليها.

فقالت: ما الذي أصابك؟! إنها...

ولم تكمل جملتها إلا وسمعت أطلال زئير مكتوم؛ فالتفتت ببطء نحو أمها فإذا بها تبصرها في آخر القبو بأنياب طويلة وأظافر سوداء حادة، أخذت تانيا تشد السلاسل بعنف، ثمَّ وثبت بسرعة نحو جون وريتا قبل أن تسحبها السلاسل إلى الخلف فأخذت ترمقهم بغضب وقد سال اللعاب من فمها، وصاح جون: ارجعي خلف الباب.

ركضت حتى بلغت مدخل القبو قبل أن يبدأ جون بترتيل تعويذة بلغة الأقزام ذات نسق حاد، وصوت أثيري غليظ؛ فخرجت عبر الأرض سلاسل مشعة، ذات رؤوس مدببة، وأخذت تلتفُّ حول تانيا حتى كبلتها بإحكام، أخذ الهواء يعصف في الغرفة، وبدأت تانيا بالتشنج بين ثنايا السلاسل عندما اقترب منها جون وقد أخرج من حقيبته حافظة زجاجية حملت مادة زيتية سوداء، ثم فتح الحافظة وصبَّ ما فيها على يده فشعر بحرقة تغزو ذراعه.

مدَّ يده نحو تانيا التي أخذت تُبعِد رأسها عنه قدر المستطاع إلى أن لمس طرف إصبعه جبينها؛ فصاحت بصوتها المشوه لدرجة أنَّ أعمدةً من الغبار قد سقطت من السقف، ومن البقعة التي لمسها صدر نورٌ رمادي منطفئ فدخلت يد جون في تلك البقعة، وأخذ يقلب يده في الفراغ خلف النور حتى شعر بيده قد بدأت بالذوبان قبل أن يشعر أن يده قد تحسست شيئًا ما؛ فأمسك به بلا تردد، وسحب يده سريعًا فأخرجت معها سديمًا أسود اللون لكنَّه شعر كأنه ممسك بمادة صلبة.

لم يشغل باله بتلك التفاصيل وأحضر جرة فخارية وألقي بالسديم فيها، ثمَّ أحكم إغلاقها قائلًا: أيُّها القابع في قاع الجحيم فلتبق في سجنك الذي اخترته لك حتى أفنى، أو أخرجك منها.

ثمَّ كرر العبارة بلغة الجان والأقزام والعمالقة، والبشر القدامى، وكل اللغات التي تعلمها أثناء رحلة حل لغز النقوش، لم يكن هدفه أن يفهم ذلك الكائن كنه عباراته بل كان يريد تقوية الحاوية لا أكثر، ثمَّ جرت شعلة من النار على سطح الجرة لترسم النقش ذاته، وارتمى جون على الأرض واختفت السلاسل التي كبَّلت تانيا قبل أن تنهار هي الأخرى؛ فانطلقت ريتا نحوها صائحة بقلق: أمي!

فقال جون بصوت لاهث: لا تقلقي، إنها بخير.

فدمعت عيناها وهي تضُمُّها إلى صدرها بحرارة.

أخذ جون يطالع يده التي احمرت بشدة وقد غزت الحروق أطرافها، ثم رفع جذعه من الأرض وحمل تانيا قبل أن يخرج برفقة ريتا من القبو نحو المنزل.

كانت التعويذة التي استعملها جون إحدى أقوى التعاويذ الخاصة باستخراج الأرواح من البشر، لكن كل هذا كان قائمًا على توقع جون بأن ما أصابها هي لعنة ليست لتشويه جسدها بل لترويض روح كائنٍ ما؛ فتلك الطريقة كانت معروفة منذ القدم، فإذا كان لدى أحدهم روحًا محبوسة ولن يقوى على ردعها لو خرجت يُجبرها على تلبس أحدهم وبتلك الطريقة يحدُّ من قدرات الروح وفي نفس الوقت يستطيع أن

يتواصل معها، لكن لو لم يصح توقع جون كان ليخسر يده جزاءً وفاقًا لدخوله مخدع روح تانيا بلا سبب مقنع، ولحسن حظه لم يحدث ذلك.

كان الشيء الوحيد الذي لا يجد تفسيرًا له هو: أنه لو كانت نظريته صحيحة فلماذا لا يسيطر الكائن عليها؟

دار بخلده أنَّ ذلك الكائن هو نفسه لا يريد التواصل مع أحد؛ لذا أخذت تانيا تتحور في مدة طويلة جدًا، كان لديه اقتناع تام أن هذا هو الخيط الذي سيجد حلًا للنقوش عبره، وأمل أن يقدر على التواصل مع ذلك الكائن لكنه لم يشغل باله بتلك التفاصيل حاليًا؛ فقد دخل إلى المنزل وأشار لريتا بإحضار أغطية ثقيلة فجمعت كل ما وجدته في البيت فلم يكون سوى غطاء خفيف على الأرض.

مددها جون على تلك الأغطية، وخلع معطفه المخملي الجديد وغطاها به، ثم عاد إلى كرسيه بإرهاقٍ واضح، أمَّا ريتا فقد جلست أرضًا بجانب والدتها وأخذت تُمرر يدها بين خصلات شعرها الجافة التي بهت لونها وذهبت نضارتها، التفت جون لها وأخذ يتأمل المسكينة وراح عقله يعرض عليه صورًا لزوجة أبيه التي طالما غمرته بحنانها فلم يعرف له أمًا سواها.

غمغم في حزن: ربما حان الوقت.

خلعت ريتا عباءتها ذات القلنسوة وطوتها جيدًا، ثم أسندت رأس تانيا إليها قبل أن تقوم وتقترب من جون وانحنت قائلة: أشكرك من أعماق قلبي.

ورفعت رأسها مردفة: أنا مدينة لك ما حييت.

ابتسم جون قائلًا بصوت جاف بحَّه الإرهاق: لا عليكِ، هذا واجبي.

والتفت إلى جثة إيان المغطاة قائلًا بحيرة: لكننا ما زلنا لم نفهم شيئًا بعد.

فقالت ريتا بعفوية: ربما تخبرنا أمي عندما تستيقظ.

- لا أريد أن أنزع الأمل منكِ ولكن....

سكت برهة، ثم قال بعد زفير طويل: إذا استيقظت أمك في الغالب لن تتذكر شيئًا.

ورمق تانيا وهو يفكرا بصوت عالٍ: لم أسمع في حياتي عن كائن كالذي استحوذ على والدتك، فضلًا عن الفترة الطويلة الذي استغرقتها كي تصل إلى ما هي عليه.

ثم قال مستدركًا: لكن هناك أمل وإن كان ضعيفًا؛ فحالتها الصحية كما فهمت منكِ كانت سليمة قبل أن تصاب و...

قاطعته ريتا بهدوء، وقالت بنبرة مِلأت بالرضا والقناعة: لا بأس بما لدينا الآن، لا بأس إن لم تتذكر شيئًا، إن كانت هذه هي ضريبة إنقاذها فليكن.

سكتت برهة، ثمَّ نظرت إلى تانيا الممددة على الأرض وقد انكمشت على نفسها، ثم قالت بعينٍ لامعة: في الحقيقة لا أود أن تتذكر شيئًا، لا أريدها أن تعاني من جديد.

أخذت نفسًا عميقًا، وكسرت حزن المكان قليلًا، ثم قالت: ما الذي تنوي فعله الآن؟

فقلب جون نظره بينها وبين أمها، ثم نظر إلى السقف المشقق فوجد قطرات من الماء قد انسلت عبر الفتحات فإذا بالسماء في الخارج بدأت لحنها الباكي، قال جون بعدما أعاد ناظريه لإيان: يجب علينا دفن والدك أولًا.

أومأت له ريتا إيجابًا في فهم؛ فخرج جون من المنزل وأخذ معولًا من الباحة الخلفية، وشمَّر عن ساعديه، ثمَّ بدأ بحفر القبر، وبعد أقلِّ من ساعة كانت الحفرة جاهزة، وكان جون غارقًا في مياه الأمطار التي بدأت تهدأ قليلًا، ثمَّ عاد إلى المنزل فوجد ريتا قد بدَّلت ثيابها إلى ثياب سوداء طويلة، وقبعة ذات غطاء داكن شفاف قد انسدل أمام وجهها.

وسريعًا عاد جون لحصانه المربوط في السور الخشبي وشعر بحظه السعيد عندما اختار الحقيبة الجلدية لوضعها على ظهر الحصان، والتي لم تسمح لمياه الأمطار بإغراق محتوياتها، ثمَّ أخرج منها معطف الباحثين الأسود واتجه نحو القبو، ثم خلع حُلته التي غرقت بالوحل ووضع المعطف عليه، ثم عاد إلى المنزل.

انقشعت السحب عن السماء، وبدأت خيوط الشمس الذهبية تنسلُّ عبر الغمام ببطء مُرسِلةً لمسات لطيفة من الدفء الذي كان جون وريتا في أمس حاجة إليه، أمسكا سويًا الجثة ووضعاها في الحفرة سويًا قبل أن يردم جون الحفرة، ثم وضع أمامها شاهد قبر فارغ، وأخذ كل منهما

يملأ صدره بنسائم الهواء، ثم التفتت ريتا سائِلةً جون: أستعود للعاصمة؟

فرد مفكرًا: بل سأعود لأماليثيا.

– عندما علمتُ أنك ابن عائلة نبيلة تعجبت بحق، سامحني فأغلبكم ذو طبع متعجرف.

أطلق جون ضحكةً خفيفة، ثم التفتا إلى بعضهما البعض، واقترب جون منها بتوتر وقد أحس أنها الفرصة المناسبة ليفرج عما اكتنفه قلبه لها من مشاعر.

قال جون بتردد: ريتا...أنا...

كانت ريتا هي الأخرى تنتظر منه كلماته التي تكاد تقسم أنها رأتها على شفا لسانه، لكنه أكمل قائلًا: سأفتقدك.

فشعرت بخيبة أمل، والتفتت إلى قبر أبيها قائلة: وأنا أيضًا.

شعر جون أنه ليس من الصواب الحديث في أمور كهذه خاصةً وجثة والدها ما تزل دافئة في قبره، فضَّل أن يأجل هذه اللحظة عندما تكون الأمور مستقرة أكثر من ذلك.

تذكر جون شيئًا فأخرج من حقيبته ورقة صفراء اللون كتب أسفلها بدماء متجلطة "جون فالكون" ثم ناولها إيَّاها قائلاً: عندما تفيق والدتك إذا تذكرت شيئًا اكتبيه في هذه الورقة واربطيها في أي طائر وسيعرف طريقه إلي.

تناولت الورقة وأخذت تقلبها بين يدها قائلة: لا تكف عن إبهاري.

ثم قال جون بجدية: أيـًا كان ما يربط والدك بالسيد تورس فلن يجلب لك سوى الضرر، وأنصحك بأن لا تعودي إلى العاصمة.

أومأت له إيجابًا بعين ملتمعة، خلفها جيش من الدموع تقاومه بسورٍ هش من الصبر والتحمُّل، مواسيةً نفسها بعلاج أمها ولكن هيهات، أيقنت أن الحياة ليست سوى نوعٍ من التجارة؛ فإن عاش والدها كانت لتموت والدتها على أيدي الكهنة، أدركت أنَّ الحياة لا توهب بيد إلا وقد سلبت بالأخرى.

عادا إلى المنزل، ثمَّ مر اليوم سريعًا، وقد استغله جون في جمع أغراضه مستعدًا للرحيل، وفي صباح اليوم التالي كان جون يفك جواده من السور شاعرًا بنظرات ريتا رغم أنها كانت خلفه، تلك النظرة التي يحاول صاحبها إشباع عينيه بمن سيودعه؛ فهو لا يعلم متى أو أين سيراه مجددًا.

التفت لها فاقتربت منه قائلة: أتمنى أن تصل سالمًا.

فابتسم لها قائلًا: اعتنى بأمك.

ثمَّ اعتلى صهوة جواده، مودعًا إيَّاها قبل أن يلكزه، لينطلق مغادرًا القرية وقاصدًا فيلينيا، لم يكن يحبذ المرور بأزتلان رغم أن الطريق كان ليكون أقصر إلا أنه آثر سكارى فيلينيا على آل آدوراي الأشداء، ولم يحب أبدًا إجراءات دخولها التي تُصيب المرء بصداع حاد.

هبط من آديري نحو سهل نهر الريفز المُنبسِط، وأخذ يمشي بمحاذاة النهر عدة أيام حتى وصل إلى جسر ترايتون، ثمَّ عرج به الطريق جنوبًا

حتى وصل فيلينا بعد يومين، وأثناء الرحلة جرَّب عدة طرق للتواصل مع الكائن الذي حبس في الجرة لكن جميع محاولاته باءت بالفشل، وفي حالة أنَّ الكائن نفسه لم يُرد التواصل مع أحد، وحالة تانيا أكبر دليل على ذلك فلن يبقى أمام جون سوى حل وحيد وهو أن يترك الكائن يتلبس جسده، كان حلًا مستبعدًا بالطبع فأمر كهذا ربما يقلب المملكة كلها رأسًا على عقب، كيانٌ مجهول يتلبس ساحرًا هو من الصَّفوة في مملكته فلك أن تتخيل حجم الكارثة.

فقرر أخيرًا أن يترك الجرة معه حتى يجمعه القدر بمن يستطيع حل لغزها، وربما كان يجدر به فعل ذلك منذ البداية إلا أنه شعر بجوار الجرة أن المحفز الخفي _الذي كان يدفعه نحو حل لغز النقوش كالمسحور_ قد اختفى تمامًا، وأخذت الأيام تمر تباعًا حتى عبر مراعي فيلينا، ثمَّ غابة الظلال وأخيرًا وصل إلى أماليثيا بعد غياب دام لما يزيد عن أربع سنوات.

كانت المدينة كما تركها؛ فلم تتغير على الإطلاق، ملأ صدره بهواء أماليثيا المنعش متجهًا نحو منزله الذي يقع في قلب المدينة على بُعد مسافة قصيرة من قاعة البلدة، وبعد عدة ساعات كان جون قد شقَّ طريقه نحو منزله، ثمَّ ها هو ذا أمامه، قرع بابه عدة مرات ففتحت له إحدى الوصيفات متفاجئة بعودته.

ثمَّ دخل عبر الحديقة إلى بهو المنزل فوجد السيدة إيميليا واقفةً ترمقه بذهول قبل أن تدمع عينيها راكضة نحوه، ثمَّ ارتمت بين أحضانه قائلة بصوت خنقه البكاء: اشتقنا إليك كثيرًا.

وشعر بدفء عبراتها التي تساقطت على كتفه؛ فضمها إليه أكثر قائلًا: وأنا كذلك يا أمي.

وبعد وهلة مسحت دموعها قائلة: سيسعد والدك برؤيتك كثيرًا.

وأخذت تحكي له كلَّ ما فاته.

إن السيدة جرين في الحقيقة ليست من أتروبوس وإنما هي من كروستافيا؛ فقديمًا اتَّحدت عائلة جرين مع تورون الأول لحل نزاع سياسي قام هناك، ولتقوية أواصر المحبة بينهم اتفق الملك معهم على أن تُزوَّج ثلاث نساء لثلاثة رجال من عوائل أتروبوس الكبرى، وتم تزويج ثلاثة نساء من العوائل الكبرى لثلاثة رجال من جرين، وكانت إيميليا إحدى نساء فرع جرين في الجنوب.

لم تكُف إيميليا عن ملء رأس جون بالحديث عن الزيجات التي تمت وغيرها من المواضيع التي تخص العلاقات الاجتماعية لسادة الجنوب، وبعد برهة قال لها جون بنبرة وشت بتعبٍ شديد: أود حقًا أن أستمع لباقي حديثك يا أمي لكنني متعبٌ من السفر.

ثم تابع مُستدركًا: سأبدل ملابسي وآخذ قسطًا من الراحة، وبعد العشاء نستكمل.

وبالفعل صعد السلالم وصولًا إلى غرفته التي بدأ يتأملها، متحسسًا جدرانها وبدأ يستذكر أيام طفولته، يقرأ تارة ويتعلم ركوب الخيل في الغابة تارة، وقطع تلك الخواطر دخول أخيه كارل صائحًا: جون!!

وركض نحوه فانحنى جون وضمَّه إليه، ثمَّ أخذ كارل يرمقه بخدين متوردين كحبات التوت قبل أن يغرق وجهه في صدر أخيه، رفع رأسه ليجد أخته كلاوديا على باب الغرفة ترمقه بنظرة كالذي ينتظر دوره؛ فحمل كارل على كتفيه وصاح الصغير فرحًا وأخذ يلعب في شعر أخيه، ثمَّ اتجه إليها فقالت بصوت خفيض مبحوح: اشتقت إليك كثيرًا.

فارتسمت على وجهه ابتسامة عذبة، ثم قال بوجهٍ متعب: وأنا أيضًا.

وطبع قبلة على رأسها ضامًا إيَّاها إلى صدره؛ فشعرت بالأمان كما لم تشعر به من قبل، ثم أنزل كارل أرضًا فأبدى ذلك الأخير بعض علامات الامتعاض فضحك جون قائلًا: لم تتغير قيد أنملة يا كارل.

شعرت كلاوديا بالتعب يسري في جسد أخيها فقالت: هيا يا كارل، أمك تريدك.

فرد ببرود: ولماذا تريدني؟!

فأمسكت كلاوديا بكتفه ضاغطة عليه بعض الشيء، وقالت بصوت خفيض: دع أخاك ليرتاح من عناء السفر.

فأومأ الصغير إيجابًا في فهم، ثمَّ قال بصوت عالٍ وقد فاحت رائحة كذبه: آه تذكرت لقد....

وتاه في أفكاره قليلًا، ثم أردف: لقد أخبرتني أن أذهب للحداد لدفع ثمن درع أبي الجديدة.

ابتسم له جون مودعًا إياه حتى خرجا من الغرفة فارتمى على سريره كشاة نافقة، لا يرجو من الدنيا سوى بضع ساعات هادئة لينعم ببعض النوم، وفي المساء عاد فرانك إلى المنزل، وعلى العشاء رأى جون بعد غياب طويل، ثمَّ بعد سلسلة من العناق والأسئلة الروتينية وصلت صحون العشاء أخيرًا، وقد كانت السيدة إيميليا أوصت المطبخ بإعداد وليمة احتفالًا بعودة جون؛ فلم يخل شبرٌ من المائدة إلا ووضع فيه صحن من اللحم أو اليخنة أو الجبن المعتق.

فأكل جون بنهم كأنه لم يأكل في حياته من قبل؛ فالرجل كان يعيش على وجبات الحانة في العاصمة ذات الجودة الرديئة هذا إن اعتبرت ما كان يأكله هناك طعامًا آدميًا من الأساس، ومرت سويعات العشاء سريعًا حتى فرغ الجميع، وما إن همَّ فرانك بالنهوض قال له جون: هل لي بكلمة على انفراد يا أبي؟

أومأ فرانك له إيجابًا، واصطحبه إلى غرفته الخاصة، والتي كان قد خصصها للقراءة والاجتماعات الهامة.

جلس فرانك إلى أريكة طويلة نسبيًا، والتي كانت أمام الحائط الأيسر من الغرفة، وقبالتها كان هناك كرسي ذا وسائد قطنية واسعة، أمَّا الحائط الأيمن فقد اكتسى ثلثه الأيمن والأيسر بأرفف من الكتب، وفي الثلث

الأوسط قبع مكتبٌ صغير ذا ريشة للرسم، وعدة أوراق فارغة، وبعض الكتب على الكرسي أمامه قد وضِعت بعضها فوق الآخر.

كان جون قد جلب معه من المطبخ كأسين من الشراب الدافئ فوضع واحدًا أمام أبيه على المنضدة الصغيرة التي توسطت المسافة بينهما، وجلس إلى الكرسي المقابل للأريكة، وما إن جلس جون قال فرانك بنبرة عملية: إذًا، وما الذي تريد أن تخبرني به؟

أخذ جون نفسًا عميقًا، ثم بدأ يحكي كل ما مر به ابتداءً من النقوش مرورًا بالعاصمة حتى أنهى حديثه بما حدث مع والدة ريتا، وعندما أنهى جون قصَّ حكايته تنهد فرانك وأخذ رشفة من شرابه، ثم قال بهدوء: لا أملك حقًا ما يفيدك في أمر النقوش لكن....

ثمَّ رفع رأسه ناظرًا إلى جون وقال: لا أعلم إذا كان ما سأقوله الآن له علاقة بما تريد معرفته لكن ربما يعود عليك بالفائدة.

أطلق زفيرًا طويلًا وأردف: ألم تتساءل ما سر تفوقك في السحر هكذا؟

رد جون بتعجب: رغم أنني لا أدري ما علاقة هذا بالرموز لكني طرحت هذا السؤال مرة على المعلم كين؛ فأخبرني وقتها أن اكتساب قوة بهذا الشكل له ثلاثة سبل.

أخذ جون يسترجع كلام كين في ذهنه فجرى صوت المعلم على مسمعيه قائلًا: الأول أن تصاب بتعويذة سحرية قوية من الجان أو الأقزام وغيرهم، وحيث إنهم انقرضوا منذ الحرب العظمى فهذا

مستحيل، والثاني هو أن تتدرب بشدة لكن حتى لو تدرَّبت دون نوم عقدين أو ثلاثة فلن تصل إلى هذا المستوى.

ثمَّ تذكر ضحكات كين عندما سأله جون عن آخر طريق فقال: أن يكون والدك قويًا مثلي.

قال فرانك مُؤمِّنًا على ما ذكره جون: معلمك على حق يا بني.

ثم وقف ناظرًا إلى شعار العائلة المُعلق على الراية المنسدلة من الحائط الأوسط، وأخذ شهيقًا طال، ثمَّ غمغم: كان هذا اليوم آت لا محالة.

والتفت إلى جون قائلًا: أعتقد أن للأمر علاقة بقوتك يا بني؛ فوالدتك من السحرة الأوائل.

قال جون مندهشًا: أمي!

سرت رعشة في جسد جون متذكرًا كل ما أخبره به المعلم كين عن السحرة الأوائل، وأنهم من علموا الأجناس القديمة السحر ولكنهم غادروا القارة بعد حربٍ لم يشاؤوا أن يكونوا طرفًا فيها.

قال جون بتوجس: لكنك أخبرتني أن أمي ذات شعر أسود، وهو أبعد ما يكون عن السحرة الأوائل.

اتجه فرانك نحو أحد أرفف المكتبة وأخذ يهيم بيده بين الكتب والأوراق حتى أخرج منها كتبًا، ثمَّ عاد إلى مجلسه وفتح إحدى الصفحات ملتقطًا منها ورقةً لينة عتيقة كأوراق الخريف المبتلة، وناول الورقة لجون قائلًا: تأملها جيدًا.

ففتح جون الورقة بحذر بالغ ليجد صورة مرسومة بحرفية بالغة لسيدة بدت آية في الجمال، عينان كالعقيق الأحمر، وشعر أسود كسماء ليل البحر، وبوجهٍ بشوش أبيض كالزهور ابتسمت بعذوبة.

قال فرانك مربعًا بيديه: إنَّها أمك.

تسارعت دقات قلب جون، ووجد العبرات تنسلُّ من عينيه على نحو مفاجئ، كانت أول مرة يرى فيه شكل أمه فشعر بمشاعر مضطربة تسري في داخله، رفع رأسه ناظرًا لأبيه ثمَّ غمغم: لماذا أخفيت عني كل هذا؟

ردَّ فرانك بأسف بالغ: أردت أن أحميك لا أكثر، كانت تلك وصيتها، إن علم أحد أنك تنحدر من نسل السحرة الأوائل كان حرس المملكة ليقبضوا عليك بتهمة الخيانة، ويودعونك في مكان لن ترى النور فيه مرة أخرى.

ثمَّ تناول منه الصورة وأخذ يتأملها قائلًا: طالما امتازت بشعرها الأسود، إن من استقروا من بني جنسها هنا تزاوجوا مع أهل القارة؛ لذا لم يعد أحد منهم يمتلك ذلك الشعر الجليدي.

وبدأ يحكي له أكثر وأكثر حتى كانت الشمس على مشارف السماء فأنهى حديثه معه كي يرتاح قليلًا، وعاد جون لغرفته وأخذ يفكر إن كانت حقيقة نسل والدته له علاقة بالنقوش التي رآها، أخرج سريعًا ورقة كالتي أعطاها لريتا، ودوَّن عليها كل شيء اكتشفه، ورسم النقش عليها، ثمَّ كتب في ذيل الورقة بدمائه (المعلم كين).

راين

كان راين قد هبط من الحانة العتيقة متلفتًا بحذر وقد ارتدى قميصًا كتانيًا أبيض باهت اللون وغمر نفسه برائحة بذور الينسون - التي كان يستخدمها أغلب العامة لتغطية روائحهم- خشية أن يدرك أحد هويته، وبدأ يشق طريقه في أزقة الضواحي حتى بلغ طريق المجد، وأخرج من جيبه بضع فضيات مشيرًا إلى أحد العربات، ولم يكن أحد ليقف له بمنظره هذا فاضطر لفعل ذلك، وعندما توقفت العربة أمامه طلب من قائدها أن يوصله لطرف قطاع الحدادين الأيمن حيث أقرب بقعة لقصر الأمير رومان تورس.

كان راين قد اعتاد مقابلة فيورا في الخَفاء هناك فالأمير رومان – ابن أخ السيد هنري تورس مستشار الملك – ابن عائلة التجار المعروفة لا يزور قصره في العاصمة سوى ثلاث مرات سنويًا، وكان يكره ازدحام العاصمة في وقت الاجتماع فكره المكوث فيها أغلب تلك الأوقات، وكان ذلك القصر يقع على بقعةٍ بعيدة في الطرف الأيمن لقطاع الملك، ووصل راين إلى قصر السيد رومان الذي كان صغيرًا نسبيًا، متماثل الشكل، تكون من برج صغير يمينًا وآخر يسارًا وثالث أكبر منهما في المنتصف، وقد ربطوا بحزمة من الغرف والدهاليز المزخرفة بعناية.

توسَّط حديقته الأمامية تمثال من الجرانيت الأسود للأمير الذي بدا شامخًا بطوله الفارع، ومعطفه الذي يرفرف خلفه، وقد نقش على

صدره شعار آل تورس زهرة البرسيم رباعية الأوراق؛ دلالة على الحظ والثراء.

أما راين فقد تعود على هذا المكان بحكم تردده عليه كل اجتماع تقريبًا؛ فوثب سريعًا عبر أسواره، متجهًا إلى حديقة القصر الخلفية حيث تنتظره فيورا.

تجاوز البرج الأيسر للقصر، ومشى عبر ممرٍ طويل بين حوائط القصر وسوره حتى رأى الحديقة أمامه، كانت أرضها شبه مستوية، ذات عشب متباين الطول، وشجرة وحيدة على قطعة أعلى قليلًا من باقي الحديقة.

كانت فيورا جالسةً على العشب، مُسندةً ظهرها إلى الشجرة وقد هامت عيناها بين نجوم السماء، واقترب منها راين ببطء حتى أصبحت المسافة بينهما كطوله تقريبًا، ثم قال بصوت مُلئ لهفةً: فيورا.

التفتت إليه سريعًا، ثم لمعت عيانها وكانتا على وشك الفياض؛ فنهضت واثبة وتمسكت بسترته الخشنة قبل أن تدفن رأسها في صدره، وبأعين دامعة رفعت رأسها نحوه قائلة: اشتقت إليك كثيرًا.

وعندما وصلت عباراتها إلى أذني راين ثملت تمامًا، وأبت سماع أي شيء آخر غير صوتها العذب.

وضع يده مربتًا على رأسها بحنان قائلًا: لم تتغيري قط.

كانت فيورا تملك ملامح طفولية عكس عمرها المقارب لعمر راين، جلسا سويًا مُتأملين السماء؛ فقالت فيورا وقد غزاها شعور بالراحة

والطمأنينة: عندما أرسلت رسالتك تخبرني أنك قادم إلى هنا لم أصدق، حتى أنني بعثت لك برسالتي على الأوراق الخاصة، وهي مكلفة حقًا.

ثم نظرت إليه بابتسامة بريئة قائلة: لكن لا شيء في الدنيا يعادل رؤيتك.

ثمَّ مالت برأسها إلى كتفه، وبعد برهة سألت: وكيف حال عمي نيكولاس؟

نظر راين إلى العشب بين قدميه قائلًا: إنه.. إنه بخير.

- إذا كان بخير، فلماذا لم يأت لحضور الاجتماع؟ ولماذا دخلتم العاصمة خلسة؟

فالتفت لها راين وابتسم قائلًا: هونًا علي، ما كل تلك الأسئلة جلالتك؟

كانت فيورا تنزعج كثيرًا عندما يخاطبها راين برسمية؛ فعقدت حاجبيها قائلةً بنبرة هي مزيج بين الغضب والإحراج: لا تؤاخذني فأنا لم أرك منذ مدة طويلة.

وأبعدت نظرها عنه بامتعاض.

ضحك راين بصوت عالٍ ضاربًا بيده على ركبته، وقال: حتى طباعك لم تتغير.

وما إن هدأ قال: إن أبي مريض، ولم يكن جسده ليتحمل الرحلة.

سكت برهة وتابع بجدية: أما عن تسللنا فتعلمين أن تورون كان ليحرك أذرعه الخفية لإيذائنا.

خفضت فيورا رأسها، وقالت بذبول: عائلتي مصدر دمار وإزعاج للجميع.

همَّ راين ليطيب خاطرها ببعض العبارات لكنها أردفت: لم أطلب أن أولد أفالون، ولم أختر أن يكون أبي ملكًا على أتروبوس.

لمعت عيناها، وأخذت العبرات تنسلُّ منها عندما قالت: ليتني لم أكن كذلك، ليتنا كنا مجرد عاميَّين، كنا لنتزوج بلا هموم.

- ليتنا كنا كذلك، ما نحن إلا أحجار في لعبة ليس لنا يد فيها، لكنها الأقدار.

وبدأت فيورا تنسج أحلامًا من الخيال عن حياتهما إذا تزوجا، وكانت تلك الفكرة تضع الملح على جراح راين؛ فالحائل بين زواجهما ليس بنقصٍ مادي بل كانت عداوة تكوَّنت من طبقاتٍ من الكراهية المتراكمة عبر آلاف السنين، وهدم راين قصورها الورقية مُنبهًا إيَّاها من ذلك الحلم قائلًا: ما الذي ينوي والدك فعله؟

فقالت بتوجس: أبي صمام يمنع المملكة من الانفجار.

وملأت صدرها بنسيم الليل قائلة: أما تورون فهو الخطر الحقيقي، إنه يحشد الرجال وينفق الأموال بلا حساب على الكهنة كي يؤجج الكراهية بين العائلتين.

- ربما صدق الناس عندما لقبوا أوبيرون بالملك الحالم.

- لم أكن لأشك في صدق نيته لكن..... ربما هو لقب مناسب فعلًا.

ثم أسهبت في الحديث عن القصر والحاشية، وألاعيب البلاط، والمجالس الملئى بالحمقى، والمداهنين حتى قطع الليل شوطًا طويلًا قبل أن يقول راين: كنت أود المكوث أكثر من ذلك لكن... يجب أن أعود الآن.

بحزن قالت فيورا: متى سأراك؟

وأمسكت بكُم سترته فرد قائلًا: غدًا سأتجه إلى القصر.

وداعب شعرها الذهبي قائلًا: أعدك.

ثم ودعها عائدًا إلى الضواحي مرةً أخرى عبر شوارع الحدَّادين الممتلئة برائحة الفحم التي عبثت بأنفه حتى بلغ الحانة مرة أخرى عندما رشفت السماء آخر قطرة من عبق الليل، وأسرع بخطوات حثيثة إلى فراشه قبل أن يرتمي عليه نائمًا كالموتى، وبعد عدة ساعات أفاق على ركلاتِ جون لسريره فاقدًا صبره وهو يحاول إيقاظه بلا جدوى، وبعين نصف مفتوحة سمع راين صوت جون مشوشًا وقد صاح فيه قائلًا: أدبٌ خالد إلى سباته الشتوي أنت أم ماذا؟

فرفع راين جذعه عن السرير ببطء وأخذ يفرك مؤخرة رأسه متثاءبًا، وتسلل الكسل مع أنفاسه قائلًا: ارحمني قليلًا يا جون؛ فقد خضت معركة ليلة البارحة مع طرقات وأزقة هذه المدينة اللعينة.

كان جون قد عاد من البحيرة ليلتها قبل بداية الصباح ببرهة، وقد سمع بعدها صرير أخشاب الممر وصوت انغلاق أحد الأبواب فعلم أن

أحدهم كان خارج الحانة، وعكس راين فجون كان معتادًا على الاستيقاظ ليومين أو ثلاثة إن اقتضى الأمر.

تراجع جون قليلًا كاظمًا غضبه ثمَّ قال: أقابلتها؟

أومأ راين إيجابًا فزفر جون وقد سئم من شرح مدى أهمية اختبائهم حتى القصر، ثم جلس أرضًا وقال: على الأقل، أقالت ما قد يُهمنا؟

اعتدل راين في جلسته، ثمَّ أرجأ ذقنه إلى أصابع يده المتشابكة وقال مفكرًا: لا أعلم إذا كانت مثالية منها أم أنها تحاول حماية والدها لكن....

ثم رفع رأسه نحو جون قائلًا: لقد ألقت اللوم كله على تورون.

رمق جون السقف وقد أسند يديه إلى الأرضية قائلًا: لم تفعل الصواب؛ فلولا ذلك المعتوه لكان الأمر بيننا مجرد حساسية قد تذوب مع الوقت.

وضاقت عيناه قائلًا بسخط: أيجب أن يكون في كل جيل شخص كتورون ليؤجج العداوة بين سكان المملكة؟!

سأل راين بتوجس: وما الحل في رأيك؟

- إذا أردت رأيي فالحل ليس في وراثة فيورا للعرش كما يقترح والدك.

ثم غمغم متذكرًا ما قاله له كالي في فيلينيا: في حياتنا نواجه نوعًا من العقبات كالأعشاب الضارة يجب استئصالها بالكامل، وكل ما هو دون ذلك تسكين مؤقت لا أكثر.

مال راين بظهره إلى الأمام قليلًا، ثم قال: لكن فيورا صالحة.

نظر له جون في قلب عينه قائلًا: أيوجد ما يثبت أنها ستظل كذلك؟

بل أيوجد ما يثبت كلامك عنها الآن؟

وسكت برهة، ثمَّ أتبع بكياسة: إن الفتاة لم تشغل منصبًا ما كي تثقوا فيها كل تلك الثقة، فحتى معرفتك بها كلها كانت عبر المدة القصيرة التي تأتي لحضور اجتماع الكبار لا أكثر.

بدأت الحيرة تغزو راين وكان عقله بين مدافع عن فيورا ومتفكرٍ في كلام جون.

غمغم جون بعدها متعجبًا: لا أعلم سر تمسكك بها أنت وعمي!

همَّ راين بالوقوف معترضًا قبل أن يتابع جون: إن عمي بعيد النظر وقد يرى ما لا أراه.

ثم دلفت روز إلى الغرفة مستأذنة، ثم قالت: كل شيء جاهز يا سيدي.

فقال راين: أريد منك جمع لوران وكالي وانتظارنا خارج الحانة.

- عُلم يا سيدي.

ثم خرجت من الغرفة، وتبعها جون سريعًا متجهًا نحو غرفته ليلملم أغراضه حتى مرت بضع دقائق فكانوا جميعًا خارج الحانة؛ فقال كالي برسمية: لقد فعلت كما أمرتني، والمستودع جاهز بالخيول والدروع وكل ما يلزمنا، وقد ناولت جماعة من حرس المدينة بعض الذهبيات لحراسته حتى نصل.

قال راين: أحسنت صنعًا.

ما كان راين ليُخاطِر بخسارة المزيد من الوقت إذا أتى كالي بالجياد الخمسة إلى الضواحي؛ فطلب منه أن يجهز مكانًا في قطاع الحدادين ومن هناك سيتجهون نحو القصر.

قال جون: سننقسم إلى ثلاث مجموعات حتى نخرج من الضواحي.

كاد راين يعترض على تلك الفكرة لكن جون أوعز ذلك لأن سير خمسة من الفرسان سويًا في أزقة الضواحي لن يضع عليهم سوى العيون الشكاكة وعصافير البلاط، ولربما استفزوا بمسيرهم سوية أحد الجماعات الخارجة عن القانون هناك؛ حيث أن الضواحي هناك مقسمة نوعًا ما إلى مناطق كل منها تسيطر عليه جماعة محددة، وتفرض الإتاوات على قاطنيها ليأمنوا شرهم على الأقل.

تابع جون قائلًا: لا يهم من أين سنصل إلى طريق المجد، كل ما أريده أن نسلك أزقة مختلفة، في المرة السابقة عندما دخلنا الضواحي كان غطاء الليل يظلنا أما الآن فيجب علينا أن نحتاط.

وسريعًا أشار لهم أن يسير راين وكالي سويًا، وروز ولوران من طريق آخر، أمَّا هو فيستأخر عنهم ليراقب الأجواء من خلفهم؛ لذا طلب منهم عدم انتظاره حتى يصلوا إلى المستودع، وما هي إلا دقائق معدودة حتى مضى كل منهم كما قال جون، وبعد أقل من ساعة كان راين وكالي قد استقلَّا عربة من طريق المجد بلا أي معوقات، ومن خلفهم كان روز

وكالي قد ركبا إحدى العربات أيضًا متأخرين عنهم بسبب تعرج طريقهم الذي سلكوه في الضواحي.

وبعد ما يقارب الساعة والنصف وصل راين وكالي إلى المستودع الذي كان جزءًا سفليًا من بناية حجرية ذات طابقين، وأمام البناية كان هناك أربعة من حرس المدينة، اتجه كالي نحوهم، ثمَّ ناول كلًا منهم قطعة ذهبية فشكروه ممتنين وتركوا المكان، ومرَّت نصف ساعة أخرى حتى وصل لوران وروز، ولم يشأ راين أن ينتظروا أكثر من ذلك فدفع باب المستودع الكبير ليكشف عن خمسة جياد مُحاطين بأكوام من القش، وبخطواتٍ حثيثة أزال كالي القش مُخرِجًا قطع الدروع اللامعة فتبعه لوران وروز بذلك.

نظر لوران عبر نافذة المستودع وأخذ يتأمل الشمس التي كانت على وشك بلوغ ذروتها، ثمَّ قال في قلق: أخشى أن يكون سيدي قد أصيب بمكروه.

فقال راين ضاحكًا في ثبات: كنت في الحقيقة لأقلق على من يقف في طريقه.

وسكت برهة، وأردف بعد زفير طويل: لا عليك، سيكون بخير.

وبعد مرور ساعات أخرى طرق باب المستودع ففتحه كالي بحذر، فإذا به جون يلهث واقفًا على الباب، التفَّ راين نحوه وفي توجس سأل: لماذا تأخرت كل هذا؟ هل أنت بخير؟

فأومأ له إيجابًا، وأشار نحو قربة ماء كانت مُعلقة على ظهر أحد الخيول فناوله لوران إيّاها وأخذ يشرب منها في نهم، وبعد ما ارتوى تمامًا جلس على كومة من القش حتى التقط أنفاسه والجميع ينظر له في ترقب.

بدا الإنهاك واضحًا عليه عندما قال: إنهم يعلمون.

نظروا له غير مُدركين كنه كلامه حتى أكمل: أحدهم وضع جائزةً على رأسي في السوق السوداء.

اتسعت عينا راين وعقد حاجبيه، وفي حنقٍ شديد قال: كيف حدث ذلك؟

فالتفت له جون في حيرة قائلًا: أغلب الظن أنه تورون أو أحدٌ من بيت الملك.

نظر له راين بحنق، ثمَّ قال: إذا كان لديك ما تريد قوله فأرجو منك أن تبتعد كل البعد عن التورية؛ فأنا لا أطيق الرجال الملتوين.

فصاح جون: بالطبع لدي ما أقوله، لقد سحرت ابنة أفالون تلك عقلك، أيوجد أحدٌ غيرها يعلم بوجودنا؟

- لم أكن لأشك فيها ولو لحظة، ثم إنها لو أرادت إيذاءنا لفعلت، فلمَ لم تضع جائزة على رأسي مثلًا؟

- لأنه سيكون واضحًا أيها الغبي، إنها الفاعل لكنها بقتلي تضعف كفتك.

وأخذ الجدال يتصاعد بينهم حتى اشتد وأمسك راين بقبض سيفه؛ فتقدم كالي قائلًا بحزم: يكفى يا سادة، لو رآكم السيد نيكولاس لبكى من الحسرة.

ثمَّ تقدم نحو راين قائلًا في هدوء: لقد وثق فيك والدك لتمثيل إقليمِنا في حدث مهم، أهكذا تُخبره أنَّكَ أهل لثقته؟

والتفت إلى جون قائلًا: والسيد نيكولاس وثق فيك أيضًا، ونزل على رأيك عدة مرات آخرها هذه الرحلة، ولو رآك الآن لخاب ظنه بك.

فهدءا قليلًا قبل أن يقول جون: ما حدث أني هوجِمتُ من قِبل ثلاثة رجال من المرتزقة غالبًا.

وأخرج ورقة من جيب سترته، وناولها لراين الذي فتحها فإذا بصورة فحمية باهتة لجون وأسفلها كتب (عشرة آلاف ذهبية لمن يقتله) فأخذ يقلب عينيه في الورقة، ثمَّ قال: كيف يعرف صاحب الجائزة القاتل إذا لم يكتب أي معلومة عنه؟

فردت جون في رتابة: إنه في الورقة بالفعل.

ونهض نافضًا الغبار عن نفسه، ثمَّ التقط منه الورقة قائلًا: إنها طريقة متعارف عليها بين القتلة.

وأشار إلى بقعة خاوية أسفل الورقة مردفًا: يأخذ القاتل جزءًا من دمائه ويمزجه بجزء من دم القتيل، ويضعه أسفل الورقة فتظهر له كل المعلومات التي يحتاجها، وتتبخر باقي الأوراق.

سكتَ جون برهة ورمق الورقة قائلًا: لكن بالطبع يجب أن يكون المشار إليه في الورقة ميتًا وإلا لن يظهر أي شيء، وحيث إننا لا نعلم يقينًا من فعلها فكل كلامنا تكهنات لا أكثر لكن....

ملأ جون صدره بهواء المستودع المكتوم، ثم تابع: لن أطلب منك سوى أن تأخذ حذرك منها على الأقل.

كان راين قد انتهى تقريبًا من وضع درع بمساعدة لوران وكالي اللذَين كانا جاهزين بدورهما، ومن خلفهما روز التي أمسكت بلجام جوادها مستعدة للتحرك في أي لحظة، أمَّا جون فقد أخذ يعدل شعره الأسود قائلًا: عمومًا، من الخطر تواجدي معكم في القصر، سأكون أنا في الخارج أراقب الأجواء.

قال راين مستنكرًا: أليس من الأفضل أن تكون في القصر؟!

فحتى لو حدث لك مكروه ما فسيكون من الواضح أنَّ الأفالون هم المسؤولون عنه.

حمل جون حقيبته قائلًا: بل بالعكس، إذا كنت في القصر وقتها سآكل ما يختارونه لي، وأبيتُ في المكان الذين يحددونه هم، ويحرسني حرسهم الذي قد يكون متورطًا في الأساس؛ لذا من الحكمة أن أبقى في الخارج.

تقدَّم راين نحوه، ثمَّ قال ضاغطًا على كتفه: كن حذرًا.

فأزاح جون يده قائلًا في سخرية: أتخاطب طفلًا في السادسة؟!

فابتسم الاثنان قبل أن يغادر جون، وبعد عدة دقائق خرجوا من المخزن وعلى رأسهم راين بدرعه الفولاذية الداكنة، ولم يتزين ذلك الدرع بالكثير من الحلي فقد كان يرى دائمًا أنَّ الفولاذ هو الفولاذ إن لم يكن مصقولًا بإحكام سيخترق آخذًا معه حياتك إلى الجحيم، غير آبه بمقدار الجواهر التي تزينه.

لكنه أيضًا ولكي يحفظ مكانته ارتدى معطفًا من المُخمل الرمادي، والذي ثبت بدبوس قد اتَّخذ شكل صقر فالكون الجارح والذي لمع بشدة مع سقوط أشعة الشمس عليه، أمَّا خلفه فكان صفٌ من الفرسان الثلاثة وقد توسطتهم روز، مُرتدين نفس دروع راين تقريبًا غَير أنهم لم يرتدوا معاطف بالطبع، كما أن دروع روز قد اصطبغت بطبقة رقيقة جدًا من اللون القرمزي الذي لم يمنع أبدًا بروز الفولاذ الداكن، وأخذوا يتحركون بخيولهم حتى وصلوا إلى طريق المجد وانطلقوا منه نحو قطاع المُلك.

وخلال مضيهم من قطاع الحدادين أخذت عيون المارة ترمقهم بنظرات غريبة، وشعر الفرسان خلف راين بثقلها قبل أن يقول لوران ساخرًا: إن القوم هنا حانقون علينا بشدة.

فابتسم راين قائلًا: ستعتادون على الأمر.

وبدأت ورشات الحدادة، ومحال السيوف تقلُّ كلما مضوا شمالًا، وبدأت مظاهر الرقي تبرز شيئًا فشيئًا، ولاحت أبراج المكتبة الكبرى في شَمالهم الغربي قبل أن يصلوا إلى نهاية طريق المجد، وهناك كانت بوابة

عملاقة كبوابة الجسر المُعلق في مدخل المدينة غير أنَّ هذه البوابة كانت أكثر هيبة بلونها الفضي ـالذي طعم بالذهبـ وأحجار الكهرمان، وقد ارتسم طائر العنقاء في منتصفها بعيونٍ من العقيق الأحمر.

ضرب فارسَا البوابة الأرض برماحهم، رافعين دروعهم المستطيلة التي يزيد ارتفاعها عن طول الفارسين نفسهما، ثمَّ وجهوا الرماح ناحيتهم وقال أحدهم: تراجعوا على الفور، وعرِّفوا عن أنفسكم وإلا قبضت عليكم باسم الملك.

تقدَّم كالي بجواده لبضع خطوات مُمسكًا بمقبض سيفه، وقال بصوت هادر: ألا تعلم مع من تتحدث أيها الأحمق؟ إنَّه السيد راين فالكون، ممثلُ إقليم الجنوب.

أخذ الحارسان يقلبان النَّظر بينهما قبل أن يلحظوا لمعان دبوس معطف راين الذهبي، مُتخذًا شكل الصقر الجارح؛ فخفضا رمحيهما سريعًا وركعا على ركبتيهما، ثمَّ خلع أحدهما خوذته واضعًا إيَّاها على الأرض، وقال في توتر: عذرًا يا سيدي، لم نكن نعلم أنك آتٍ.

قال راين بشدة: والآن وقد علمت، أبلغ جلالته أننا هنا.

- علم يا سيدي.

ثم نهض أحدهما ودلف سريعًا عبر بابٍ جانبي مخصص للحراس، واعتلى صهوة جواده وانطلق نحو القصر الملكي، ثمَّ نهض الآخر قائلًا: دعني أوصلكم إلى دار ضيافة جلالته فلابد أنكم متعبون.

وأشار خلفه عبر البوابة للمرافقين الصغيرين؛ كي يفتحا البوابة فأمسك كل منهما بالذراع المعدنية الموصلة بالأرض حتى بدأت البوابة تهتزُّ قليلًا وسرعان ما فتحت على مصرعيها، وركض أحدهم ممسكًا بلجام حصان متجهًا نحو الفارس، فتناوله منه وامتطى الحصان سريعًا وقال: سأقود الطريق يا سادة.

ثم لكز حصانه طائرًا عبر البوابة.

كان قطاع الملك مختلفًا تمامًا عن القطاعين الآخرين، فلو أخبرت أحد أبناء النبلاء أنه على بعد عدة فراسخ وداخل أسوار نفس المدينة يأكل الناس المواشي النافقة لاتَّهمك بالجنون أو أنك مصاب بلوثة عقلية؛ فحتى رائحة الفحم والفولاذ المصهور عجزت عن عبور البوابة حياءً مما خلفها، فأنى لها أن تفعل ذلك وبساتين الأزهار والمساحات الخضراء تملأ كل شبر من القطاع بالهواء المنعش.

كانت جيادهم تركضُ عبر الطرق الحجرية المرصُوفة بالرخام، وعلى أطراف تلك الطرق كان هناك بعض العمال مُمسكين بدلاء خشبية متوسطة الحجم، وأخذوا يرشون جنبات الطرق بالزيوت العطرية يوميًا خشية أن تصل أيَّة رائحة سيئة لأنوف الأسياد، واتَّسمت جميع الطرق بالاتساع فربما كان أضيق الطرق في قطاع المُلك أوسع من طريق المجد نفسه.

وأثناء مضيهم لم يروا ماشيًا أو مترجلًا؛ فكلهم إما فارس على جواده أو نبيل تجره عربته المسقوفة، ولو شئنا لقلنا إنه من العفة والصدق أن

نصف أصغر البيوت هنا بالقصر وأكبرها بالطبع كانت قلعة الملك المُكنَّاة بقلعة القمر، مروا عبر طريق مرتفع نسبيًا والذي يقود مباشرة إلى القلعة التي لاحت في الأفق، وبعد برهة كانوا أمام بوابتها والتي كانت أكبر وأكثر هيبة من أختها على بوابة القطاع، وأشار الفارس لزملائه خلف البوابة ففتحت لهم على الفور ليدلف ومن خلفه راين والبقية.

كان حرم القصر واسعًا، ذا طرقات حجرية، ومساحات خضراء واسعة لم تختلف كثيرًا عن باقي القطاع، وأمامهم امتدَّت مباني القلعة البيضاء ببرجها شديد الارتفاع، المطلع على المدينة كلها، ومن خلفها لاح بحر الظلام الأسود المدعو بالحافة، قادهم الفارس حتى وصلوا إلى مبنىً ربما كان ليبدو كبيرًا لو كان خارج أسوار القلعة؛ لذا لم يكن في مقدور روز ولوران منع نفسيهما من وصفه بالصغير، فكيف لعين رأت قلعة القمر أن تصف غيرها بما هي أحق به؟

كان مبنى أقرب ما يكون للمكعب، ذا قبة لامعة، وبروز هندسية خلابة، علقت أعلام الأفالون عليه يمينًا ويسارًا، وترجل راين وتبعه الفرسان، ثمَّ تناول منهم الفارس جيادهم ليضعها في الإسطبل قبل أن يدلفوا عبر بوابة دار الضيافة، والتي لم تكن أقل جمالًا عن خارج المبنى.

رأوا ساحةً كبيرة، ذات سُلمين مُقوسين يمينًا ويسارًا، وأمامهم في نهاية الطابق ذاته كانت هناك بوابة كبيرة حمراء كالدم، مطعمة بالذهب، وغيرها من نفيس المعادن.

أشار لهم الخادم أمام البوابة: من هنا يا سادة.

فاتَّجهُوا نحوه، وفور اقترابهم من البوابة فتحت لتكشف عن مائدة كبيرة مستطيلة الشكل، أحيطت بكراسي من أخشاب السنديان، أمَّا حوائط الغرفة فقد كان من الحجارة الرمادية، التي تناثرت عليها فتحات زجاجية على مسافاتٍ متساوية، وخلفها كانت بركتان صافيتان سبحت فيهما طيور البجع، وأحيطت بجميل الزهور والنباتات، وتقدَّم راين وجلس على آخرِ كرسي من الطرف الأيمن، ووقف الفرسان الثلاثة وقد أولوه ظهورهم فقال لهم راين: اجلسوا، لا داعي للذعر.

رد كالي في ثبات: إنَّنا نقوم بما كلفنا به السيد نيكولاس لا أكثر.

فرد راين متأملًا البجعات وهي تسبح ببراءة في البركة: إننا في عقر دارهم، وطالما نحن داخل القلعة؛ فنحن في حماية الملك وإذا أصابنا مكروه سيقع على عاتقه لا محالة.

وسكت برهة، ثمَّ أتبع رامقًا الكرسي الكبير على رأس الطاولة: ثم إننا إن أظهرنا قلقنا الزائد وحرصكم المفرط على حياتي؛ فهذا يعني عدم ثقتنا في حرس الملك.

رد لوران: لكننا بالفعل لا نثق فيهم.

- بالطبع لا نثق أيها الغبي، الأمر فقط أننا لا نريد استفزازهم الآن.

ثمَّ زفر بنفاد صبر وقال: قف أنت يا كالي، أما أنتما فاجلسا إلى جواري.

فوضعا أيديهما أمام صدورهما في رسمية، وجلسا إلى الكرسيين بجانبه، وبعد قليل دخلت خادمة صغيرة إلى القاعة واتجهت نحوهم في توتر ثم قالت: جلالته.. في الطريق إليكم...

ثم رفعت رأسها نحوهم ممسكة بإزارها بكلتي يديها قائلة: إذا احتجتم أي شيء فأعلموني.

فقال لها راين: بعض الماء من فضلك.

- علم يا سيدي.

وخرجت سريعًا ليدخل إلى القاعة بعد بُرهةٍ آخرون بأباريق من الماء البارد الذي كان مذاقه على ألسنتهم كالشهد؛ فهم لم يطعَموا أي شيء في الفترة الماضية غير طعام الضواحي، وماء الحانة الذي لا يزيد عن كونه سائلًا مجهول الكنه، ولم يأت لهم باردًا ولو مرة واحدة.

طفق الفرسان يشربون بنهم حتى أتى الخدم بأطباق حملت كعكات الليمون وكؤوس النبيذ العتيق فانغمسوا في حديقة النكهات القابعة أمامهم، أما راين فاكتفى بشربة ماء وقضمة من إحدى الكعكات ولم يقرب النبيذ أبدًا؛ فآخر ما قد يريده المرء هو أن يثمل أمام الملك.

ومرَّت الساعات حتى دنت الشمس من الغروب وقد لاحَ دمها في السماء، وعندها سمعوا جلبةً خارج القاعة، وعلت ضوضاء احتكاك الحديد بالأرض، وما هي إلا دقائق حتى فتح الباب فنفخ اثنان من الحرس الملكي أبواقهم قبل أن يوقفهم الملك بإشارة من يده.

دلف الملك أوبيرون إلى القاعة ومن خلفه حاشيته فكان مهيبًا بحق، فعلى الرغم من كبر سنه إلا أنه امتلك ظهرًا مستويًا كسهل نهري وانتشرت التجاعيد على وجهه فوشَت بعمر مديد، وفوق رأسه كان التاج الذهبي المطعم بالجواهر في تناسق مذهل، وأخذ يقترب منهم بقميصه الحريري الأبيض ومن فوقه المعطف الأرجواني الثقيل، وازدانت كتفاه بفرو ثعلب بري.

وعندما كان عند راين قال بودٍ مصطنع: راين، كيف حالك يا بني؟!

لم أرك منذ مدة.

كان راين قد نهض عند دخول الملك، ثمَّ انحنى قائلًا برسمية: بأتم صحة ورضا مادام مولاي بخير.

فقال له أوبيرون مشيرًا إلى كرسيه: دعكَ من الرَّسميات واجلس يا بني.

فعاد راين إلى كرسيه، أمَّا الملك فقد تقلَّد رأس المجلس وملأت حاشيته باقي الكراسي ومن خلفهم حرس الملك، وأخذ أوبيرون يداعب لحيته المدببة التي شذبت بعناية قائلًا: أتيتم مُبكرين يا بني، لا يزال الاجتماع بعد خمسة أيام.

فرد راين: حدث ظرفٌ خاص فاضطررنا للمجيء مبكرًا.

- لا يهم، المهم أنكم بخير.

ثم سكت برهة متناولًا كأسًا من النبيذ أمامه، وأخذ يرشفه، ثمَّ قال بعين لامعة: ولِمَاذا لَم يأت نيكولاس؟ أهو بخير؟

- إنه متعب جدًا، ولم يكن ليقدر على تحمل مشاق الرحلة.

- سأرسل له أفضل الأطباء والكهنة لو أراد.

- لا عليك يا مولاي، يكفينا اهتمام جلالتكم، بالتأكيد سيساعد هذا والدي في التماثل للشفاء.

أشار الملك لأحد الخدم؛ فاقترب منه وبدأ يهمس في أذنه، وبعد أن أنهي همسه أماء له الخادم إيجابًا، وترك القاعة بخطوات حثيثة، والتفت أوبيرون لراين قائلًا: غدًا نحتفل بوصولكم، وسيُعقد الاجتماع فور وصول ممثل الآدوراي، أمَّا الآن فسأدعكم تستمتعون بوجبة خفيفة.

ونهض بتثاقل قائلًا: واعذرني لأني لن أُشاطركم إيَّاها؛ فهموم المملكة تثقل كاهلي.

وأخذ يجرُّ قدمه حتى وصل لكرسي راين، ثمَّ غمغم: لم أستطع منع نفسي من الترحيب بكم شخصيًا.

وتابع ضاغطًا على حروفه: هذا إن كنت تتساءل عن سبب مجيئي وإن كنت سأغادر سريعًا.

فردَّ راين دون أن يدير وجهه له: بالعكس يا سيدي، إنه لشرف أن يستقبلنا جلالة الملك بنفسه.

خفض أوبيرون رأسه لأذن راين وهمس مستنكرًا: دعك من المجاملات يا ابن فالكون؛ فأنا أعلم أنه خلف عبارات الاحترام والتقدير، تلك أمنيات هلاك لا أكثر.

فآثر راين السكوت في هذه اللحظة، وملأ التوتر الأجواء، وتعالت الهمهمات بين الحاشية على طرف المائدة حتى أدار أوبيرون ظهره لهم ضاحكًا بصوت عالٍ، ثم قال: أراكم في وليمة الغد.

ثم أتبعه حراسه وبعض حاشيته التي كانت تلازمه كظله، وأتى الخدم بصحون الطعام والذي لم يكن وجبة خفيفة على الإطلاق كما وصفها أوبيرون، أو أنه اعتاد الترف لدرجة تجعل عجلين مشويين والعديد من الأصناف الجانبية بالنسبة له وجبة خفيفة.

أكل الفرسان حتى ملأت بطونهم، ثمَّ وجههم الحرس خارج القاعة الكبيرة، إلى الجناح الخاص بالمبيت عبر سلم علوي؛ فدلف كل منهم إلى غرفته، وأخذ راين يرمق السرير الواسع ذا الفراش الحرير الناعم الثقيل ووسائده الريشية العريضة، ثم ملأ صدره بالهواء البارد متناسيًا الحانة وما قاساه فيها من حياة غير آدمية، ووثب نحو السرير فغاص بين الفُرُش والوسائد بسعادة متناهية لم تدم طويلًا؛ فسرعان ما اجتاحه قلقٌ شديد فهُم الآن في عش الدبابير كما كان يحب نيكولاس وصف القصر، وبدأ يشغل باله بمعرفة تفاصيل وراثة العرش، وكيفية دعم فيورا كما أوصاه نيكولاس، وتذكَّر كلمات جون له في الحانة فسأل نفسه: أمن الصواب فعلًا دعم فيورا؟

ثم أزاح هذا الخاطر عن باله مُعللًا ذلك بأن فراسة والده لم تخطئ أبدًا، ثمَّ بدأ بترتيب أولوياته فوضع نصب عينيه معرفة النبلاء والسادة الذين

يقفون في صف فيورا، وأولئك الذين يدعمون تورون، والأهم ما رأي الملك في ذلك.

ومرت ساعات الليل، وفي الصباح استيقظ على صوت طرقات الباب الخفيفة؛ فنهض متجهًا نحو الباب نصف منتصب، ثم فتحه ليجد أحد الخدام أمامه.

انحنى الخادم للأمام قليلًا، وقد مدَّ يده حاملًا رسالة في يده، وقال: هذه الرسالة لك يا سيدي.

فتناول الرسالة منه شاكرًا إياه، ثمَّ عاد إلى ظهر فراشه الناعم.

أخذ يرمق الختم الشمعي عليها فإذا به ختم فالكون؛ فاعتدل في جلسته وفضَّ الختم، ثمَّ بدأ يقرأ فحوى الرسالة.

هامت عيناه بين الأحرف على الورقة حتى انتهي من الرسالة التي كان نيكولاس هو مرسلها، وكان فقط يطمئن على حال راين والباقين، ويسأله أن يكتب له حال وصوله إلى القصر، وزفر راين في عدم ارتياح وقد سئِم معاملة والده له كطفل في مهده، أفلا يكفيه أنه يمثل الإقليم في حدث مهم كهذا ليستوعب أنه لم يعد طفلًا صغيرًا؟!

تناول راين ورقةً خاوية، وأخذ يكتب عليها مطمئِنًا نيكولاس على حاله، ولم يذكر له ما حدث مع جون ثمَّ أرسل الرسالة بنفسه.

مرَّت سويعات الصباح سريعًا وقبل حلول الظهيرة، وكان راين قد تألَّق بسترته الحريريَّة ومعطفه المخملي، وخرج من غرفته عبر الرواق الممتد بين الغرف فوجد فرسانه الثلاثة عند نهاية الرواق منتظرين، تقدَّم

راين ومن خلفه الفرسان حتى خرجوا من جناح المبيت، وقبل أن يبلغوا السلم المؤدي للطابق السفلي ـحيث قاعة الطعامـ كان هناك فارس ذا درع قرمزية، ومعطف مخملي أبيض، كان المعطف ثقيلًا، ولربما كان محشوًا ببعض الألياف حيث يزيد سمكه، وزاد طوله حتَّى جر الأرض من خلفه، وثبت بإحكام بدبوس اتخذ شكل العنقاء.

تقدم نحوهم بشعره الرمادي الطويل، وقال بوجه بشوش: مرحبًا بك يا سيدي، لقد كلفني جلالته اليوم باصطحابكم في جولة ترحيبية حول القصر.

ثم سكت الشاب قليلًا، وقال بأسف مصطنع: أنا محرج جدًا منك يا سيدي؛ فأنا لم أرحب بك عند وصولك ليلة أمس.

ارتسمت علامات التعجب على وجه راين والفرسان من خلفه؛ فقال الفارس مستدركًا: اعذرني يا سيدي، لم أُعرف عن نفسي.

وأشار بفخر إلى طائر العنقاء الرهيب المصاغ من الكهرمان على صدر درعه، وقال: أدعى رولون أفالون، ابن السيد رامون أخ الملك.

وهنا اختفت ملامح التعجب من وجه راين؛ ففي البداية لم يربط بين شعر الشاب الرمادي وطائر العنقاء المدقوق على درعه، فلطالما اشتهر آل أفالون بشعورهم الذهبية المنطفئة كسنابل القمح ماعدا ما شذَّ منهم، ثم تذكر أن السيد رامون كان قد تزوج منذ أمد بعيد بالسيدة لين نيكس ابنة أحد أكبر عوائل أتروبوس، والذين لقبوا بالملوك البيض لامتيازهم بالشعر الأبيض والرمادي.

قال كالي مستفهمًا: هل لك أن تشرح لنا تلك الجولة الترحيبية؟!

- سنتناول وجبة الإفطار وبعدها سنحضر سباق الخيول في المضمار الملكي المقام على شرف سيادتكم، وبعدها نعود للوليمة الكبرى مع جلالة الملك.

كاد كالي أن يطرح سؤالًا آخر قبل أن يقول راين مادًا يده نحو رولون: إذًا، نحن تحت رعايتك اليوم.

فصافحه ببشاشة واتجهوا نحو قاعة الطعام، ولم يكن الإفطار أقل بذخًا عن الوجبات الخفيفة التي تناولوها البارحة، وبعد أن أفطروا سريعًا خرجوا من دار الضيافة عبر حديقة القصر الواسعة إلى المضمار الملكي، القابع في ركن حرم القصر الأيمن.

كان نظام سباق الخيول تقليديًا نوعًا ما؛ فكانت الخيول تصطف أمام المدرج الذي يجلس عليه السادة حتى يعطيهم المشرف إشارته لينطلقوا حول حرم القصر الفسيح في مسار محدد، وأول من يُكمل خمس دورات ينال شرف الفوز في السباق، كان السادة والفرسان محتشدون عند المنصة المُقامة عند نقطة البداية، وقد جلس كل منهم في مكانه المخصص له.

أما راين وفرسانه الثلاثة فقد خصِّصت لهم أربعةُ أماكن في منتصف المنصة وإن لم يحب الفرسان الجلوس على أية حال؛ فتركوا راين جالسًا، وعلى يساره رولون، وخلفهم وقفت روز لوران، وعلى يمين

الصف الذي تلاه وقف كالي، وبدأ السواد الأعظم من السادة يُحي راين لكنه لم يستطع تجاهل النظرات المشمئِزة التي رمقه بعضهم بها.

التفت راين نحو المضمار ليتابع السباق فكانت الجياد لا تزال تجهز للبدء، ولاحظ راين أحد الأحصنة وشدَّ انتباهه بلونه الفحمي المميز الذي لمع مع ضوء الشمس، كان حصانًا جبارًا وبدا فارسه يجاهد؛ كي يُثبت على ظهره ولمح راين في عينيه نظرة عند وتمرد على قائده، وقبل أن يبدأ السباق سمع صوتًا عن يمينه يقول: أيعجبك هذا الحصان؟!

تجمَّد في مكانه إثر سماعه للصوت، ثمَّ التفت كالملسوع فإذا به السيد هنري تورس مستشار الملك، وكانَ السيِّد تورس يملك نبرة صوت قِيل أنه استعارها من أحد الشياطين؛ فقد حوى صوته بعضًا من خُبث فحيح الأفعى وغدر عواء الذئب، وبدأ التوتر يغزو راين قبل أن يحرك ذلك المُسن شفتيه؛ لتلتقط أُذنا راين بصعوبة صوته وسط ذلك الخليط المرعب قائلًا: برأيك من سيفوز؟!

فأسرع راين مشيرًا نحو أحد الأحصنة، والذي لم يكن الحصان الفحمي، ثمَّ قال: هذا.

- لماذا تعتقدُ ذلك؟

- إنه متزن عن غيره، وفارسه يبدو واثقًا أكثر من البقية.

فغمغم هنري باستنكار: ساذجٌ كأبيك.

لم يكن راين أو أي شخص عمومًا ليُعلق على إهانات هنري؛ فالرجل معروفٌ بلسانه اللاذعة وانتقاداته التي تصيب كالسياط، والتفت هنري نحو المضمار قائلًا: أترى الحصان الفَحمي الذي شدَّ انتباهك سابقًا؟

فأومأ راين له إيجابًا قبل أن يُتابع هنري: سيفوز بكل تأكيد، انظر إلى عينيه، إنه عزيز النفس.

ثمَّ تابع بأعين ملتمعة: ذلك لن يقبل الهزيمة أمام أحد مهما كان الثمن.

والتفت سريعًا إلى راين متحمسًا بعين مفتوحة وقال: أترين أن نتراهن؟

فرد راين ناظرًا نحو الجياد: لست مهتمًا بهذا النوع من المسابقات على كل حال.

قهقه العجوز بضحكاتٍ عالية حتى أن أعين السادة قد نقلت نظرها إليهم، ثمَّ قال بسخرية: شريف كأبيك.

وارتَفعَ صوت الأبواق؛ فأسكت جميع الهمهمات، ثمَّ أشار المُشرف لهم بيده فانطلقت الخيول في مساراتها كالطيور الجارحة، ومرَّت دقائق عدة تناوبت فيها الأحصنة على المُقدمة، وانتَهت الدورة الأولى بتقدُّم الحصان الذي كان راين قد توقَّع فوزه، وكذلك كان الحال أيضًا في الدورة الثانية، ونَظر راين إلى هنري بطرف عينيه فلم يلمَح عليه أيَّة علامات امتعاض أو قلق، وفي الدورة الثالثة تقدَّم حصانٌ آخر واعتلى المقدمة إلا أن الحصان الفحمي لا يزال في ذيل السباق.

حتى بدأت الدورة الأخيرة وبدأ الحصان الفحمي بالتقدم رويدًا واقتربت الدورة من النهاية؛ فأخذ الحصان يصهل بشدة، وبدأ فارسه

يترنَّح من فوقه حتى نفض الحصان ظهره دفعة واحدة فسقط الفارس أسفله لتسحقه أقدام الخيول من خلفه، ثمَّ طار كالسَّهم متجاوزًا الجميع، فائزًا بالسباق كله.

مال هنري على راين هامسًا في أذنه: ألم أقل لك.

ونهض تاركًا المكان بضحكات متعجرفة.

التفت رولون إلى راين قائلًا: لا عليك، إنه هكذا دائمًا، يحبُّ العبث مع ضيوف جلالته.

ابتسم راين ابتسامةً خفيفة قائلًا: أعلم ذلك.

وعندما حان وقت تسليم الجوائز اعتبر المشرف فعلة الحصان الفحمي نقدًا لقواعد السِّباق ففاز الحصان الذي توقع راين فوزه، وعندما بدأت السَّماء تضع حلتها الليلية كان رولون قد قاد راين وفرسانه نحو مدخل القصر الرئيسي حيث قاعة الاحتفالات وغرفة العرش وغيرها من المرافق، وبمنتصف المبنى برجه المهيب، واكتسى بلون أبيض كالسحب وأعمدة ذهبية، وقد علت أصوات أقدام الفرسان على الرخام اللامع.

وأمامهم كانت بوابته الخشبية العملاقة التي دقَّ عليها شعار الأفالون بطريقة الحرق على الخشب لكنه لم يخل أيضًا من المعادن النفسية، ونادى رولون على حرس البوابة ففُتحت لهم كاشفةً عن ساحة رخامية عملاقة، ذات أطراف زرعت بشتى أنواع الورود، بمنتصفها سلم

عريض كان يؤدي إلى الطابق الأعلى حيث حجرة العرش وجناح الملك.

اصطفَّ أمامهم صفٌ من الخدم وحاملي الدروع، منحنين أمامهم في تعظيم وإجلال.

قال رولون مشيرًا لهم: سيكونون في خدمتكم طالما أنتم في قصر الملك.

وتقدَّمت إحدى الخادمات قائلة: سيدي، إذا سمحت لي.

فأشار لها رولون أن تُفصِح عما تريد فقالت: عندما سمعت مولاتي الأميرة أن أحد حرس سيدي من الإناث طلبت أن تأتي إلى جناحها الخاص قبل المأدبة.

كانت ترمي بكلامها إلى روز؛ فبالطبع كانت لتثير انتباه أي أحد ليس الأميرة فحسب، فمن النادر أن ترى أنثى تحارب في صفوف الفرسان فضلًا عن أن تكون أحد حرس أكبر عوائل المملكة.

قالت روز باقتضاب: مكاني هنا مع سيدي ولن...

فقاطعها راين قائلًا: اذهبي يا روز، فمن المشين أن ترفضي دعوة جلالتها.

- لكن سيدي....

فنظر لها نظرة حادة وقال: فلتذهبي معها.

- علم يا سيدي، إن كان هذا سيرضيك.

فتقدَّمت الخادمة إلى سلم جانبي في ركن الساحة الأيمن قبل أن تتبعها روز، أشار رولون نحو قاعة الطعام في ركن الساحة الأيسر قائلًا: من هنا يا سادة.

فتحركوا حتى ظهر باب كان قد اختبأ خلف السلم العريض من منتصف الساحة، كان بابًا غريبًا رسمت عليه رموز وصور لكائنات غريبة وقد شد ذلك انتباه كالي جدًا؛ فلاحظ راين ذلك فقال: خلف ذلك الباب متحف الملك حيث أسلحة الملوك القدامى، وبعض الآثار من الحرب العظمى.

رمق رولون راين بنظرة إعجاب قائلًا: أرى أنك على اضطلاع بالمكان.

فردَّ راين بعفوية: لا تنس أنني كنت آتي إلى هنا مع والدي كل اجتماع تقريبًا.

وما إن اقتربوا من قاعة الاحتفالات التفت لهم رولون قائلًا: حسنًا يا سادة، لا نريد إضاعة وقتكم أكثر من ذلك فلا بد أنكم جائعون.

وأشار نحو الباب قائلًا: تفضلوا.

سخر كالي وغمغم متهكمًا بصوت غير مسموع: لا بد أنهم ينوون ذبحنا لبيع لحمنا، لم يفعلوا شيئًا سوى إطعامنا منذ أن وصلنا.

كانت قاعة الاحتفالات قد ماثلت أختها في دار الضيافة لكنها كانت أوسع وأكثر هيبة، غير أنَّ توزيع الجالسين قد اختلف هنا بعض الشيء فكانت هناك منصة في نهاية القاعة على بقعةٍ أعلى، مطلة على باقي الحضور وأمامها طاولة ضخمة، وخلفها قبعت عدة كراسي، توسطها

كرسي أكبر مطعم بالذهب وأكثر هيبة من البقية، وأمَّا باقي القاعة فقد وزعت فيها طاولات ومقاعد لباقي الحضور.

استقرَّ راين على مقعد بجانب مقعد الملك، وخلفه وقف كالي ولوران، ثم بدأت القاعة تمتلئ شيئًا فشيئًا بالحاشية.

وما إن امتلأت القاعة عن آخرها _ولم يعد هناك شبر إلا وفيه طعام أو من يأكل طعامًا_ دلف الملك إلى القاعة عبر باب خلفي وراء راين، واعتقد راين أنه متصل بحجرة الملك بطريقة ما كيلا يضطر للسير بين الحشود.

اقترب أوبيرون من كرسيه، وبوجه يقطر حكمة ووقارًا حيَّا الجميع، وأنزلت الأطباق الرئيسية تباعًا من اللحم المشوي بالعسل، والجبن المعتق وغيرهما من أصناف الطعام المميزة حتى أن المائدة قد حوت أيضًا بعض الأطعمة البحرية، وفكَّر راين لوهلة أن حفلًا واحدًا كهذا كفيل بإطعام الضواحي كلها لعدة ليالٍ؛ فطبعت بعض علامات الامتعاض على وجهه.

سمع صوت أوبيرون الرخيم يتسلل إلى أذنه قائلًا: أعلم ما تفكر فيه.

وأشار بطرف إصبعه لمائدة في ركن القاعة البعيد، وكانت أصغر الموائد ثم قال: نصف هذه المائدة ربما كان ليسكت جون فقراء الضواحي هذه الليلة.

زاد حنق راين وقال: ولما لا تمنُّ عليهم حتى بفتات هذه الموائد؟

رد أوبيرون بعفوية قائلًا: لأنهم يجب أن يبقوا فقراء، هذا هو سلم المجتمع يا بني.

ثم احتسى شرابه من كأسه قائلًا: أترى هُؤلاء النبلاء أمامك؟ لماذا في رأيك يؤيدون رجلًا مثلي؟

سكت راين فرد الملك على نفسه قائلًا: لأني أشعرهم بقوتهم، أشعرهم بأنهم منبع قوتي، والحقيقة أبعد ما يكون عن ذلك.

ثم زفر قائلًا: باختصار، إذا لم يوجد الفقير فلن يوجد الغني.

فقال راين برصانة: وإن لم توجد رعية فلن يوجد حاكم.

وقبل أن يشعر راين بنشوة انتصاره في هذا الجدال قال أوبيرون بابتسامة حادة: لذا أبقيهم على قيد الحياة.

عندها علم راين أنه لا يتعامل مع عجوز طائش كما كان يعتقد؛ فما هو الآن إلا أمام شيطان ماكر، يحسب كل خطوة جيدًا قبل أن يخطوها، إن ملكًا بتلك الصفات يصعب التنبؤ بما قد يفعله وهو ما أقلق راين كثيرًا.

أطلق البوق وفتحت البوابة فعلت الهمهمات بين الحضور، كان الأمير تورون على مشارف القاعة بطوله الفارع ومنكبيه العريضين، وأخذت ملامحه الحادة وشعره الذهبي يبثَّان شعورًا بعدم الاطمئنان في نفس راين، وتقدم تورون بدرعه التي اكتست باللون الذهبي من رأسه وحتى أقدامه وقد ارتدى فوقه معطفًا أبيض ثُبِّت بدبوس زمردي لامع، وخلفه احتشد حرسه وحاشيته الخاصة والتي كان أوبيرون يلقبها متهكمًا بالرفقة اللعينة.

أخذ يشق طريقه بصدر منتفخ، ماشيًا بخيلاء لا حدود له وكأنه يشك في قدرة الأرض على حمله من الأساس، لكن الحقيقة معروفة فالرجل لم يفعل شيئًا سوى استغلال مجد أبيه، هذا إن كنت تسمي أفعال أوبيرون مجدًا من الأساس.

وما إن مثل أمام المنصة خلع خوذته قائلًا: لقد عدت من الصيد يا أبي.

رفع الملك كأسه متحاشيًا النظر إليه وقد وشت معالم وجهه بازدراء شديد لم يبذُل أي مجهود في إخفائه، ثم اعتلى تورون صدر المجلس متخذًا من المقعد الآخر المجاور لأوبيرون مجلسًا له، ولم يحي راين ولو حتى بإيماءة وقد عرف عنه كرهه الشديد لآل فالكون الذي يضاهي كره أجداده الأوائل لهم.

وسرعان ما نفخ البوق للمرة الثالثة، ثم فتحت البوابة فانفرجت أسارير وجه الملك وتسارعت دقات قلب راين حتى شعر أنه يكاد يختنق، كانت الأميرة فيورا هي من دلفت القاعة بفستانها الذي خيط من الإستبرق السماوي، وشعرها الذهبي المنسدل على كتفيها، واستحقت أن يفسح لها الجالسون ممرًا في المنتصف وقد وقفوا احترامًا وتبجيلًا.

ومن خلفها خرجت روز فسمع راين صوت شهيق لوران قد أتى من خلفه، سحرت روز الجميع بشعرها الأحمر القصير، وفستانها الشبيه بفستان فيورا لكنَّه قد اصطبغ بلون وردي باهت، تقدَّمت روز بضع خطوات ثم أمسكت بطرفي فستانها ورفعته قليلًا مُقدمةً قدمًا خلف الأخرى في محاولة منها أن تحيي الحضور كفتاة نبيلة، رغم أن عدم

إتقانها لذلك بدا واضحًا جليًا، وحتى أنها أثناء تقدمها كانت تعاني من المشي بسبب الحذاء ذا الكعب العالي؛ فأمسكت بمرفق فيورا أغلب الوقت، وتقدمتا سويًا حتى بلغتا صدر المجلس ثم انحنتا.

قال الملك بوجه بشوش: ابنتي العزيزة.

ضيَّق تورون عينيه، وأشاح نظره عنها باصقًا على الأرض بازدراء قبل أن يشير الملك نحو روز قائلًا: أليست تلك أحد ضيوفنا؟

فقالت فيورا: بلى يا أبي، إنها روز أحد حرس السيد راين.

كان وجه روز يكاد ينفجر احمرارًا من شدة الإحراج فحياها الملك، ثم صعدا سويًا إلى المنصة فجلست روز بجانب راين وبجوارها كانت فيورا، ونظر لها راين بإعجاب قائلًا: لم أعرفك يا روز، تبدين جميلة حقًا.

وارتفع صوت العازفين بإيقاع صاخب قبل أن تميل روز على أذن راين بجدية، روز الفارسة التي تناسها راين فور ارتدائها لملابس النبلاء، ثم قالت: سيدي، هنالك ما يحب أن تعلمه.

فأشار لها بأن تكمل حديثها فقالت: ليس هنا.

فنهض راين مبتعدًا عن المائدة، واقفًا في الركن البعيد خلف المنصة فتبعته روز بخطاها المعوجة، والتي ما إن مثلت أمامه مالت عليه قائلة: إنهم يخططون لقتل الأميرة.

فتسارعت دقات قلب راين، واندفعت الدماء في عروقه التي انتفخت معلنةً عن غضبٍ صارخ، ثم قال كاتمًا صوته: من الذي يخطط؟!

كيف عرفتِ ذلك؟

شعر راين بنظرات فيورا الغيورة ترمقه فابتعد قليلًا عن روز التي تابعت بصوت خافت جاهد راين ليسمعه وسط العزف: عندما اصطحبتني الخادمة لجناح الأميرة استأذنت منها في الطريق لأذهب لقضاء حاجتي؛ فدلتني على المكان، وبعد أن فرغت تهت في أروقة القصر وأخذت أتخبط بين الطرقات حتى سمعت صدى صوتٍ مكتوم آت من إحدى الغرف؛ فاقتربت علَّ أحدهم يساعدني، وقبل أن أفتح فمي سمعت أحدهم يقول نصًا: ضعه في طعام الأميرة، وأعدك بمكافأة مجزية.

ليرد عليه شخص آخر: أرجوك يا سيدي، إن هذا مصدر رزقي الوحيد ولو اكتشف أمرنا لأضجعن بين جنبات الضواحي.

فصدر صوت الشخص الآخر الذي وضحت معالم صوته أكثر وبدا صوتًا عجوزًا: لا تقلق، كل شيء مدبر بإحكام، فقط ضعه في طعام الأميرة ودع الباقي علينا.

كان راين يستمع إلى حديث روز متجمدًا، ثم قال باقتضاب: يجب أن نخبرها.

وقبل أن يهم بالعودة إلى الطاولة أمسكته روز قائلة: لكني فعلت يا سيدي.

فالتفت لها راين متعجبًا فقالت: بعد أن سمعت حديثهم عبرت الرواق بخطوات حذرة خشية أن يدركوا مكاني، ثم أخذت أهيم بين جنبات القصر حتى تعثرت في إحدى الخادمات والتي اصطحبتني للأميرة،

وعلى الفور أخبرتها بكل شيء فقالت لي أن أمورًا كهذه من الطبيعي أن تحدث في البلاط.

قال راين وقد بلغ الغضب منه مداه: أمور كهذه!!

وتابع في نفسه: هذه المعتوهة!

كيف تجلس مطمئنة هكذا وهناك من يدبر لقتلها.

ثم تحرك سريعًا، تاركًا مكانه القديم بجوار الملك وقد جلس إلى جانب فيورا، ثمَّ مال ناحيتها، وقبل أن يهمس أومأت له فيورا بأن يصمت قائلة: أعلم كل شيء في القصر هنا، أنا الأميرة فيورا ابنة ملك أتروبوس، ولست طفلة في الرابعة من عمرها لتقلق عليها.

فأرجأ راين ظهره إلى الكرسي بتعجب وقد نسي وجهها الخشبي الذي طالما ارتدته أمام السادة والنبلاء؛ فالفتاة الظريفة البريئة لا تظهر إلا أمام راين وحده، وكل ما عدا ذلك فهي ابنة أفالون الوقورة فحسب، وجاء الخدم حاملين صحون طعامها بتوجس قبل أن يعود كل من روز وراين إلى أماكنهم، وقبل أن تأكل فيورا شيئًا من أمامها قام أحد الجالسين وكان ذا ثياب لا تناسب مظهره الرث؛ فأقل ما يُقال عنه أنه أطلال إنسان بين أقمشة فاخرة.

أخذ يجرُّ قدمه نحو المنصة والجميع يرمقه بذهول قبل أن يقف بجوار الأميرة آخذًا رشفة من كأسها وقضمةً من كل طبق أمامها في توتر جلي، وشعر راين بالارتياح فور رؤيته للرجل؛ فقد استعانت فيورا بذواقة ولذا كانت مطمئنة جدًا أثناء جلوسها، لكنه أيضًا لاحظ بعض الوجوه

المتجهمة بين الحضور وهي ترمق الرجل يضع نفسه حائلًا بين الأميرة وبين أي سم قاتل قد يدس لها، وبعدما انتهى تمامًا أخذت يداه ترتجفان رعبًا، ولم تمر بضع ثوانٍ حتى أطلق الرجل صيحة مكتومة وسقط أرضًا وأخذ يمد يده للهواء وقد أمسك عنقه باليد الأخرى، وأخذ يتقلب حتى برزت عروق رقبته وبدت علامات الاختناق عليه، ثمَّ ارتخت يده شيئًا فشيئًا قبل أن يطلق صوتًا متحشرجًا معلنًا مفارقة الحياة لجسده.

صمت الجميع في ذهول وقد وقف بعضهم من مجالسهم نصف وقفة، كانوا كمن ينتظر شبح الموت ليُغادر المكان، وبدت تعابير الحشد أمام المنصَّة متباينة؛ فبعضهم قد جمدته الصدمة والبعض الآخر قد أخفى علامات امتعاضه، وهناك من أخذ يراجع حسابات السياسة.

نهض أوبيرون من مجلسه وقد برزت عروق وجنته واحمرَّ وجهه قبل أن يهدر ضاربًا المائدة بيده: محاولة اغتيال لابنتي وفي قصري... بل في حضوري!!

وبعكس أوبيرون فقد كظم راين جامِّ غضبه واكتفى بنظرةٍ واحدة لفيورا فهمت كنهها، كانت عيانها تصدران شرارة لو سألتني.

التفت أوبيرون إلى قائد الحرس في الصف الأول أمام المنصة، وصاح بصوت هز أركان المكان: أغلقوا أبواب القصر، وشدِّدوا الحراسة على قطاع المُلك.

ومال بظهره للأمام قائلًا: لا أريد أن يدخل أو يخرج أحد دون إذن مني.

اقترب منه السيد تورس قائلًا بصوت خافت قد فاض لؤمًا: لكن سيدي، أين سيبيت كل ضيوفك؟!

وأشار إلى الساحة أمام المنصة قائلًا: كما تعلم، فلقد دعونا أكبر العوائل في العاصمة بل أكبر التجار في قطاع الحدادين أيضًا، نحن لا نملك مكانًا لكل هؤلاء.

فزمجر أوبيرون فيه قائلًا: وزعهم على دار الضيافة، وجناح الأميرة، واجعل الخدم في الإسطبلات.

انحنى تورس وقد ضم يديه إلى بعضهما أسفل ذقنه قائلًا: كرمٌ من مولاي.

في الوقت ذاته كان تورون قد ترك مكانه، مُسقطًا كرسيه من خلفه، وأشار إلى حامل دروعه من وسط الحشد فتواثب سريعًا كي يصل إليه بخفة قبل أن يرفع تورون له يده بقدح خشبي؛ فتناول الفتى إبريقًا من النبيذ وملأه عن آخره، ثمَّ تراجع بضع خطوات للخلف في رعب لن تصفه الكلمات، أخذ يرشف الكأس بعجرفة لو كان لها لونٌ لصبغت الفضاء من حوله، وقد اعتاد أن يبدو غير مبالٍ بأي مما حدث.

وبعد أن انتهى الكأس ألقاها أرضًا، ثم غمغم بخفوت: لو ماتت لأراحتنا جميعًا.

كان صوته خافتًا لكنَّ تعابير وجهه الممتعضة كانت كافية بالنسبة لراين ليفهم ما يدور.

قال في نفسه: إنه الجحيم بعينه.

تمنَّى لحظتها لو يعود إلى أماليثيا فكم كانت الحياة بسيطة هناك!

إنَّ القصر هنا كما وصفته فيورا له من قبل، وحوشٌ بين جلود بشر، تحالفات في الخفاء وخيوط تحرك خيوطًا تتحكم بمصائر الناس.

نظر نحو السادة ومعاونيهم في الساحة أمامه وشعر أن النار كانت لتلتهم المكان لو أن الكراهية قابلة للاشتعال، التفت راين نحو فيورا وسألها بود: أمتأكدة أنكِ لم تقربي شيئًا من الطاولة؟!

ردت سريعًا دون أن تلتفت إليه: لو أني فعلت لكانت حصيلة الليلة جثتان.

ثمَّ رمقت جثة الذواقة في أسىً بالغ، إنَّهم لا يمتلكون مصائرهم، مُتخلفون عن ديونهم وقد تراكمت الضرائب عليهم جبالًا من العملات المستحقة للملك، ورافضون للعمل في أرض الحديد، وهم مستعدون لفعل أي شيء لكسب المال؛ فالضواحي بالفعل بيئة خصبة للمرتزقة واللصوص والقتلة المأجورين، ولربما كانت مهنة الذواقة أكثر السبل شرفًا لقضاء الديون، وللخروج سريعًا من هذه المدينة الملعونة، ولو سألت أحدهم لماذا قد يقدم على عمل مجنون كهذا لصاح فيك أن هذا أفضل مائة مرة من التعفن داخل جدران العاصمة.

توجَّه راين نحو الملك وهمس في أذنه: أرى أن تحتجز سريعًا كل من في المطبخ، أو حتى مروا عليه قبل أن نوجه الشك نحو أحد من السادة.

لم يلتفت له أوبيرون لكنه قال بصوت خفيض كصاعقة رعدية مكتومة: أتعتقد أنك ستعلمني ما عليَّ فعله؟!

همَّ راين بالاعتذار وتوضيح شرف مقصده لكنَّ الملك قال زاجرًا: كل من في القصر مشتبهٌ به.

ثمَّ سكت لوهلة وأكمل: والآن عُد إلى مكانك قبل أن أجعلهم يبدأون التحقيق بك.

فتسرَّب الرعب إلى راين إثر نبرات العجوز الواثقة الجادة، وعاد إلى مجلسه في توجس وهو لا يقوَى على رفع نظره إلى أوبيرون ولو للحظة، وفي تلك الأثناء وعلى الطرف الآخر في دار الضيافة كان أحدهم قد تسلَّل إلى جناح المبيت الخالي تمامًا قبل أن يعود أيُّ أحد له، ثمَّ مرَّت الساعات حتى تأكد أوبيرون من أن الجميع قد وجدوا مكانًا للمبيت فصعد إلى غرفة عرشه وأمر ألا يدخل عليه أحد، أمَّا فيورا فقد أرسلت في طلب ذواقة جديد بالإضافة إلى طباخ خاص، ونبَّهت على معاونيها أن يحضروا مؤنًا منفصلة خاصة بها، وفضَّلت لو يأتوا بها من الضواحي، فمن قد يتوقَّع أن أميرة البلاد قد تأكل من تلك النباتات التي لا تعرف عن الخضر شيئًا سوى لونها، ثم أعيد راين والفرسان إلى غرفهم وقد مُنِع الجميع من الخروج من غرفهم؛ ليستقروا على الفاعل.

***

جون

كان جون قد ترك راين وباقي الفرسان في المستودع ثم جالي بين طرقات قطاع الحدادين قبل أن يدلف إلى أحد الحانات الرديئة واستأجر فيها غرفة لليلة واحدة.

كانت الغرفة لا تختلف كثير عن أختها في حانة الضواحي العتيقة غير أنها زُوِّدت ببعض الأفرشة الثقيلة الخشنة.

جلس إلى سريره وأسند ظهره إلى الحائط من خلفه وقد ضم ركبته إلى صدره وبدأ عقله يغرق في ألف سؤال وسؤال.

من الذي يريد قتله؟ أهي فيورا كما كان يظن أم هناك أحد آخر غير الأفالون يريد ذلك؟

وأخذ يعيد مجريات الأيام السابقة تباعًا حتى سأل نفسه سؤالًا: أأكون قد علمت شيئًا من المفترض ألا أعلمه؟

ولكن ما الذي يمتلكه قد يكون سريًا للدرجة التي تدفع أحدهم لوضع جائزة كبيرة كتلك على رأسه، بل وطلبه ميتًا على وجه الخصوص، أي أن واضع تلك الجائزة يريد التخلص منه في أسرع ما يمكن، أخذَ يهيم في أسئلته وذكرياته حتَّى مال على الفراش الخشن تدريجيًا، وقبل أن يدرك كان النوم قد نال منه، وفي أثناء نومه غاص في طبقات من الظلام الدامس الذي بدأ يخنقه شيئًا فشيئًا وقد تجمَّد في مكانه غير قادر على الحركة، ثمَّ سمع صوتًا مكتومًا تسلَّل من خلف الظلام، ولمَّا وصل إلى أعتاب أذنه كان مألوفًا له.

صاح الصوت من بعيد قائلًا: أرجوكم، أنا لم أفعل أي شيء.

فأحس جون أخيرًا بقدرته على تحريك أطرافه، وشعر بنفسه يسبح في الفضاء حتى اقترب من الصوت ليرى صورةً مشوشة لريتا أخذت تصيح: لا تفعلوا لها شيئًا، سأفعل كل ما تريدون لذا اتركوها أرجوكم.

كانت راكعة على أرض طينية كان جون يعرفها جيدًا ومن حولِها رجال ذوي ملابس بيضاء فضفاضة بدا الكبر على أغلبهم، وتقدَّم أحدهم نحوها ثم ركلها بعنف فانهال الباقون تباعًا عليها بالسب والركلات، وتبدَّل المشهد أمامه لتظهر والدة ريتا السيدة تانية بوجهٍ ذابل كما تركها جون آخر مرة وقد أمسك بها اثنان من الرجال البيض، وتقدَّم ثالث نحوها وقد حمل في يده خنجرًا أخذ يُقلبه بين يديه بخفة.

أخذت ريتا تزحف عبر الطين صائحة: أرجوكم لا تفعلوا، أرجوكم.

قبل أن يشقَّ الرجل عنق تانيا بطعنةٍ نجلاء وتخرَّ أرضًا؛ فارتفع صوت ريتا بالنحيب، واقتربت من جثة والدتها التي أخذت تنزف بغزارة ووضعت يدها على رأسها قائلةً بصوت خنقه البكاء: أمي.

ورمقت عينها المفتوحة فوجدتها منطفئة تمامًا بلا نور، واقترب رجل عجوز ذا ظهر محني وقد أفسح له الرجال طريقًا نحوها، وبسبب تغطيته لكامل رأسه بقلنسوة لم يستطع جون تبين ملامح وجهه، وتأمل ريتا لهنيهة ثم قال: خذوها.

اتجهوا سريعًا نحوها، وضربها أحدُهم ضربة سريعة وشديدة الدقة أسفل عنقها فغابت تمامًا عن الوعي، ثمَّ حملوها خارجين من المكان،

وهنا استيقظ جون غارقًا في عرقه، ثمَّ أخذ يمسك رأسه بيده في رعب شديد، وقام فجذب إبريقًا من الماء وأخذ يشربُ منه بفزع حتى أنه أسقط من الماء أكثر مما شربه، وودَّعت عيناه في حزن وهو يقول: وأنا الذي كنت أظن أنها فقط لم تعتد تهتم لأمري!

بالفعل كان جون قد بدأ مراسلتها بعد عودته إلى أماليثا فأخذت ترد عليه مرات تلو الأخرى حتى بدأت رسائلها تتباعد قبل أن تنقطع نهائيًا، ولم ييأس جون فلم يفوت مناسبة إلا وأرسل لها لكنها لم تكن ترد عليه أبدًا، وبعد عدَّة مرات أحسَّ بآلامٍ في كرامته، وظنَّ أن الفتاة قد سئمت سؤاله المتكرر عنها وفقدت اهتمامها به فكرِه أن يفرض نفسه على من لا يريده وقرر أن يحاول نسيانها تمامًا إلا أن ما رآه الليلة ليس بالأمر الهين؛ فلو صحَّت رؤياه فريتا في خطر داهم ليس الآن وليس منذ عدة أيام، فحسب تقديره للفترة التي انقطعت عن الرد فيها، وملامح وجهها في الرؤية التي رآها قدَّر أن هذا وقع منذ بضعة أشهر.

أخذ يربط الأحلام التي راودته ببعضها البعض وتكوَّنت صورة ما في مخيلته؛ فلقد رأى مشاهد من قبل الحرب العظمى، ورأى مشاهد حيَّة لإعلان الملك ترايتون الحرب على الأعراق القديمة، حتى أنه رأى جده الأكبر فالكون ومؤسس عائلة أدوراي السيد آدوراي نفسه، ولتعدد المواقف الغريبة في حياته كان قد قرر أن يتناسى تلك الأحلام أو الرؤى _سمِّها ما شئت_ كما تجاهل غيرها من قبل.

سأل نفسه سؤالًا واحدًا وهو: إذا كان هناك شيء واحد غامض قد يكون سريًا فلا شك أنها الجرة!

هنا شعر بألمٍ حاد قد اجتاح رأسه، وأخذ ينهش فيها ككلب مسعور فأمسكها بشدة وراح يعضُّ على لسانه، ثم رفع عينه بإعياء بالغ فإذا بالجرة قد مثلت أمامه على الفراش الذي أخذت أغطيته تتطاير، ولما أطال النظر إلى الجرة أمامه إذا بكل شيء يعود كما كان، الفراشُ مرتب وخالٍ من أي شيء، ولا صداع في رأسه، كل شيء طبيعي أو هكذا كان يعتقد.

أخذ شيء غريبٌ داخله يطالبه بتفقد الجرة؛ فاقترب من الحقيبة ببطء حتى أمسك بالجيب الذي يحويها فإذا بهمسات خافتة متفاوتة القرب تهمس في أذنه: الجرة، افتحها، الجرة يا جون، افتحها، كل ما تريده في الداخل، الجرة.

همسات متباينة كلها بقربه وكلها تتحدث في موضوع واحد، أخذ يتلفت يمنة ويسرة كالمجنون، ثمَّ فتح الجيب فرمق العلبة المخملية التي حوت الجرَّة، وكلما قرب يده منها علت الهمسات أكثر وغزاه الرعب أكثر وأكثر لكن لسبب ما لم يكن قادرًا على فعل أي شيء سوى تفقد الجرة، فتح العلبة في ترقب فصَاحت الهمهمات بضحكاتٍ شيطانية في قلب عقله؛ فألقى العلبة مذعورًا وعلت الهمسات أكثر وأكثر بأصواتٍ أشد غلظة فأمسك بالجرة ورماها على جدار الغرفة قائلًا: اللعنة عليك وعلى اليوم الذي رأيت فيه النقوش!

فارتطمت الجرة بالجدار ولم تتأثر.

تراجع في رعب إلى ركن الغرفة البعيد عن الجرة قبل أن يضع ما يستر به صدره ويجذب حقيبته راكضًا لخارج الغرفة، وأخذت الهمسات تقلُّ رويدًا كلما ابتعد عن الحانة وقد رمقه المارَّة بنظرات متوجسة غريبة قبل أن تصيح الأصوات مرة أخرى بأعلى صوت في عقله؛ فرفع حقيبته في هدوء آملًا أن يكون ما يظنه خاطئًا.

فتح جيب الحقيبة فعلت الهمهمات ضاحكة في سخرية فور رؤيته للجرة داخلها، غزاه الرعب أكثر وشعر بألمٍ حارق في رأسه، وترك الحقيبة كالملسوع في وسط الطريق، وأخذ يبتعد عنها قدر المستطاع قبل أن يوقفه أحد الفرسان قائلًا: توقف عندك.

فالتفت له جون في ذعرٍ قبل أن يمدَّ الفارس له يده بالحقيبة قائلًا: لقد أسقطت هذه.

فتناولها جون متعجبًا وسأل نفسه: أحلَّت الأمانة فجأة على حرس المدينة الذين لو وجدوا سيفًا صدءًا ملقىً على قارعة الطريق لأخذوه؟!

تيقَّن جون وقتها فهو ليس في كابوس وقدره مرتبط بما في تلك الجرة، وأنَّ المحتوم والذي كان يهرب منه هو فتحها حتى لو كلفه ذلك حياته.

كانت ساعات النهار قد مضت وهو ما يزال هائمًا في طرقات قطاع الحدادين، وأخذت الهمهمات والصيحات تعبث في رأسه حتى بعد محاولاته العديدة للتخلص من الجرة؛ فلا تجده إلا ممسكًا برأسه لا يقوى على النوم وقد مزَّق بضع خصلات من شعره حتى سالت بعض

خيوط الدم الحمراء على جبينه؛ فسئم منه الحرس وألقوه في أزقة الضواحي لئلا يؤذي عيون المارة، وقد اعتقدوا أن الضواحي هي المكان الذي ينتمي إليه من الأساس، فأخذ يضربُ برأسه على حوائط الأبنية المتهالكة آملًا أن ينتهي ذلك العذاب، وعندما انتصف الليل أخذ ركنًا من أحد الأزقة وانضم إلى السواد الأعظم من سكان الضواحي، وقد افترش الأرض والتحف السماء غير أنَّه لم يكن يقدر على النوم إطلاقًا.

ومع إشراقة الشمس سمع صوتًا دافئًا يتدفق إلى عقله قائلًا: أرجوك، افتح الجرَّة يا جون.

كان ذلك صوت ريتا، والذي معه حسم جون أمره وقد فطن إلى أنه لا خيار أمامه كي يهني ذلك العذاب الذي لا يعرف حتى سبب بدئه، لكنه قرر أن يفعل شيئًا كان ليؤكد له حقيقة حلمه الذي رآه عن ريتا؛ فأخذ ورقة صفراء من حقيبته، وبدأ يدون عليها بيدٍ مرتعشة، ثمَّ جرح إصبعه وكتب في ذيل الورقة ريتا، في الحقيقة لم يكن اسم الشخص كاملًا ضروريًا لاستخدام الورق الخاص إذا كان المرسل يتذكر وجه من سيستقبل الرسالة، ثمَّ صفَّر لإحدى الطيور بنغمةٍ معينة فاقترب منه وربط الرسالة بقدمه، ثمَّ أطلقه في السماء.

أخذ الطائر يدور في شكلٍ دائري فوقه عدَّةُ دقائق قبل أن يعود إليه ليتحقق ما كان يخشاه، فهذا ما يحدث إذا كان الشخص الذي سيستقبل

الرسالة في مكان يستحيل على الطائر بلوغه كأن يكون مدفونًا أو غارقًا أو... محتجزًا.

وهنا رجَّح جون صحة تلك الرؤى؛ فهدأت الهمهمات قليلًا، وراح يُفكر ما الذي سيخسره إذا فتح الجرة؟ حياته؟

قال لنفسه مسندًا ظهره إلى البناء الرَّث: إذا بقيت كما أنا فلن تكون هناك قيمة لحياتي من الأساس لأني وبلا شك سأفقد عقلي، ولا يوجد أي خيار أمامي؛ فلا أعلم لماذا بدأ كل هذا؟ ولا أعلم كنه النقوش حتى أفسر الطلاسم التي ظهرت في غرفتي؟ ولا أعلم أي شيء؟!

وعندما انتصفت الشمسُ السَّماء لملم شتات نفسه وأخذ يجرُّ قدميه بتثاقل نحو قطاع الحدادين، والذي ما إن دخله اقترب منه الفرسان ليمنعوه من الولوج فرمى فضيتين لكل منهم ليتركوه يعبر بنظرات متعجبة، لم يكن جون قلقًا من أن يتعرف عليه أحد فشكله الحالي بدا بعيدًا جدًا عن الصُّورة المرسومة في الورقة، وقد غزا السَّواد أسفل عينيه، ونضب جلده، واتَّسخت ملابسه بشدة فلا يمكن لمن يراه أن يخمن أبدًا أنه ابن عائلة كبيرة كفالكون، وأخذ يعبر طريقه حتى بلغ إحدى حانات القطاع الفارهة ذات عدة طوابق، قال لنفسه أنه إذا مات فليمت ميتة نظيفة، في مكانٍ يليق بساحرٍ رفيع المستوى مثله؛ فقد تواضع بما فيه الكفاية لحياة واحدة.

وعندما اقترب من باب الحانة حاول رجلان منعه من الدخول ظانَّين أنه مشرد هارب من الضواحي إلا أنه رمى أمامهما بضع فضيات، ولم

يكترث بعدها فركعا على الأرض كالماشية يلملمان العملات بنهم قبل أن يرمقهم جون بنظرات من الاحتقار ويدلف إلى الحانة، كانت الحانة من الداخل ذات أضواء براقة كمغارة ملأت بالكنوز النفيسة، وكل شيء مرتب في مكانه، الطاولات مزخرفة واللوحات تملأ الحوائط، وكبار السادة من ملاك ورشات الحدادة وسماسرة العمال يرتدون حللهم القماشية الناعمة لاِثمين أطيب أنواع النبيذ الذي يمكنك الحصول عليه في قطاع الحدادين.

كانت مثاليةً للغاية، وبدا أنَّ الخطأ الوحيد هو وجود جون نفسه بهيئته تلك في مكان كهذا.

تقدَّم ناحية الساقي الذي بادره قائلًا دون أن يلتفِتَ له: لا توجد بقايا طعام الآن، عُد مع نهاية اليوم وخلف الحانة ستحصل على ما تريده.

طار الشرر من عينيه التي غطى شعره معظمها، وعلى الرغم من ذلك فقد تراجع الساقي قليلًا إلى الخلف في قلق وتوتر قبل أن يدس جون يده في حقيبته ويلقي له بخمس ذهبيات دفعة واحدة، وتجمَّد الساقي في مكانه للحظات غير مصدق لما يراه؛ فحتى سادة هذا القطاع لن ينفقوا مبلغًا كهذا في مجرد حانة، وبدأ لمعان الذهب ينالُ من عقل الرجل قبل أن يخرج قدحًا ويملأه قبل أن يقربه من جون قائلًا: لم أدرك مكانتك يا سيدي، أرجوك أن تسامحني، وهذا المشروب اعتذارٌ مني أرجو أن تقبله.

ثم وضع كفه فوق الأخرى قائلًا بابتسامة لزجة: ماذا يريد سيدي مني؟!

قال جون بصوت شابته بحَّة إثر الجفاف الذي أصابه؛ فهو لم يطعم الماء منذ أكثر من يوم كامل وقال: غرفة مرتبة لبضع ليال، ووجبة عشاء دافئة.

لم يحب جون أبدًا التفاخر، المظاهر، والماديات لكنها كانت لغة القوم هنا فأنَّى له أن يتعامل معهم دون استخدام لغتهم؟!

صاح الساقي في فتاة كانت تخدم إحدى الطاولات؛ فهبَّت بسرعة نحوه قبل أن يهمس في أذنها ببضع جمل لم يكن من العسير على جون تخمين كنهها قبل أن تتجه الفتاة نحوه، ثمَّ تنحني في محاولة رديئة لتقليد تحية فتيات القصور، ثمَّ قالت: اسمح لي أن أدُلَّك على غرفتك يا مولاي.

لم ينبس جون ببنت كلمة، فقط أشار لها فتقدَّمت الطريق نحو الطابق العلوي، واتجها إلى غرفة بدا بابها أكبر من البقية، وتقدَّمت الفتاة نحو الباب، وأزالت قفله وسلَّمت جون المفتاح قائلة: طعامك سيكون لديك خلال بضع دقائق.

وأشارت خلفه ناحية الفراش قائلة: إذا احتجت أي شيء فقط شد الحبل الذي بجانب الفراش، وسآتي على الفور.

شكرها جون، ثمَّ ناولها ثلاث فضيات إكرامية لها قبل أن يقول بشفقة: لا تخبري الساقي أني قد أعطيتك شيئًا.

ضحكت الفتاة في براءة، وأومأت له إيجابًا قبل أن تغادر الممر متوثبةً في فرحة شديدة بينما لم يشعر جون تجاهها سوى بالشفقة والأسى، خمَّن

أنها هاربة من الضواحي، ربما غرق والدها في ديون العاصمة فورثت دينه.

- يا لك من مسكينة!

قالها لنفسه قبل أن يُغلِق الباب، ثمَّ دخل الغرفة ونزع ثيابه الرثة التي أكل الوحل أطرافها، وصبغت مخلفات الفحم لونها قبل أن يدلف إلى الحمام رافعًا عن نفسه كل تلك الطبقات من القذارة، وجال بباله خاطرٌ غريب، شعر أنَّ بعض البشر في هذا المكان لو نظفوا لأيام ولياٍل لبقوا أقذر من حلته التي تخلص منها، وأكمل قائلًا في نفسه: وبعضهم كالجواهر التي أهملت، ولا تحتاج سوى التلميع لا أكثر.

لكن لم يكن أحدٌ ليلوم مَن عامل الحجر الكريم على أنه مجرد صخرة، فإذا كان الحجر نفسه لا يدرك قيمته فأنى لغيره أن يفعل؟

دقَّ باب حجرته فستر نفسه سريعًا قبل أن يفتح الباب، ولما أبصر ما خلفه تجمد في مكانه قائلًا بصوتٍ خافت: ريتا؟!

قالها بعينين مفتوحتين عن آخرهما، بلا شك رأى ريتا واقفة أمامه خلف العربة التي حملت شتى الأطعمة.

- أين كنتِ؟! لقد كنت أبحث عنكِ.

وتقدَّم ببطء نحوها، وسرعان ما تسربت الدموع من عينيه قبل أن يسمع صوت الفتاة التي قادته إلى غرفته مسبقا قائلةً بتعجب: ريتا؟!

نظر أمامه فإذا به يتوهم كل ذلك، كانت الفتاة هي من أحضرت الطعام ولا أثر لا لريتا ولا لغيرها أمامه؛ فقال متلعثمًا وقد تملكته الصدمة: آسف لا.... لابد أنني متعب لا أكثر.

فقالت له بابتسامة عذبة: لا عليك يا سيدي.

وراحت تحدثه عن أصناف الطعام وعن تفضيلاتها الشخصية فيه وقد ألفت الحديث معه بينما كان صوتها بعيدًا جدًا بالنسبة له فقط، كان يومئ إيجابًا وعلامات الصدمة ما تزال مرتسمةً على محياه، ثمَّ أخذ منها صحون الطعام تباعًا، ولو كانت هي قد أدخلت معظمها ثمَّ تركت الغرفة، وجلس جون إلى المائدة بنظرة جوفاء، وأوعز رؤيته لريتا فقط لسوء تغذيته والهلاوس التي كان وما زال يسمعها لكنَّها الآن أخف بكثير، وبدأ يصيب من الطعام الشيء القليل بحاسَّة تذوق غائبة، وبشهية مسدودة.

كان كدميةٍ تحركها غريزة البقاء لا أكثر، وبعدما شعر بشبع كاذب أخرج من حقيبته سترته العزيزة على قلبه، فوضع على نفسه معطف الباحثين الأسود الذي كان رفيق دربه أول مرة خالط العاصمة وكان أكثر من مجرد قماش بالنسبة له، كان صندوقًا حمله في طياته ذكريات أغلى من أن تحكى.

ووقف أمام المرآة فتأمل شكله وفي حسرةٍ وأسى بدا أكبر من عمره بعقد كامل أو ربما أكثر، حتى إن بعض خصلات شعره قد آلت إلى اللون

الرمادي وقد عبثَ التعب والإعياء بملامحه، وغزا بحرٌ من السواد أسفل عينيه فببساطة كان يقف أمام أسوأ كوابيسه إن صحَّ التعبير.

فعاد إلى فراشه وأخرج الجرة ذات النقش وبضع ورقات!

كانت المرة الأولى التي احتكَّ فيها بالكيان الذي سيطر على تانيا منذ أكثر من عامين، ووقتها كاد يفقد ذراعه لولا أن حالفه الحظ، ولكن ها هو الآن يضع قدمه في وكر عدوه غير آملٍ أن يعود سالمًا؛ فكانت مهمة انتحارية بكل المقاييس، وكان قد استقرَّ في قرارة نفسه على أنَّها النهاية، أراد أن يُتمَّ طريقه حتى آخره فيفارق الحياة على الأقل وهو راضٍ عن نفسه.

تمثل أمامه شبح نفسه القديمة أيام الأكاديمية، وقال له في ثورة: وماذا عن راين والمهمة التي وصاك بها نيكولاس؟!

ودون أن يرفع رأسه قال: راين يستطيع تدبر أمره بنفسه.

ثم سأل صورته مستنكرًا: ألا يمكنني أن أكون أنانيًا في حياتي ولو مرة واحدة؟!

- لقد تغيرنا كثيرًا.

- لو لم نفعل لما كنت أمامي الآن.

ثمَّ تبخرت صورته من أمامه، ومدَّ يده في حقيبته جاذبًا عبواتٍ ذات أحجام مختلفة، ثمَّ هبط أرضًا بجانب السرير، وراح يرسم خطوطًا ودوائر شيطانية توسَّطت تلك الأشكال والكلمات، دائرتان خاويتان كانت أحدهما أكبر من الأخرى، ثمَّ كون دائرةً عريضة حول حزمة

الرموز، ورسم مثلثًا رؤوسه على الدائرة الكبرى قبل أن يَنتهِي من تجهيز التعويذة تمامًا بوضعِ شمعةٍ مُشتعلة على كل من رؤوس المثلث.

وضع الجرَّة في الدائرة الصغرى وجلس هو في أختها التي تكبرها، ثمَّ تناول إحدى الحاويات والتي كانت صغيرة جدًا، ثمَّ فتحها وأخذ يقطرُ منها قطرتين من الزئبق الأحمر على رأس الجرَّة، وأخيرًا جذب سكينًا ذا نصل حاد وجرح راحة يده فسالت الدماء على الجرة.

بدأ يتمتم بعدَّة كلمات من لغات مختلفة، كانت التعويذة التي يمارسها سحرُها متقدمًا جدًا، ذا أسرار عتيقة قد علَّمه كين إيَّاها فيما مضى.

بدأت الأرض تهتزُّ من حوله هزاتٍ خفيفة، ثم فجأة انطفأت أنوار الشموع فلم يبال جون وتابع تعويذته بثبات يحسد عليه، ربما كان مدمرًا من الداخل لكن عندما يتعلق الأمر بالسحر فجون لن يترك للحالة المزاجية مكانًا في عمله.

بدأت الدوائر تشعُّ من حوله بنورٍ وهاج، وسرعان ما تجمد مكانه وفقد قدرته على الحركة قبل أن تنفتح الجرة مخرجة دخانًا أسود قد بدا أنه آت من قاع الجحيم، فقد جون إرادة جسده، ووجد نفسه مرغمًا على فتح الجرَّة حتى اقتحم الدخان فمه وملأ حلقه، وشعر كأنما يبتلعُ جثةً متحللة، ثم بدأت عيناه تدمعان من شدة التقزز وقد اصطبغت باللون الأحمر قبل أن يشعر بأمعائه تحترق في ألم لا يطاق، إلى أن ابتلع الدخان كله وخرَّ أرضًا فاقدًا وعيه.

قطرات تهبط على وجنته، وصدى صوت حركة ماء تسلل إلى أعتاب أذنه حتى فتح عينيه ببطء وتثاقل قائلًا: أين أنا؟!

كان نائمًا على أرضٍ صخرية مغمورة بالماء على ارتفاعٍ أقل من الشبر والظلام يحيط به من كل مكان، ورفع ظهره من الأرض معتدلًا بجسد نصف مبتل، ثمَّ أخذ يحملق بعينه فلم تلتقط سوى السواد ولا شيء غيره، وأخذ يشحذ حواسه متحسسًا كل شيء حوله، ولما سمع صدى قطرات الماء الممزوج بصوت الهواء المكتوم وهذه الرطوبة المرتفعة رجَّح أنه في كهفٍ ما، لكن أيُّ كهفٍ ذلك الذي لا يتسلل النور إليه على الإطلاق، إلا إذا كان شديد التشعب بالطبع؟!

أخذ يُحرك قدمه المغمورة في الماء سائرًا في الظَّلام بلا وجهة، ثمَّ بدأ يمسك برأسه عاصرًا عقله في محاولةٍ لتذكر ما الذي أتى به إلى هنا، لم يمض كثيرٌ من الوقت حتى سرت الذكريات أمامه وهو يدخلُ الحانة الفارهة ويفتح الجرة، ثم تذكَّر جرح يده فتحسسها فإذا بها سليمة تمامًا، وبدأ يتقدم إلى الأمام بحذر وبخطواتٍ خجولة خشيةَ أن يتعثر في أي نتوءٍ ما، أو ربما الأسوأ أن يقع في حفرة مثلًا فكل شيء وارد، وبعد دقائق من المشي وسط الظلام سمعت أذنه صوتًا دخيلًا على المكان، كان صوت احتكاك حديد صدئ ببعضه البعض.

أخذ جون يتوجَّه بحذرٍ نحو مصدر الصوت البعيد الذي راح يعلو تدريجيًا كلما اقترب حتى اصطدم فجأة بجدار صخري، تراه للخلف قليلًا ماسحًا رأسه بألم قبل أن يبدأ بتحسُّس الحائط أمامه في حذرٍ شديد

قبل أن يلتقط نهاية الجدار؛ فاقترب من طرف الحائط الصخري بتوجس والتصق به بشدة، وبدأ يمد يده الأخرى متحسسًا المكان من حوله، فإذا بيده تتلمَّسُ حائطًا آخر؛ فأمسك بالطرفين بكلتي يديه وأخذ يمررها إلى الأمام ففطن أنه على أعتاب ممرٍ صخري ضيق بالكاد يتسع لشخص واحد.

تشبَّثت يداه بجدران الممر وبدأ يمشي فيه بحذر، وسرعان ما أدرك أنَّ الممر يرتفع به إلى الأعلى قليلًا وقد بدأ منسوب الماء ينحسر تدريجيًا، كانت أصوات الحديد الصدئ تملأ المكان وقد ارتفعت بشكل واضح وقلَّ الصدى المصاحب لها، وكانت الحوائِط الصخرية خشنة، مليئة بالبروزات حتى أنها كانت تخدش يده كلما ركز على الحائط، ومرَّت دقائق شعر فيها بالتعب والإعياء قبل أن تجف الأرض من أسفله تمامًا وتصطدم أنفه بسطحٍ آخر، وأخذ يُمسِك أنفه بعصبية وودَّ وقتها لو يستطيعُ إشعالَ أيِّ نارٍ لكن بعد التعويذة المهولة التي نفذها استهلكت أغلب طاقته السحرية.

مدَّ يده بحذر متحسسًا الحائط الذي أعاقه فإذا بيده تلامس خشونة الخشب؛ فمرر يده أكثر عليها قبل أن يدرك أن ما أمامه ليس سوى باب خشبي، وبحذر شديد جرب دفعه فإذا به قد انفتح دون مجهود يذكر، وبدا صوت الحديد أوضح، وبانت معالمه فأدركَ أنَّها أصوات سلاسل وقد صار جليًا أنَّها كانت تأتي من خلف الباب.

مدَّ جون قدمه ببطء وحذر فشعر بإصبع قدمه الصغير قد تحسس شيئًا ما؛ فتنهد في راحة شاكرًا حظه الذي جعله يتحرك ببطء كي يتجنب تلك الصدمة فقد نال من الصدمات ما يكفي، جثم جون أرضًا وأخذَ يتحسَّسُ النتوء البارز فشعر أنه ليس نتوءًا بل بدا أنَّه ضلعٌ منحوت وليس من تكوين الطبيعة، ثمَّ مرر يده وبدأ يدرك معالم الشكل الذي بدا له كمكعب قبل أن تنتقل يده إلى سطحه، وعندما بدأ يقرب يده ببطء غاصت أطراف أصابعه في مادةٍ لزجة فسحبها بسرعة، تشمَّم المادة فخاطب نفسه في دهشة قائلًا: زيت؟!

جال بباله أنَّه ربما لا يقدر على إشعال شعلة لكن ربما يمكنه تكوين بضع شرارات، فوثب من مكانه وقرَّب يده من التجويف العلوي للمكعب وبدأ يتمتم بتعويذه ما بشدة، ضاغطًا على حروفه وقد برزت عروق يده، وأخذ العرق يتصبب منه معتصرًا آخر قطرات السحر الذي لديه حتى طرقعت شرارات أمام يده؛ فأبعدها بسرعة عنِ التجويف، وبدأت النار تنتشر بسرعة مُزيلةً طبقات الظلمة حتى أضيء المكان بالكامل فغطى جون عينه التي كانت قد ألفت الظلام.

كان التجويف عبارة عن قناة يجري فيها الزيت حول أطراف المكان، أمَّا عن المكان نفسه فكان غرفةً دائرية غير منتظمة لكن الصدمة لم تكن هنا؛ فعندما رفع جون رأسه بعينٍ نصف مفتوحة نحو مصدر صوت السلاسل رأى ما لا يتخيله عقل، كان كائنًا طويلًا، ذا بشرة حمراء قانية، وعينين سوداوين كسماء المحاق، وقدمين كقوائِم الغزلان الخلفية، أما

عن ملامحه وباقي جسده فكانت أقرب للبشر إذا استثنيت الأنياب التي تدلَّت من فكيه وأظافره المخلبية السوداء.

كان معلقًا على الجدار وقد ثبتته قيود وبعض السلاسل الصدئة بإحكام، كان ينظرُ إلى جون مبتسمًا بلؤم دون أن يصدر أي صوت؛ فبثَّ في نفس جون رعبًا لا حدود له.

تقدَّم جون نحوه ببطء حتى انتصف الغرفة؛ فضيَّق الكائن عينيه الجحيميتين قبل أن يقول بصوته الشيطاني: عجبًا! ماذا لدينا هنا؟

كان جون متجمدًا من الرعب والصدمة في الوقت ذاته، جال بباله أنه ربما كان من الأفضل لو استمع لنصيحة شبحه الذي ظهر له قبل أن يُقدم على فتح الجرة؛ فبعض الأشياء خلقت لتكون مجهولة وللعبث معها ثمن باهظ، وفاح الخبث من بين أنفاس الكائن عندما قال: أعترف لك بتقديري... وهو شيءٌ لو تعلم غالٍ جدًا.

حارب صوت جون ليخرج من حنجرته حتى وصل إلى شفتيه ضعيفًا وقد قال: من... من أنت؟

بسخرية رد الكائن: ماذا قلتِ يا حلوتي؟! لم أسمعَ!

رفع جون صوته صارخًا: أقول لك من تكون بحق الجحيم؟

ضحك الكائن ضحكات خفيفة بصوته الأثير الغليظ قائلًا: كنت لأنهي حياتك على الفور لكني أخبرتك مسبقًا أنك تروق لي.

بدأ قلب جون يتراقص بين ضلوعه، وسرى العرق منه بغزارة عندما قال: أدعى فينوس، سيد شياطين عرق الإركالا.

فشعر بجسده قد خدر وقال بتعجب: الإر.. ماذا؟

زفر فينوس بضجر قائلًا: الإركالا يا أحمق.

أخذ جون يقلب أسماء الأعراق القديمة في عقله تباعًا، وتأكد أنه لم يسع هذا الاسم من قبل، وهدأ جون قليلًا قبل أن يقول مستفسرًا: تدعي أنك يمكنك قتلي إذا أردت رغم أنك مقيد، ولأصدقك القول فأنا لا أصدق أنك تبقيني على قيد الحياة لأنِّي أروق لك كما تقول.

أطلق فينوس ضحكة عالية هزت أرجاء المكان وصاحت قدما جون فيه بالهروب إلا أن الخوف كان قد تمكن فسَكن الأرض جاثيًا من الذعر، ودمعت عينا فينوس قبل أن يقول: سحقًا لك أيها البشري، لم أضحك هكذا منذ مدة.

ثمَّ أكمل بعد أن استعاد جزءًا من هيبته: والآن أيها المتحذلق، قف!

شعر جون بجسده قد سُلِب منه، وأخذ يتحرك رغمًا عنه واقفًا كما كان قبل أن يستعيد تحكمه مرة أخرى.

أكمل فينوس: إنني مقيد هنا منذ دهر بعيد، عدة قرون ربما، لا أدري على وجه التحديد.

أخذ يهز السلاسل التي قيدته قائلًا: وكما ترى، هذه السلاسل ليست عادية فقد صاغها الحقير آدوراي خصيصًا لي باستخدام سحر الأقزام.

صعقت كلمات فينوس جون بعد أن لعبت الصدمة والإعياء بصوته: آدوراي؟! أي أنك هنا منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة!

جال ببال جون وقتها أنه إن كان يقصد الحداد آدوراي مؤسس عائلة آدوراي العظيمة المعروفة حاليًا؛ فإن فينوس ذاك أثر عتيق لو صح ظنه، وراح يكمل متحدثًا دون أن يدري: أي أنك كنت في الحرب العظمى كذلك؟

قال فينوس بغير مبالاة: أحقًا مر كل هذا الزمن!

إنَّ العمر يجري كمياه الشلال.

وعادت التساؤلات إلى عقل جون؛ فتناسى كل شيء، وجرح طرف إصبعه بسرعة، وأخذ يرسم شيئًا ما على كم معطفه، ثم رفع كمه أمام فينوس قائلًا: أخبرني أرجوك، أتعرف شيئًا عن هذا الرمز؟

اتسعت ابتسامة فينوس حتى ظن جون أن أطراف شفتيه قد لامست أذنيه وقال: هل تفهمها يا فتى؟

كانت أعصاب جون قد انهارت وأخذت تسقط تباعًا كقشور جبل جليدي، ثم صاح في نفاد صبر: أأفهمها؟

بالطبع لا أفهمها، لقد سببت لي تلك الرموز اللعينة أرقًا مميتًا، إنها لعنتي الأزلية وأنت هنا تسألني إن كنت أفهمها؟

إن كنت أفعل لما خضتُ كل ذلك.

كان فينوس ليقتل جون لو كان الوضع عاديًا لكنه قال: هدئ من روعك قليلًا.

ثمَّ قال بعد زفيرٍ طويل: أنا من كتب تلك الرموز.

فقال جون بنبرة انتصار باهتة: إذن لم أكن أهذي.

وأخذت العبرات تتسلل من عينيه، ورغم محاولاته لإخفائها إلا أنه لم ينجح.

ثمَّ التفت إلى فينوس قائلًا بصوتٍ مخنوق: لا أبالي، إن كُنتَ تريد قتلي فقط أريد إجابات.

أخذ فينوس يفكر قليلًا قبل أن يقول: سَل ما شئت.

فجلس جون معتدلًا، نافضًا الغبار عن نفسه، ثم قال: أكنت أنت السبب في رؤيتي لتلك الأحلام الغريبة؟

- بالطبع كنت أنا.

زفر جون ثمَّ قال: لن أطلب شيئًا آخر سوى أن تخبرني بما حل بريتا؟ وما علاقة والدتها بك؟

نظر فينوس له بعين ملتمعة وقال: ستفك أغلالي بعد ذلك.

- أتعجب من تهديداتِك ونبرتك الثابتة، ورغم كل ذلك لا تستطيع فك تلك القيود الصدئة؟

- إياك والاستهانة بما يصنع آدوراي، وعلى كلٍّ ولكي أريح فضولك ففكها يتحاج محزًا خارجًا كدماء البشر على سبيل المثال؛ لذا أحتاجك.

فقال جون بثبات: لك ذلك.

راح جون يتأمَّلُ الأرض أسفله، وقال بنبرة جوفاء: أخبرتك مسبقًا أني سيد عرق الإركالا، وهو أكبر وأقوى نوع من الشياطين، قديمًا كنا نعيش سويًا برفقة الأعراق المختلفة حتى وصل البشر إلى القارة عبر البحر من مكان مجهول عجزت قُدراتنا السحرية حتى عن الوصول إليه.

وسكت قليلًا قبل أن يردف قائلًا: على كلٍ عشنا سويًا بوئام وقمنا بتقسيم الأرض بيننا، وكان كل شيء على ماً يرام حتى تولى الأحمق ترايتون قيادة البشر.

غمغم جون مستوعبًا: مؤسس عصر النهضة.

فقال فينوس متعجبًا: النهضة؟!

نعم، النهضة على دماء شعبي، ألا سحقًا لذلك البشري!

وهدأ روعه قليلًا قبل أن يكمل: وعمومًا كانت هناك عقود واتفاقات بيننا، وكل عقد يحتاج إلى طرفٍ محايد يتأكد من حفظ كل طرف للشروط ويتأكد من معاقبته لو خالفها.

ثمَّ سرت رعشة في جسده عندما قال: وهنا جاء دور أتروبوس.

قال جون متعجبًا بغير فهم: أتروبوس؟!

- اجتمعت الأعراق كلها أمام حفرة عميقة، ورمى كل جنس بتضحيات من أبنائه، ثمَّ ردد السادة تعويذة لم ير لها مثيل، وعندها حضر.

أكمل بخوف لم يكن مناسبًا لهيئته أبدًا: كنت وقتها صغيرًا، وكان والدي هو قائدنا ولن أنسى ذلك اليوم ما حييت.

سأل جون وقد اجتاحه الفضول: وما الذي حدث؟

- وقتها شعرت بكثافة الهواء وقد زادت بشدة من حولي حتى كدت أختنق، وبدأ نورٌ ساطع يغزو المكان قبل أن يُسمَع صوته، كان صوته خليطًا غريبًا فلا تدري أغليظ كرجل بالغ أم رفيع كفتاة صغيرة أو حتى رخيم خامل كالعجائز!

ثمَّ انسدلت قطرات العرق من جبينه قبل أن يردف: مما حكاه لي أبي فأتروبوس ذاك كائنٌ من بعد آخر ينتمي لعرق لقب بالكوابيس، لم ير أحد له مثيلًا لقوته، بعد أن حضر أشهدوه على تقسيم الأراضي بينهم واشترط أن يقدم كل عرق له فتىً وفتاة على رأس كل سنة، وقد سمي ذلك بعهد القدماء.

كانت المعلومات هذه في الغالب محرمة على أهل المملكة، وظنَّ جون أنه حتى لو أكمل بحثه في المكتبة الكبرى فلن يجد فيها شيئًا يتحدث عن ذلك ولو حتى في قصاصة ورق، وكان قلبه يدق الطبول في صدره من فرط الحماس، وتسلَّلت الإثارة في أطرافه فارتعش جسده قبل أن يكمل فينوس: وعندما تولى ترايتون مقاليد حكم البشر ادَّعى كذبًا أنَّ كل الأراضي من حق مملكته، وأننا غاصبون فإمَّا أن نقسم له بالولاء أو تؤخذ منا عنوة، بل إنه زاد في جنونه بأن ادَّعى أن عهد القدماء هو ما يضمن له تلك الأراضي.

نطق جون في خبايا عقله: الحرب العظمى!

تابع فينوس: عندما وصلني خطابه لم أتمالك نفسي من الضحك، وأرسلت في طلب ملوك الأعراق الأخرى في وادي أفيلا.

كانت الأحداث تشكل ترابطًا سريعًا في عقل جون؛ فرغم أنه لم يقرأ عنها قط لكن الأحلام التي كان يراها والكلمات التي قالها فينوس كانت تتكامل وتسدُّ ثغرات بعضها البعض سريعًا.

خفض فينوس نبرة صوته وتابع: كنت أظن أننا لن نحتاج إلى تحريك جيوشنا؛ فأجبرت الجميع على إحضار الجنود للاستعراض وعندها إمَّا أن يخاف ويتراجع أو أن يستخدم العهد، وعندها سيدكُّ العظيم رأسه عند سماع ادعاءاته.

ثم التفت ناظرًا إلى الأرض وقد غاب نشاطه المشتعل وسخريته السابقة وقال بذبول: كنا سُذجًا حمقى.

- ولمَ ذلك؟

كان جون يعلم نهاية الحرب بالطبع لكن أيًا مما حكاه فينوس لم يمر على مسامعه من قبل؛ فقد تعلم منذ صغره أن الملك العظيم ترايتون حارب الوحوش الغزاة بضراوة وتخلف آل فالكون عن الحرب لذا اتهموا بالخيانة.

استطرد فينوس بحديثه قائلًا: ليلتها وصلتني رسالة في الوادي، كانت من فالكون وقد حذرني فيها ونصحني بالهرب بأسرع وقت ممكن، بالطبع لم أكن لأصغي إليه؛ فقد كان النصر يلوح أمامي فكيف أهرب؟ أو بماذا سأبرر لذلك لباقي الملوك أو حتى لجنودي؟

سكت برهة حتى أحسَّ جون بالحزن يتسرب من بين ثنايا جسده المليء بالندوب والبقع، فلو كان لحزنه لون لصبغ المكان كله.

ثمَّ طفت على وجه فينوس أمارات الحزن فقال متصنعًا الثبات: في صباح اليوم التالي استيقظت وقد كانت الكارثة حلت بالفعل، قنابل من الحمض الحارق تمطر رؤوسنا وتنشق الأرض لتبتلع جنودنا واحدًا تلو الآخر، وحجارة طائرة بسرعة البرق تخترق جنودنا تباعًا، كانت مأساة بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

تنهَّد فينوس ونظر إلى جون قائلًا: أمسكت بمن حولي وقمت بتعويذه نقل عملاقة لخارج الوادي، وبسبب العدد الكبير الذي نقلته معي لم أقو على الحركة، وقد كان سحري كله على وشك النفاد، ولأنني ربما لم أكن لأكتفي بالمصائب وقتها مرَّت دقائق عدة وكان الجنود يحاصروننا من كل مكان وعلى رأسهم ترايتون بنفسه والعديد من السَّحرة، وقبل أن يضعوا الأغلال على يدي اعتصرتُ آخر ما تبقى لي من سحر وزرعت جزءًا من وعيي في شابٍ من السحرة الذين كانوا برفقة ترايتون.

سكت برهة قبل أن يدير رأسه في المكان من حوله قائلًا: صاغ آدوراي تلك السلاسل، وبمساعدة السحرة جهزوا هذا المكان خصيصًا في جرة حصينة لاحتجازي، وقتها أخبرني آدوراي أثناء وضع هذه السلاسل أن ترايتون قد جمع خمسين ألفًا من فقراء البشر مُغريًا إياهم بفرص عمل

وهمية قبل أن يقدمهم كقرابين لأتروبوس؛ كي يلغي عهد القدماء ويجهز علينا جميعًا.

كان جون قد نال من الصدمات ما يكفي فتبلد وعيه حينها وقال: كذبوا علينا إذًا!

أكمل فينوس ناظرًا في قلب عيني جون: أما النقوش فقد استغللتُ ذلك الساحر الذي سيطرت عليه كي ينقشها على أحد جدران ما تسمونه المقر الرئيسي، قبل أن يخبو وعيي في سبات.

سأل جون بعفوية: ولماذا لم تستخدم ذلك الساحر ليفك قيدك؟!

بل لماذا قيَّدوك من الأساس؟ لماذا لم يقتُلوك فحسب؟!

فقال فينوس بضجر: لا أدري لماذا لم يقتلوني لكن تخميني هو أنَّ الثمن الذي قدمه ترايتون لأتروبوس لم يكن كافيًا لتنفيذ جميع طلباته؛ فتنازل عن قتلي، وقبل أن تتساءل لِمَاذا لَم يقتلوني هم فببساطة لأنهم لا يقدرون ولا توجد تعويذة أو سلاح لديهم قادر على خدشي، وأقصى ما يمكنهم فعله هو ما تراه.

ثمَّ أخذ يهز السلاسل بيديه قائلًا: أما عن سؤالك الأول فالسلاسل وقتها كانت شديدة القوة وانتظرتُ حتى بدأت تضعف لكي أستطيع كسرها، وأخذ وعيي يختار الأقوياء من كل جيل كي يزرع نفسه في عقولهم، وقد كنت أنت من وقع عليه الاختيار هذا العصر.

غمغم جون متهكمًا: يا لي من محظوظ!

قبل أن يلتفت نحو فينوس قائلًا: لم تقل لي ما علاقتك بتانيا؟

- الأمر أنني وحدي من يعلم كيفية الوصول لأتروبوس في هذا الزمن على ما يبدو، فحاول مجموعة من الرجال ترويضي كي أبوح لهم بالسر عن طريق إجباري على التهام تلك البشرية.

ثمَّ نظر إلى جون بعين ملتمعة قائلًا: إنَّ دمائها تحمل شيئًا مميزًا لم أشعر به من قبل، كنت أشعر أن إرادتي تسلب مني كلَّما استحوذت على جزء منها.

سكت برهة ثم قال بلؤم: لو كنت مكانك لما سألت أي سؤال آخر.

فصمت جون في توجس قبل أن يتابع فينوس: أما الآن وقد أوفيت بوعدي فقد حان دورك.

***

راين

كان القصر الملكي بعد محاولة اغتيال الأميرة فيورا أشبه بوكر أفاع مغلق، وحظُّ راين العاثر قاده إلى ذلك الوكر ولا يملك من الوقت إلا ما يضيعه في لعن مصيره وما قاده إلى ذلك، يذكُر أنه نام بجسدٍ متعب ليلة وقوع الحادثة، وقد فُصل هو وفرسانه عن بعضهم البعض، ولم يكن من المسموح لأحد أن يخرج من غرفته على الإطلاق، وعندما استيقظ تحسَّست أذنه أطلال جلبة مميزة في حرم القصر قد تسللت إلى غرفته؛ فرفع جسده ونظر خارج الغرفة بعين نصف مفتوحة.

أبصر عبر النافذة ازدحام الجنود في الخارج ومن بينهم سار جواد السيد رين آدوراي الذي عرفه راين فور رؤيته، كان السيد راين شقيق زعيم

عائلة الآدوراي السيد كايل، فطن راين أنه بهذا يكتمل ممثلو الأقاليم فشعر براحة بالغة لأنه لن يضطر للمكوث كثيرًا فما هو إلا الاجتماع وسيطير بعدها خارج المدينة لو كان بمقدوره فعل ذلك.

لكن ماذا عن مساندة الأميرة والتخلص من عقبات وصولها إلى العرش؟

هكذا بدأت الخواطر والأفكار تتسارع لعقل راين الذي كان على شفا حفرة من الاشتعال، ومرَّت سويعات النهار ثقيلة مرعبة، وشعر راين أنَّ الصمت والهدوء الذي خنق المكان قد أصبح كطفيلي يتغذى على صبره واتزانه؛ فأن تجلس لوحدك باختيارك لهو أمرٌ عادي يحتاجه أغلب الناس في بعض قرارات حياتهم، أما أن تجبر على ذلك عنوة فهو من أشد أنواع العذاب حتى ولو كان وقته قصيرًا، فوحيدًا تشعر بالحوائط تكاد تقترب منك شيئًا فشيئًا لتسحقك، أو ربما يهيئ لك عقلك الأسوأ وتبدأ الهلوسات بالسيطرة عليك فلا تجد لنفسك منجىً غير اتباعها والهلاك؛ فالعقل ما هو إلا وحشٌ فتَّاك إذا لم يجد متاعب الحياة تشغلُه لبدأ بممارسة ألاعيبه بقسوة، وهكذا كان شعور راين أغلب الوقت.

ومع حلول الليل كاد شَرك عقله ينفردُ به لكنَّ ما أنقذه هي دقات الباب الذي سارع لفتحه بوجه يتسول أي احتكاك مع أي بشري أيًا كان، كان الطارق هو أحد حراس الملك والذي نظر لراين متعجبًا من ابتسامته غير المبررة، ثمَّ قال برسمية: سيدي يريدك على العشاء الليلة.

فتدارك نفسه وعدَّل مظهره وقال بوقار: انتظرني في الخارج.

- علم يا سيدي.

ثم أغلق الباب؛ فتنفس راين الصعداء فلا بد أن أوبيرون يريده لأمر الاجتماع، وفي الحقيقة ودَّ لو يلغيه من الأساس أو يقام في أي غرفة مغلقة سريعًا دون تكلف نظرًا للوضع الراهن، وتحرك سريعًا لجذب سترته، وما هي إلا دقائق حتى كان راين في أبهى صورة على الأقل من الخارج؛ فداخله قد أخذ يتصارع بشدة من فرط الحيرة والتفكير لكن أحدًا لم يكن ليلحظ ذلك.

قاده الحارس في خطوات حثيثة نحو حجرة الملك والتي تقبع خلف قاعة العرش، ولم يكن يسمح لأحد بدخولها من حجرة العرش نفسها سوى الملك والملكة، هذا طبعًا قبل أن تفارق الحياة ويقسم أوبيرون على عدم الزواج من بعدها مرة أخرى، أمَّا الباقون فيدلفون إليها عبر ممر مخصص من قاعة الاحتفالات، والتي كان راين قد توقَّع فيما سبق اتصالها بحجرة الملك وقد صدق في ذلك.

وسريعًا كان راين أمام غرفة الملك وقد ستر الليل الأفق وارتدت السماء زينتها اللامعة، وأخذ الهواء البارد يتسرب عبر النافذة مداعبًا وجنته فملأ به صدره قبل أن يطرق باب الحجرة، وسمع صوته الرخيم مكتومًا من خلف الباب وقد قال بخمول: تفضل.

فتح راين الباب فهاجمت رائحة النبيذ والطعام أنفه وأخذت تنهشها ككلب مسعور؛ فشعر بتقزز بعض الشيء وقال في نفسه: كيف يمكن للبشر أن ينحطوا هكذا؟!

لم يكن أحدًا ليلومه؛ فمنذ لحظات كان عبير الهواء يداعب أنفه بلطف ويتسلَّل مستأذنًا إلى رئتيه بحنان، وتبصر عينه ضوء القمر ولمعان النجوم في لوحة مفصلة باهية، وعندما فتح الباب إذ به يبصر الملك الذي ترك زينته، وزال تأثير لمعان الذهب من الأعين وظهرت الحقيقة، ما هو إلا شيخٌ أشيب يقترب من القبر كل يوم بخطوات حثيثة!

رفع الملك كأسه وأخذ يتجرع النبيذ بنهمٍ فسال صابغًا لحيته وجزءًا من ملابسه، ثم أتبعها بقضمة من اللحم وهكذا دواليك، لكن أوبيرون لم يكن لوحده بل كان معه الفارس رين كذلك، ولطالما كانت علاقتهما علاقة ود وصداقة عكس العلاقة التي جمعته بأخيه كايل.

كان رين قد بلغ من العمر أرذله، نحيلًا كعود القصب، ذا رأس صلعاء تشبثت بعض الشعيرات بجوانبها، وقد نثرت التجاعيد على وجهه بغزارة.

قال أوبيرون مخاطبًا رين: إنه راين، ولد نيكولاس الأكبر.

ما كان رين ليعرف؛ فالرجل كان كفيفًا إثر إصابته قديمًا بمرض الساد فأخذت الطبقات البيضاء تغطي عينيه حتى فقد بصره تمامًا، واضطر لترك الفروسية واعتناق حياة السياسة.

قال رين بصوت متعب وعينين جاحظتين ترمقان الأفق بشحوب: لقد أخبرني أوبيرون أنك ستحضر مكان أبيك، أهو بخير؟

رد راين في رتابة: هو كذلك يا سيدي.

كان رين يخاطب أوبيرون باسمه مجردًا من أي ألقاب في الخفاء والغرف المغلقة حيث سهرات الأنس والثمالة، وقد ساعد في ذلك أيضًا أن رين يكبر الملك نفسه بسنين ليست بالقليلة؛ فقد كانت الشائعات دائمًا تصل إلى مسامع راين عندما كان يأتي لحضور اجتماع الكبار في صغره أنَّ الرجل قد بلغ من العمر مائة عام أو أكثر؛ فتساءل في تعجب كم يبلغ الآن من العمر، لكن رين نفسه على الأرجح لا يعلم وهكذا ظن راين.

أشار الملك لراين بالجلوس قبالته على المائدة قبل أن يسأله راين في هدوء وحذر: هل يسمح لي مولاي باقتراح أمر ما؟

عمَّ هدوء وصمت قاتلين قبل أن يقول راين متبعًا بتردد: إنني فقط لا تعجبني فكرة أن هناك من يتربص بنا لدرجة وصول سم إلى طعامنا بهذا الشكل الفج الذي يسيء إلى جلالتك في المقام الأول لذا....

فقاطعه أوبيرون دون أن يلتفت إليه، وتسلل الخبث من بين أسنانه قائلًا: أوه لا تقلق، سنعلم كل شيء قريبًا.

وغمغم بصوت غير مسموع: سنعلم جميعًا.

قبل أن يعيد ملأ كأسه متجرعًا إياها بشراهة حتى أن راين شعر بالشفقة على معدة الرجل، وقد غزاه التوجس أيضًا إثر كلماته الأخيرة، ومرت

الدقائق تباعًا والملك ورين يتسامران ببهجة عن أمور أقل ما يقال عنها أنها نجسة، تحط من قدر الإنسان ليتساوى مع الدواب، وربَّما كان في ذلك إهانة للدواب.

شعر راين بضيق واختناق قبل أن يتساءل: ماذا كان نيكولاس ليفعل لو كان مكانه؟

أكان سيلبي الدعوة من الأساس أم أنه كان ليدعي النوم ثم إذا أشرقت الشمس اعتذر لهم وكأن شيئًا لم يكن؟!

قاطع حبل أفكر راين وسلسلة الأنس المتصلة بين أوبيرون ورين طرقات الباب، وقد تسللت الهمهمات من خلفه قبل أن يأذن أوبيرون لمن خلفه بالدخول.

دلف إلى الحجرة فارس شاب بدين، بدت أمارات الطيبة عليه، ثمَّ مال إلى أذن أوبيرون وبدأ يهمس فيها، ولاحظ راين المآلات التي آل لها وجه الملك وقد صبغ حمرة لشدة غضبه، ونفرت عروق وجنته حتى انتهى الحارس واعتدل في وقفته قبل أن يرمق أوبيرون راين بنظرة شعر راين بأنها غضب كالجحيم أو كهدير السماء، ورأى الشرر يتطاير من عينيه قبل أن يشير نحو الباب المفتوح خلف ظهر راين؛ فدلف الغرفة بسرعة عدد من الجنود، وقبل أن يدرك راين كانت الأغلال قد عانقت يده عناقًا باردًا لا مشاعر فيه.

هتف الجندي من الذين امتثلوا خلفه وقد بدا أعلاهم رتبة: راين فالكون، أنت رهن الاعتقال لتآمرك ضد المملكة ومحاولتك لاغتيال الأميرة.

كانت كلمات الحارس كدلو من الماء سكب على رأس راين في قلب زمهرير الشتاء دون رحمة؛ فصاح في دهشة: عن أيَّة مؤامرة تتحدثون؟! لقد وصلت إلى العاصمة منذ عدة أيام فقط.

نهض أوبيرون وصاح بحنق: وفر كلامك للمحكمة يا ابن فالكون.

ثم أولاهم ظهره قائلًا: والآن اغرب عن وجهي.

همَّ الحراس بأخذه لكنه هدر في تعجب: أجننتم أم لعب الشراب في عقولكم؟!

أقول لكم أني دخلت مدينتكم هذه قبل عدة أيام لا أكثر، لم أمتلك الوقت حتى لأخطط لذلك، أتعون ما تقولون من الأساس؟!

لكن الحراس دفعوه أرضًا، وجرُّوه خلفهم وهو لا يكف عن إطلاق سيل من الاعتراضات والسباب متخليًا عن وقاره وآدابه كسيد.

لم يلتفت رين لكنه قال بصوت باهت كالشمعة التي أوشكت على الانطفاء أمامه: يا للطفل المسكين!

رفع الحراس راين بعدما كنسوا به أرض القصر ودفعوه أمامهم بعنف وجفاء يقتادونه نحو زنازين القصر الخاصة، أو كما كنت أطلق عليها بغرف الجحيم لأكثر سجن محصن في القارة كلها، عدة زنازين تحت الأرض تعد على أصابع اليد الواحدة أعدت خصيصًا للنزلاء المميزين،

كان ملوك أفالون مؤمنين فعلًا بالحكمة التي تقول "اجعل حلفاءك قريبين وأعداءك أقرب" لكنهم عدلوا عليها فأضافوا كلمة واحدة "وجثث أعدائك أقرب."

كان باب غرف الجحيم بابًا سريًا في طرفٍ من أطراف حرم القصر قلة من يعرفون مكانه، فربطت رأس راين بقطعة قماشية سوداء مبتلة فلم يبصر إلى أين يقتادونه، لكنه كان متأكدًا أنه سمع صرير باب حديدي صدئ وصوت ارتطام مكتوم لكتلة ما بالعشب قبل أن يبدأوا بإنزاله سلمًا شديد الانحدار، وعندما انتهى السلم ساروا به بشكل مستقيم قبل أن يقفوا لوهلة ويسمع صوت احتكاك قطع معدنية صغيرة ببعضها البعض.

ثمَّ دفعه الحارسان إلى الأمام بعد أن فكت الأغلال عن يده فسقط أرضًا، وسريعًا أزال الغطاء عن رأسه فلم يختلف الوضع كثيرًا، وشعر بعينه تسبح في الظلام عدا تلك البقعة التي أضاءتها الشمعة بين يدي الحارس على استحياء، ثمَّ لمح ابتسامته الحادة وسط الظلام وسمع أحدهم يقول: ستمكث هنا لفترة يا.... سيد فالكون.

وانطلقت ضحكاتهم مستهزئين به سويًا قبل أن يخرجوا من المكان، وبعد أن سمع صوت انغلاق الباب نهَض وأحب أن يعرف أبعاد المكان الذي يحيط به؛ ففي ظل الظلام الدامس الذي غرق فيه المكان بعد خروج الحراس أصبح لا يبصر يده ولو ألصقها بوجهه إلا بصعوبة.

فنهض وأخذ يمشي بشكل مستقيم إلى الأمام بحذر حتى شعر ببرودة القضبان المعدنية تلامس أطراف أصابع قدمه؛ فسكن في مكانه لوهلة قبل أن يرجع رأسه إليها بأسى ويجثم أرضًا، وبدأت رائحة العطن وأجزاء الخبز المتعفن تجتاح أنفه كوحش فتاك حتى أنه لم يستطع منع نفسه من إفراغ ما في معدته، قال لنفسه أنه لو قارن روائح حانة الضواحي بهذه الرائحة لبدت الحانة كمكان راقٍ للنبلاء.

أدرك أخيرًا لماذا لقبت بغرف الجحيم؛ فهم لن يعذبوك ضربًا بالسياط أو حرقًا، فالعذاب هنا من نوعٍ خاص، لا بصر لا سمع، لا بشر، ولا شيء سوى الظلام، والظلام والسكون، والموت.

اعتدل في جلسته وأرجأ رأسه لقضبان الزنزانة وقال بذبول: لا يمكن أن أموت هنا.

لم يكمل جملته حتى سمع صوتًا مكتومًا بفعل حائل ما، مال بظهره قليلًا وشحذ سمعه فإذا به يتحسس صوتًا يقول له: هاي أنت.

فعاد كما كان وقال بسخرية: رائع، والآن بدأت أهذي.

علا الصوت مرة أخرى قائلًا: أنت يا أحمق، ألا تسمعني!

أدرك راين أنه هذه المرة لا يتوهم شيئًا؛ فأخذ يتحرك على ركبتيه قائلًا بتوجس: أهناك أحد ما؟

- هنا أيها الأصم.

فأدرك مصدر الصوت أخيرًا، وأخذ يتحرك في الظلام حتى اصطدم بجدار الزنزانة وتراجع قليلًا وأخذ يمسح رأسه بتأفف قبل أن يتابع الصوت: أخيرًا!

بدت معالم الصوت تتضح أكثر، وقد أدرك راين أنه صوت فتاة آتٍ من الزنزانة المجاورة له.

قالت الفتاة بصوت مبحوح بعض الشيء: سمعت الحرس ينادونك بفالكون.

فأرجأ راين ظهره إلى الجدار في حزن وقال: نعم فالكون، الأمير راين، الوريث السابق لإقليم الجنوب على ما أعتقد.

لم يكن راين ساخرً ا بطبعه لكن الظروف التي مر بها كانت لتغير أعتى الرجال ولو كانت إرادته أصلب من الفولاذ، دار بخلده أنه لو لم يكن أميرًا لكانت حياته أبسط بكثير، وراح يحسد العوام من الناس على حظهم الذي لم يوقعهم بمكانه.

قالت الفتاة من جانب الجدار الآخر بقلق: أتعرف شخصًا يدعى جون فالكون؟!

رد راين وقد انطفأ نور عقله: إنه ابن عمي، بالطبع أعرفه.

سمع صوت نهوض الفتاة، وشعر بها قد التصقت بالحائط من خلفه قبل أن تقول بلهفة: أين هو؟ أهو بخير؟

- لا أعلم؛ فقد تركنا قبل دخولنا للقصر.

عادت الفتاة كما كانت قبل أن يبادرها راين قائلًا: هل لي أن أعرف من أنتِ، أو على الأقل ما الذي يهمك بجون؟

خرجت الأحرف منها مخلوطة بالآلام، وتسرب الأسى عبر صخور الحائط عندما قالت: أدعى ريتا، حمقاء ذات حظ عاثر.

- إذًا فنحن لا نختلف عن بعضنا كثيرًا.

قالت ريتا بعد زفير طويل: قابلت جون منذ عامين تقريبًا، أنقذ والدتي وقتها.

ثم تابعت بنبرة فاضت بالأسى وقاطعها البكاء: لكنها قتلت بعدها على أية حال.

أسند راين ظهره ورفع رأسه متأملًا الظلام بنظرة جوفاء وقال: حظٌ عاثر.

ثم ضحك ضحكة خفيفة، وقال بسخرية: يا للأقدار!

غمغمت ريتا: وما الذي أتى بك إلى هنا؟

رد راين ببرود: يتهمونني بقتل الفتاة التي أحبها.

فتساءلت ريتا في تعجب: أهي ذات أهمية لدرجة أن يلقوا بك في هذا المكان؟!

زفر راين ثم قال: إنها الأميرة فيورا.

- قابلت الكثير من الغرائب لكن هذا من أغرب ما سمعت، أن تحب ابنة عدوك، يا لك من بائس!

ثم أتبعت بحسرة: على الأقل أنت تعلم تحديدًا لماذا أنت هنا.

ورفعت رأسها وسط الفارغ قائلة: لكني لا أعلم سوى أنني سأتعفن هنا وحيدة.

- لا تقلقي، لن تتعفني وحدك.

عمَّ الصمت قليلًا، والذي كان صوتي ريتا وراين هما الدخيلان عليه، فالصمت هنا هو المضيف وهو صاحب الأرض.

قال راين بتردد: إذًا ما الذي يهمك بجون لتلك الدرجة؟! أأنت....

لم يكمل راين جملته فقد قاطعته ريتا قائلة: أحبه؟

- لم أكن لأسأل عن ذلك لكن....

فسكت راين هنيهة قبل أن تومئ ريتا ساخرة بصوتها، مُتذكرةً الأيام الخوالي قائلة: لقد حلَّ جون ضيفًا على حياتي في أصعب وقت مر بي، فكما أخبرتك أنه أنقذ أمي وأقام جنازة أبي، وكان إلى جانبي في أصعب الظروف.

سكتت قليلًا قبل أن تتسلل الحسرة من بين أنفاسها قائلة: بالطبع أحبه، لكني لم أكن أدرك ذلك وقتها.

وخفت صوتها قليلًا، ثمَّ تابعت: فنحن لا ندرك قيمة الشيء إلا بعد فقدانه.

سكتت برهة، وخنق النحيب صوتها قبل أن تردف: لقد خنت حبه؛ فبعد رحيله أتي مجموعة من الرجال إلى القرية وقتلوا أمي، وأنزلوا بي أشد ألوان العذاب كي أفصح لهم عن الشخص الذي عالجها.

ضمَّت ركبتيها إلى صدرها، وانكمشت إلى الحائط بحزن قائلة: لم أتحمل وبحت لهم بأنه جون، ليتهم قتلوني مع أمي.

وأجهشت بالبكاء.

شعر راين بالأسى عليها، وقد أخذ كلامها يكون رابضًا في عقله، فلا بد أن الذين وضعوا جائزة على رأسه هم نفسهم الذي قتلوا والدة ريتا إذا كان كلامها صحيحًا.

جال ببال راين سؤال محير، ماذا ستقول فيورا بعد معرفة ما حدث؟

بالطبع لن تصدق أنه سيقدم على فعل شيء كهذا، فأي قدرٍ ملعون سيكون لو فعلت؟! ألن تكتفي الأقدار بما أصابه؟

أستزيد قلبه ألمًا فوق ألمه؟

كان قد أنهى حديثه مع ريتا وأخذ يغالب النوم بصعوبة حتى نال منه، وفي منامه رأى صورة لنفسه أكبر سنًا وتقف أمامه في العدم كصورة هلامية.

التفتت له صورته قائلة: لم نكن محظوظين من البداية يا صديقي.

نظر راين إلى صورته وقد بدت في عقدها الرابع وقال: لن أعيش لأرى نفسي مختمرًا هكذا، يا للبؤس!

بدأ العدم يُملأ النجوم، ونظرت له صورته في قلب عينه بشدة وقالت: عندما كنت في مثل سنك كنت أعلق كل شيء على الأقدار والحظ العاثر وأفعال الآخرين.

صمتت الصورة للحظة قبل أن تكمل بعين ملتمعة: إن أفعالك هي التي تحدد قدرك؛ لذا توقف عن النحيب كالأطفال فمصيرك أنت من قُدت نفسه إليه وليس أي أحد غيرك.

ثمَّ تبخرت صورته، وانفجرت النجوم في الأفق ليستيقظ في قلب الظلام قبل أن تدركه النيران، ومرت الأيام تباعًا واعتاد فيها راين الظلام ورائحة العطن، وفقد حاسة تذوقه، وأصبح كالجرذ، يأكل فتات الخبز المتعفن القاسي الذي كان يلقيه له الحراس، واعتاد آلام أمعائه الصارخة بعد كل وجبة، هذا إن سمح لك ضميرك بتسمية فتات الخبز المتعفن بلفظة وجبة.

شعر بشعره قد زحف أسفل عينيه، وبلحيته الشعثاء، وأخذ يتحسس وجهه في ضعف حتى أدرك أنه فقد أغلب وزنه، ولربما بدت كلاب الضواحي أكثر آدمية منه في تلك اللحظة، ومع مرور الوقت قلت أحاديثه مع ريتا وبدأ الظلام يأكل روحه بلا هوادة، ثم أخذ يسمع همهمات في العدم القابع أمامه، وحتى النوم أصبح حالُه حال نور الشمس الذي لم يره منذ أُودع هذا المكان، فلا يدري أيخشى على سلامة عقله من قلة النوم أم يخشى من عقله نفسه الذي بدأ يصور له أبشع صور الموت في منامه!

انتفخت شفتاه وجف حلقه، وأصبح صوته كقتيل يلفظ آخر أنفاسه.

مرت عدة أيام أخرى عجز راين عن عدها قبل أن يسمع صوت الباب المعدني قد فتح، وبدأ الحراس يهبطون الدرج حاملين المشاعل التي بدأت تقتل الظلام، تكوَّم راين على نفسه في ركن الزنزانة وغطى عينيه بكم سترته التي أصبحت رثة قبل أن يكبله الحرس ويحملوه إلى الخارج، وأثناء خروجه التفت إلى الزنزانة بجواره، ولما لمحها كانت ريتا في مؤخرة الزنزانة تحاول إبصاره من خلال الضوء، فكانت كأطلال فتاة جميلة بشعر أرجواني باهت أشعث، ولا تختلف عن راين في الباقي كثيرًا، وطفى على وجهها شبح ابتسامة قبل أن يجر الحرس راين عبر السلم نحو حرم القصر.

كانت الشمس تستعد للإشراق وقتها فشعر بالارتياح؛ لأنه سيحافظ على بصره، إلا أنه كان ما يزال حساسًا للضوء، أدخلوه غرفة قبل أن يقول له أحد الحراس: ستجد على المنضدة ما تأكله، بعدها قم بتبديل ملابسك فمحاكمتك بعد ساعات.

وأغلق الباب خلفه بقسوة.

التفت راين سريعًا نحو المنضدة فوجد إبريق ماء بارد وقطعة من الخبز الطازج؛ فانقضَّ عليها سريعًا وأخذ يلتهمُ الخبز ويتجرَّع الماء ككلب مسعور، كانت النكهات رغم بساطتها تقع على لسانه كالشهد، وأقسم في نفسه أنهم لو ملأوا له الصحن بعشب حرم القصر لكان أفضل مما كان يأكله أثناء حبسه، انتهى سريعًا من تناول طعامه، ثم أخذ يبدل

ملابسه بأخرى كانت موجودة في خزانة الغرفة، وبعد أن انتهى تمامًا وقف أمام زجاج النافذة، وأخذ يرمق صورته الباهتة عليها قبل أن يجلس إلى الكرسي منتظرًا المحاكمة المزعومة، وعندما اكتمل شروق الشمس كانت عينا راين قد اعتادتا الضوء.

فتح بابه فجأة وسرعان ما دلف الحرس إلى الغرفة، وقيدوا كلتا يديه واقتادوه إلى قاعة العرش، كانت الهمهمات والنظرات تلاحقه أثناء طريقهم، صعدوا السلم العريض من الطابق الأرضي ومشوا في رواق واسع انتهى ببوابةٍ ضخمة مهيبة.

سُمع صوت الحاجب من الداخل وقد نادى بدخول المتهم؛ ففتحت أبواب القاعة كاشفة عن حشدين من الناس يمينًا ويسارًا، يتوسطهم ممر مشى فيه راين بإعياء جارًا قدمًا خلف الأخرى حتى وصل إلى منصة المتهم، وتعالت الهمهمات، وسُمع صياح من أطراف القاعة في نهاية الحشد الأيمن قائلًا: يا إلهي، سيدي ماذا فعلوا بك؟!

رفع راين رأسه بتثاقل فأبصر بعين نصف مفتوحة روز بصورة مشوشة وبجانبها كالي ولوران وقد جُردوا جميعًا من دروعهم وأسلحتهم، وبجانبهم صف من حراس الملك، وصاح فيها أحد الحراس زاجرًا: صه يا امرأة، وإلا ألحقتك بسيدك.

تقدمت روز خطوة بعصبية قبل أن يقول لها كالي برصانة وحزم: كفى يا روز، ألا تعين الموقف الذي نحن فيه؟!

فتراجعت إلى مكانها بحنق بالغ.

تعالت الأنغام والتهليلات من الحشد معلنةً وصول الملك الذي حيَّا الناس بوجه جامد قبل أن يجلس إلى عرشه، وكانت هيئة المحكمة مكونة من السيد هنري تورس عن يمين الملك، والعجوز رين أدوراي عن يساره، وأخيرًا الملك أوبيرون بنفسه هو القاضي، ولم يشعر راين أنه من الإجحاف أن يكون أحدٌ من طرف المجني عليه هو من سيبتُّ في هذه القضية، بل ربما سعى أوبيرون لذلك لينزل بالمذنب أشد العقوبة.

كان نظام المحاكمة بسيطًا، إذ ينادي الحاجب على الشهود فيدلون بشهادتهم مستعرضين ما لديهم من أدلة إن وجدت، وإن لم يستطع المتهم دحض الأدلة والشهود أنزلت به العقوبة.

- إن الأمر بهذه البساطة!

هكذا خاطب راين نفسه قبل أن يشير الملك إلى الحاجب؛ فنادى على الشاهد الأول قائلًا: كبير طباخي القصر، السيد توماس.

فخرج من الحشد رجلٌ بدين ضخم الجثة، وأخذ يتقدم بذعر قبل أن يقف مرتعبًا أمام هيئة المحكمة، وقد غزا العرق جسده وارتعشت أطرافه قبل أن يقول أوبيرون برتابة وبرود: سيد توماس، أسمعنا شهادتك.

بدأ الرجل حديثه بتلعثم وتردد قائلًا: سس... سيدي.. كان ما حدث قبل الوليمة بعدة ساعات.

أخذ يمسح العرق من جبينه وأمسكت يداه ببعضهما البعض بشدة، وتابع: أتاني السيد راين وأعطاني قارورة صغيرة، وأخبرني أن أضع محتوياتها في طعام جلالتها.

تعالت الهمهمات بين الحضور وصاح لوران: كاذب!!

هدر أوبيرون في الحضور: صمتًا يا حمقى.

وأشار للشاهد الذي زاد رعبه، وأخذ يتابع حديثه متلفتًا: سيدي، إن ابنتي مصابة بمرض نادر وقد وعدني بالتكفل بعلاجها إن فعلت.

ثم انهار أرضًا وبدأ ينحب كالرضع: سامحني، أرجوك يا مولاي، أرجوك.

أطلق راين صفير إعجاب وغمغم: يا له من أداء!

وفطن إلى أنهم رتبوا كل شيء، وأنَّ ما يجري أمامه ليس سوى عرض مسرحي محدد الوقت، وربما كان الجلاد يسنُّ سيفه في الخارج الآن.

قال أوبيرون بصوت رخيم: لقد منحتك عفوي لصدقك يا توماس، لكنك ستترك هذا القصر حالًا.

سكت برهة وضيَّق عينيه قائلًا: بالطبع تدرك أني هكذا أعطف عليك.

أخذ الرجل يمسح دموعه، ثمَّ نهض بوجنة حمراء وعين منتفخة وقال بصوت خنقه البكاء: أشكرك يا مولاي، أشكرك.

صاح الحاجب في الشاهد الثاني الحارس نولان، والذي بعكس توماس تمامًا كان ثابتًا كالجبل، أخذ يشقُّ الطريق بظهر منتصب، وخطوات

واثقة حتى أنه لو كان أي أحد مكان راين لكذَّب نفسه وصدَّق أيًا كان ما سيقوله نولان.

أشار له أوبيرون فاستهلَّ حديثه برصانة قائلًا: كنت قد بدأت التحقيق كما أمرت يا مولاي، وأخذتُ أفتش غرف الضيوف تباعًا حتى وجدت هذه في غرفة المتهم.

وأشار سريعًا لأحد الحراس؛ فتقدم مناولًا الملك قارورة زجاجية كبيرة، حملت بداخلها مادة شفافة، ذات قوام ثخين كالزيت.

تابع الحارس: بعدما وجدناها في غرفة المتهم عرضناها على توماس فأكَّد أنها المادة ذاتها التي أخبره بأن يضعها في طعام جلالتها؛ فتأكدت الشبهة وحبس المتهم، بعدها أرسلت عينة منها إلى كبير الخيميائيين في العاصمة والذي أكد أنها مادة شديدة السُّمية.

أطلق راين ضحكة مستهزئة عالية، حتى أن عينيه دمعتا من فرط الضحك فسكت الشاهد وتوقفت همهمات الحضور، ورفع راين يديه المكبلتين نحو وجهه، وأخذ يمسح دموعه قائلًا: أعتذر، هلا أكملت.

قال أحد الحرس من القابِعين أمام الملك بحزم: أظهر احترامًا في حضرة الملك.

- إذن، هلا أذِن لي جلالته بالحديث.

التفت أوبيرون لنولان وسأله: هل لديك ما تضيفه؟

- لا يا سيدي.

فنظر إلى راين بوجه ممتعض وقال: تفضل.

ملأ راين صدره بالهواء قبل أن يترك سخريته السابقة، ويضع قناع الجدية على وجهه قائلًا: يقول الشاهد الأول أنني أتيته قبل الحفل بساعات وناولته السم ليدسه للأميرة.

والتفت إلى الحضور قائلًا: أليس هذا ما قاله؟

مال السيد تورس بظهره إلى الأمام قليلًا وقال: سيد راين، هلا دخلت في صلب الموضوع رجاءً فجلالته لا يملك اليوم بطوله لسماعك؟!

رمقه راين بنظرة ازدراء وتابع: لقد كنت طوال ذلك اليوم برفقة السيد رولون ابن أخ جلالته، ليس هذا فحسب بل إننا لم نتوجه إلى القصر إلا قبل العشاء بدقائق معدودة، ثمَّ إننا عندما دخلنا القصر توجهنا نحو قاعة الطعام فورًا.

ثم أولى ظهره للحشد خلفه قائلًا: وقبل كل هذا فقد حضر هؤلاء السادة سباق الخيول الذي أقيم على شرف وصولنا حتى دنت الشمس من المغيب.

فسأل أوبيرون الحاجب أمامه: هل السيد رولون موجود؟

فشق أحدهم الحشد ليظهر رولون متوجهًا نحو صدر القاعة، وانحنى أمام الملك قائلًا: تحت أمر جلالتك.

- حسبك يا بني.

اعتدل رولون بوجهٍ ذابل ممتعض، ولم يرفع عينه عن الأرض.

قال أوبيرون: هل ما يقوله المتهم صحيح؟

كوَّر رولون قبضة يده، وأخذ يشد عليها حتى برزت عروقها بشدة، وتسللت الأحرف من بين شفتيه بصوت خفيض قائلًا: كلا.

فصعق راين في مكانه وصاحت روز: كاذب، لقد كنَّا برفقتك طوال اليوم؟

التفت أوبيرون لروز قائلًا: كلمة أخرى بلا إذن وسأقطع رقابكم، نحن في محكمة ولسنا في حظيرة.

فتراجعت روز إلى الخلف وأخذت تعض لسانها من شدة الغيظ.

رفع أوبيرون رأسه إلى الحضور قائلًا: إن المتهم يقول أنكم رأيتموه قبل الحادثة في سباق الخيول، هل هناك منكم من يستطيع إثبات صحة كلامه؟!

تعالت الهمهمات وسط الحشد، والتفت راين إليهم بلهفة لكن أحدًا منهم لم يفتح فمه، أخذ يقلب نظره بينهم فلم ير سوى وجوه خائفة مذعورة أو وجوه منفرجة الأسارير بابتسامات حادة.

- عد مكانك يا رولون.

فأخذ يجر أقدامه بظهرٍ محني، ونفس مكسورة وعندما مر براين غمغم بصوت مكتوم: آسف.

واتجه نحو مؤخرة الحشد بخطىً حثيثة.

أرجأ أوبيرون وجنته إلى كفه قائلًا: أهناك من تود أن تستعين بشهادته؟!

أخذ راين يلتفت حوله كالمجنون، يتسول أن يفتح أحدهم فمه فتنتهي تلك المهزلة قبل أن يدرك أن الجميع قد خذله.

وراح يقلب الأفكار في رأسه فلم يجد ما قد يفيده، وقبل أن يستسلم تمامًا تذكر ما قالته له روز في حفل العشاء؛ فالتفت للملك بعين ملتمعة وقال: نعم أود أن أستعين بشهادة روز تشالدين.

قلَّب أوبيرون عينه بين الحضور قبل أن يسأل: وأين هي؟

فقالت روز رافعة يدها: هنا يا سيدي.

فالتفت وغمغم: أسمعينا ما لديكِ.

فتقدمت روز من طرف القاعة الأيمن حيث كانت برفقة كالي ولوران نحو الملك قبل أن تقف أمامه قائلة: عندما استدعتني جلالة الأميرة إلى جناحها الخاص، وقبل أن أصل إلى غرفتها تهتُ بين أروقة القصر.

وأخذت تستجمع ذاكرتها قائلة: وقتها سمعت صوتًا صادرًا من إحدى الغرف لرجل يحثُ آخر على دس شيء في طعام الأميرة.

أخذ الحشد من خلفها يتوتر، وتعالت الهمهمات لكنها تابعت: أحدهم كان صوت السيد توماس وقد تأكدتُ من ذلك بعدما سمعته منذ لحظات، أمَّا الآخر فصوته أقرب لصوت السيد تورس.

وضع هنري يده على صدره مزيفًا تفاجُأه وقال: أتلقين بالتهم إلي جزافًا.

وكالأفعى قال ماطًا أواخر كلامه: إن حبي لآل بيت الملك معروف، وما كنت لأوذيهم.

والتفت إلى أوبيرون قائلًا: أليس كذلك يا سيدي؟!

لم يلتفت له أوبيرون وسأل روز: أهناك من سمع هذا غيرك؟!

أمسكت روز بساعد يدها قائلة في توتر: كلا.

- إذًا فشهادتك لا يعتد بها.

- لكن سيدي....

- قلت إلى مكانك، لقد اكتفيت من تدنيسك لنظام المحكمة.

فتراجعت روز إلى مكانها جارَّةً خلفها أذيال الخيبة والضياع، أمَّا تورس فقد ارتسمت ابتسامة حادة على محياه وأخذ يرمقهم بتشفي، وعلى يسار الملك راح رين يطلق شخيرًا مكتومًا وقد نام الرجل في مكانه؛ فلكزه أوبيرون ففتح عينه البيضاء بتثاقل قبل أن يعتدل في جلسته، أشار أوبيرون للحاجب فصاح: وأخيرًا كلمة المجني عليها.

خرجت فيورا من وسط الحشد كالشمس وقت الكسوف، ترمق راين والحسرة تنهمر من عينيها، وتمشي ببطء عبر الممر ناظرة إلى الأرض في إعياء، وبعد أن وصلت أمام هيئة المحكمة رفعت وجهها نحو أبيها فظهر ذبول وجهها وانتفاخ عينيها.

سأل أوبيرون: أتعتقدين أن المتهم الماثل أمامك هو من فعلها؟!

غمغمت بنبرة جوفاء: لا يمكن.

ثم خفضت رأسها أرضًا بعين جاحظة مفتوحة، كانت الصدمة بالنسبة لها سيد الموقف وقد تهدم كل شيء من أمامها، فراين هو الشخص

الوحيد الذي تنزع أمامه رداء الملكية، هو الشخص الوحيد الذي يعلم من تكون حقًا، كان قد سكن قلبها منذ زمن وهامت به حتى أنها لعنت اسم عائلتها الذي حال بينهما، وأقسمت على تغيير المملكة فقط من أجله، فكيف يفعل هذا بها؟!

إذا خسرت راين ماذا سيبقى في الحياة لتعيش من أجله وقد دفنت أحلامها ووأدت آمالها وهي في مهدها؟!،

بعد سماع الخبر السقيم توقَّف عقلها عن العمل، رافضًا تصديق ما حدث فتحولت إلى دمية، جسد بلا روح ترغمها الوصيفات على تناول الطعام، وأصبحت لا تدرك ليلًا من نهار فيزورها النوم ليالٍ عدة، ثم يتركها دونه لليال أخرى.

حتى أن حضورها للمحاكمة هي أول مرة تغادر فيها غرفتها منذ ذلك الحين، جثت على ركبتيها وصاحت مستغيثة: أرجوك يا أبي، راين لن يفعل ذلك، أرجوك صدقني.

غمغم راين من خلفها: لا عليك، لقد انتهى كل شيء.

ابتسم لها، وقد فرَّت دمعة من عينه قبل أن يشير أوبيرون للحرس فحملوها خارج القاعة رغمًا عنها، ثم نظر إلى راين ببرود وقال: ألديك شيء آخر تدافع به عن نفسك؟

علم راين أن مصيره محتوم، وأنه لن يجد في هذا المكان أيَّة عدالة تنصفه؛ فليس في يديه شيء الآن غير أن ينتظر نهاية العرض أيًا كانت، وقرر أن يجرب حظه للمرة الأخيرة فربما أضاف هذا لنهاية القصة

طعمًا من نوع خاص فالتفت إلى الملك قائلًا: سؤال واحد يا سيدي، ما الدافع لدي لقتل الأميرة؟

ثمَّ علا صوته وقال ضاغطًا على حروفه: أرى أنكم تُمسِكون بالشخص الخطأ هنا؛ فأنا لن أتخلص من خصم شرس في وراثة العرش مثلًا، فلو ماتت لن أرثها ولا يربطني بها أي شيء، ولن يعود قتلها علي بأي منفعة.

فخرج صوت رين متعبًا قائلًا: أقدر سؤالك يا بني لكن لماذا قد نبحث عن دافع من الأساس وقد وجد سلاح الجريمة في غرفتك؟!

فحتى لو اعتبرت أن شهادة السيد توماس باطلة كونه الوحيد الشاهد على حديثك معه؛ فسلاح الجريمة دليل كافٍ.

رمق راين أوبيرون بنظرة متهكمة، وقد علم أنه لا خلاص له ثم قال: أكمل هذه المهزلة وأنه ما بدأته.

زفر أوبيرون وقال: في ظلِّ ما استمعنا إليه قررتُ الآتي، أولًا تمديد مدة تحديد إقامة حرس المتهم الثلاثة إلى حين إثبات تورطهم من عدمه، ثانيًا ربط المتهم راين فالكون بسحر الأقدار وإعدامه بتهمة الخيانة.

هتف الحضور في فرحة: يحيا العدل، الموت للخونة!

وبشعارات أخرى مؤيدة لعدالة الملك.

وفي وسط الحشد لمح راين تورون خارجًا من القاعة بوجه يقطر شرًا، وقد طفت على وجهه ابتسامة تشفِّي حادة ففهم ما حدث وأخذت الصورة تكتمل في عقله، قوطعت التهليلات بصوت استلال سيوفٍ جعل الملك يقف منتصبًا جاذبًا رين من يده، أما السيد تورس فقد اختبأ

خلف العرش في ذعر، وكانت روز قد ضربت ركبة جندي بجانبها واستلَّت سيفه قبل أن تجهز عليه.

اتجه نحوهم ثلاثة حراس سريعًا قبل أن يصيح الملك: اقتلوهم!

فهوى أحدهم بضربة نحو لوران، وتفاداها قبل أن يتأبط يد الحارس وأخذ يضرب معصمه حتى ترك السيف، وتناول لوران السيف وراح يصدُّ ضربات الحراس برفقة روز، ثم تبعهم كالي بذلك.

صاح كالي شاقًا طريقه نحو راين: من يفكر في مس شعرة من راين ستكون آخر مرة يفكر فيها.

ثم نجحوا بالوصول إلى راين قبل أن تحيطهم كتائب الحرس الملكي بالدروع الضخمة والرماح.

قال أوبيرون بصوت يقطر كبرًا: لا أمل لكم في النجاة، استسلموا الآن وأعدك أني سأرفق بكم.

صاح راين من بينهم: افعلوا ما يقوله لكم، ليس هناك داعٍ لموتكم أيضًا.

تجاهلوا كلماته وسرعان ما اشتعل القتال بضراوة، كسرت روز أحد الرماح الموجهة نحوها، وسحبت حامله بباقي الرمح المكسور، وبخفة فصلت رأسه عن جسده قبل أن تلتقط رأس الرمح الذي سقط ورمته على ساق جندي آخر بجوارها؛ فخرَّ أرضًا وسرعان ما شقت عنقه، ومن خلفها سمعت صراخ لوران فالتفتت لتجد أحد الرماح قد اخترقه بشكل جانبي.

شعرت برعشة سرت في جسدها وهزة سريعة من خلفها؛ فلم تدرك ما حدث قبل أن تبصر رأس رمح انبثقت من صدرها فبدأت البرودة تنسلُّ إلى بدنها، قبل أن يُسحب الرمح لتخر على الأرض قائلة بصوت متحشرج: سيدي!

لم يكن كالي أفضل حالًا منها، كان يتلفت حوله مبصرًا جثث زميليه وقد أخذ يصدُّ الضربات المنهالة عليه بلا دروع، فحتى مع مهارته الفذَّة فالواقع واقعٌ في النهاية، وقد كان هو نفسه متيقنًا من ذلك مع اختراق سهم لرقبته أرداه قتيلًا.

وبيدين مُكبلتين هبط راين، وراح يرمُق أعينهم المنطفئة بحسرة قبل أن يهزَّ جثثهم باكيًا وهو يقول: لماذا لم تفعلوا ما أمرتكم به؟!

وقبل أن يهدأ الموقف في قاعة العرش أشار أوبيرون فدخل ثلاثة رجال بملابس سوداء فضفاضة وأوجه مغطاة بأقنعة الجماجم، ومن خلفهم حمل أحدهم دلوًا، واستمرَّ ماشيًا بحذر.

اقترب الجنود من راين، ثمَّ أمسكوه وخلعوا عنه قميصه قبل أن يقترب اثنان من أصحاب الملابس الفضفاضة نحو الدلو وبدأوا بترديد كلمات بصوت أثيري مرعب، وبعدما انتهوا أخرج ثالثهم فرشاةً وغمسها في المادة التي بدت زيتية سوداء، وأخذ يقربها من صدر راين حتى لامسته فشعر بألم حارق لا يوصف.

أخذ راين يتشنج ألمًا بين أيدي الفرسان الذين ثبتوه بعناية قبل أن ينتهي الرجل من رسم جمجمة على صدره، وتحتها عبارات وأرقام بخط

ناعم غير واضح، وعندما انتهى من الرسم لم يحتمل جسد راين الألم أكثر من ذلك وقرر إعفاءه من مقاساة المزيد؛ فانسل الوعي منه وسقط أرضًا غائبًا عن الوعي.

صاح أوبيرون في الحشد: احتجزوه حتى صباح الغد، وعندها سيُنفذ الحكم.

***

جون

كان جون ما يزال مُعتلًا من أثر ما سمعه، وكان عقله مضطربًا ويكاد يشتعل بعشوائية، تاريخه كله مزور فلا مسوخ غزاة، ولا ملكٌ بطل، لا شيء حقيقي، حتى جدُّهم المؤسس لم يتقاعس إنما كان ترايتون طائشًا كالمراهقين لا أكثر، ليس هذا فحسب فالأساس الذي بنيت عليه المملكة كلها عبارة عن كذبة برع الأفالون في صياغتها، شعر بداخله بتقزز شديد نحو الملك وأتباعه، وبالحسرة على بني دمه المساكين الذين كانوا يبتلعون تضييق الأفالون عليهم كالجمر المستعر؛ معللين لذلك بأنه ضريبة تقصير الأجداد لا أكثر.

أفاق من دوامة أفكاره على صوت فينوس الذي قال له: والآن وقد أوفيت بوعدي، حان دورك.

نظر جون له بثبات قائلًا: ماذا تريدني أن أفعل؟

سكت فينوس برهة قبل أن ينظر نحو السلاسل بحنق قائلًا: لنبدأ بكسر هذه السلاسل اللعينة أولًا، لن تنكسر إلا بقوة الرموز، أتتذكرها؟

- بالطبع، لكن أتلك الرموز تعويذة من نوع ما؟

زفر فينوس بضجر قائلًا: ذلك حسب فهمكم السطحي للسحر أيها البشر، إنَّ الرمز الواحد يمكن أن يمثل عشرات الكلمات والمعاني؛ فنُطقي لرمز بطبقة صوت منخفضة قد يفعل أمرًا ما ولو صحت به بصوت عالٍ لفعل أمرًا آخر.

كان جون لم يستوعب كل كلام فينوس فقال له بصبرٍ نافِد: على كلٍ، كلُّ ما أحتاجه أن ترسم الرموز على الأرض بدمك وتنتظر تعليماتي.

أومأ جون إيجابًا، وبخفة جرح يده بلا تردد وبدأ يرسم على الأرض تلك الخطوط الحادة التي تشبه تشققات الأرض بنسق معين، كان يتخيل الأرض الصخرية كجدار غرفته في المقر؛ فراح يضع الرموز على الأرض بنفس ترتيبها على الجدار، وبعد دقائق كان جون قد انتهَى ووقف نصف منتصب، وقد مال ظهره كنباتٍ جاف متآكل، يوشكُ أن ينهار من فرط التعب والإعياء.

غمغم فينوس بارتياح: أحسنت، والآن اقطع قطعتي قماش من سترتك وبللهما قبل أن تسُد بهما أذنيك بإحكام، هذا إذا كنت تريد الحفاظ على سمعك.

تراجع جون إلى حافة الغرفة عند بابها وفعل كما أمره فينوس، وبدأ فينوس يصيح بصوت عميق رنان يدخلُ إلى الأفئدة فيسحقها لشدة

حدته، وأخذ المكان يهتزُّ بشدة وتساقطت بعض صخور السقف، شعر جون بالجلادور قد اهتاج حول معصمه بأعين محمرة فغمغم: سحر أسود؟!

غزاه التوجس مع استمرار فينوس في ترديد حروفه ببطء وشدة، فهو لم يسمع أبدًا لغة كهذه بل بالأحرى لم يكن متأكدًا إذا كانت هذه لغة من الأساس، وراح صوت فينوس يعلو أكثر وأكثر حتى شعر جون بطبلتي أذنه تكادان تنفجران، وبدأ الألم يتسرب منهُما إلى باقي جسده فشعر كأن أحدهم يصب صهير الفولاذ في أذنيه.

وضع كلتا يديه على أذنه وبدأ يصيح من شدة الألم، ولعلو صوت فينوس لم يستطع جون حتى سماع صيحاته، ثمَّ تصدعت الأرض أمامه وبدأت مخيلة جون تنسج له أبشع طرق الموت، حتى بدأت السلاسل تتوهج وشيئًا فشيئًا راحت التصدعات تغزوها بالتدريج؛ فرفع فينوس من حدة صوته أكثر وهنا لم يتمالك جون نفسه فسقط مغشيًا عليه، وشعر بألم شديد في رأسه وكأن أحدهم أخذ يضربها بمطرقة حدادة مسندًا إيَّاه إلى سندان، وعندها استيقظ جون.

أخذت أنفه تتحسَّس الهواء من حوله فإذا برائحة شذًا طيب تداعبه بلطف، وبعين نصف مفتوحة أبصَر المكان من حوله فوجد نفسه مستلقيًا على أرض غرفته في الحانة الفارهة وأسفله الدوائر السحرية كما رسمها، نهض بتثاقل فصدمت قدمه الجرة أو على الأقل ما بقي منها، وشعر بشيء غريب يحيط بوجهه فتحسسه ليجد لحيته قد طالت.

غمغم متعجبًا: كم مضى من الوقت وأنا ممددٌ هكذا؟

كان قد تناسى ألمه قليلًا لكنه عندما أدرك مكانه واطمأنَّ تمامًا عاوده الألم ليغزوه من جديد؛ فأمسك برأسه وأخذ يطلق صيحات مكتومة قبل أن يسمع صوتًا عن يساره يقول: أقلقتنا عليك يا رجل.

كان الصوت مألوفًا، مرعبًا، شيطانيًا.

التفت لمصدر الصوت فإذا به فينوس بهيئته المرعبة، وعينه السوداء، وبشرته الدموية، اقترب منه بقوائمه الشبيهة بالغزلان قبل أن يقول له جون بإعياء: ماذا ستفعل الآن؟!

إن كنت تود قتلي الآن فلا أمانع.

ضيَّق فينوس عينيه قائلًا بلؤم: أقتلك؟!

أنت لم تفي بطرفك من الاتفاق بعد فكيف أفعل ذلك؟

غمغم جون متعجبًا: ألم أحررك! ماذا تريد مني أيضًا؟

ردَّ فينوس بوداعة لا تليق بهيئته: تذكر اتفاقنا، أنا أجيب عن تساؤلاتك وأنت...

- أحررك.

لمعت أنياب فينوس، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة حادة ثم قال: أقلت ذلك؟

وبخبث تابع: لم أحدد أبدًا أنَّ هذا فقط ما أحتاجك لأجله.

صاح فيه جون بغيظ: اللعنة عليك!

- هدئ من روعك يا رجل، واستمع لما لدي فأنا متأكد أنه سيروق لك.

اعتدل جون في جلسته وقال بامتعاض: كلي آذان صاغية.

زفر فينوس، ثم قال: كل ما أريده هو أن أذيق الأفالون من نفس الكأس التي سقوها لنا.

هنا هدأ روع جون قليلًا، وبدا مهتمًا بما يرمي إليه فينوس؛ فهو قد علم الحقيقة، علم لماذا وضعوا كل تلك الأموال على رأسه، لقد اعتقدوا أنه أدرك حقيقتهم ولربما ريتا لديهم الآن كما رأى في أحلامه وقد أجبرت على إخبارهم بكل ما حدث، وفي حين أنه قد وصل إلى الحقيقة الآن فقد تحققت أسوأ مخاوفهم وامتلأت نفسه عن آخرها بكراهية الأفالون، وعلى غير عادته نحى المنطق جانبًا وقال: تريد أن تعقد اتفاقًا مع أتروبوس لتقضي به عليهم؟

- تعجبني ذاكرتك يا عزيزي.

- وستضحي بي لإتمام العقد؟

ضحك فينوس بشدة حتى اهتزت أركان الغرفة، وأمسك ببطنه ألمًا من فرط الضحك قبل أن يقول: تظن أنك ثمن كافي لإبادة عائلة الأفالون بأسرها؟!

ثمَّ استعاد بعض جديته وتابع: أحتاجك لإتمام العقد، هذا صحيح لكن اعذرني فلن تساوي عنده شيئًا لأضحي بك.

سكت برهة وأردف بتوتر: لدي تعويذة ستحلُّ أمر التضحية، لا عليك.

التفت فينوس ونظر عبر النافذة قائلًا: يوشك الوقت على النفاد.

فسأل جون بتوجس: أي وقت؟

نظر له فينوس بملل لاعنًا جهل البشر، وقال متهكمًا: أتعتقد أن عظيمًا كأتروبوس يفتح بابه كهذا طوال الوقت؟

وأشار للسماء ثم أردف: يمكننا فقط مناداته أثناء اكتمال القمر، وحسب تقديري هذه آخر ليلة ذات قمر مكتمل هذا الشهر.

نظر جون له بتعجب قبل أن يقول: ولم العجلة؟!

لدي أصدقاء في العاصمة وقد يساعدوننا إذا انتظرنا، وإذا عرضت ما أخبرتني به على عائلتي والمملكة كلها فلن نحتاج لقوة أتروبوس من الأساس.

نظر له فينوس بتوجس، ثم قال: تعلم أن جزءًا من وعيي كان معك أغلب الوقت.

ثم نظر خارج الغرفة، وتابع: قبل أن تستيقظ درست هذه الاحتمالات، ورحت أقرأ أفكار الناس في المنطقة هنا، وأطراف قطاع الملك كما تسمونه.

بدا الترقب واضحًا على جون، ثم قال فينوس: لقد قتل الفرسان الثلاثة وأسر راين.

تحققت أسوأ مخاوف جون، وشعر بالدنيا تتهدم أمامه، ثمَّ أمسك برأسه وضمها بين ركبتيه وانكمش على نفسه في ذعر، أخذ يرتعد في مكانه حتى هدأ قليلًا، ثمَّ قام ببطء يلملمُ أغراضه فقال له فينوس: إلى أين؟

رد بصوت خافت منطفئ: يجب أن ننقذه.

وتابع فينوس كالصاعقة ليشلَّ حركة جون قائلًا: لقد حُكِم عليه بالإعدام وسينفذ الحكم في صباح الغد.

توقف جون أمامه وتجمدت ملامحه وأسر اليأس فؤاده، إن المرء لو حكم عليه بالإعدام خصوصًا لو كان شخصًا ذا أهمية كراين يطبق عليه سحر أسود يدعى بسحر المصير أو سحر الأقدار، وحدهم كهنة الموت من يستطيعون فعله، وهو ببساطة تضحية بباقي عمر الضحية مقابل تحديد موعد وفاته على ألا تتجاوز الأسبوع، وقتها يصبح أمر موته في ذلك التوقيت أمرًا حتميًا كطلوع الشمس من المشرق؛ فحتى لو هرب من السجن سيموت، ولو لم يُنفذ حكم الإعدام سيموت بطريقة أو بأخرى.

أكمل فينوس: لكن هناك طريقة لإنقاذه كما تعلم.

أضاءت كلمات فينوس بقعة في عقل جون فقال: أتروبوس!

ثم التفت إلى فينوس بقلب يتسول الخلاص قائلًا: أيمكن له أن يكسر سحر المصير؟

- بالطبع يمكنه، سأضيف شرطًا في عقدنا معه لننقذه.

وبحنق تابع: لكننا لن نستطيع مناداته إلا بعد شهر لو مكثنا هنا أكثر من ذلك.

فنهض جون نافضًا الغبار عن نفسه قائلًا بثبات: أنا معك وإن كلفني ذلك حياتي.

أومأ فينوس مبتسمًا، وطرقع أصابعه فإذا بجون يجد نفسه قد انتقل فوريًا إلى بحر من الرمال برفقة فينوس، وكانت علامات الدهشة لا تفارق جون الذي أحس بحضور غريب في هذه الصحراء فقد بدت له مألوفة جدًا، وأدرك متحسسًا رمالها أنها الصحراء المجهولة التي تدرب فيها على السحر برفقة معلمه كين.

التفت له فينوس قائلًا: هذه قوة السحر القديم، لا تقلق ستعتاد عليها.

وبتلقائية بدأ ينظر يمنة ويسرة باحثًا عن شيء ما، ثمَّ تغيرت ملامحه وبدا كأنه قد وجد ضالته؛ فتحرك بثبات في اتجاه معين قبل أن يتبعه جون متعثرًا في الرمال.

تسارعت خطوات فينوس حتى توقف فجأة عند بقعة معينة من الرمال بدت مستوية بلا كثبان رملية، وراح جون يدقُّ الأرض من أسفله فإذا بها أرض شبه صخرية، بدأ التوجس يغزو جون فقد تدرب في هذا المكان ثلاث سنوات وخلالها لم يلق أي مكان كهذا.

قال فينوس بنبرة عملية جادة: استعد.

لم يدر جون لأي شيء يستعد لكنه ردَّد تعويذةً تفقده السمع لعدة دقائق، ولتحميه من طبقات صوت فينوس الحادة.

كان تخمينه في محله فسرعان ما بدأ فينوس يصيح بأحرف حادة وكلمات ثقيلة في نسق محدد، وبدأت الأرض تهتز من تحت أقدامهم بشدة حتى خاف جون أن تتصدع فتبتلعهم، جزءٌ من خوف جون قد

تحقق فقد بدأت الأرض من أمام فينوس تنفتح وتتشقق، وبدأ شيء يخرج ويرتفع رويدًا من قلب الرمال حتى توقف أخيرًا.

نظر جون إلى الشيء الذي خرج فكان أشبه ببابٍ صخري عملاق، ذا حلقتين دائريتين للسحب، وبرزت عليه أوجه صارخة منحوتة حتى بدت أنَّها ترمقُ أعماق الجحيم برعبٍ حقيقي، وعلى حافة الباب نقشت رموز ونقوش من لغاتٍ مختلفة لم يستطع جون قراءة أغلبها وميَّز الباقي بصعوبة؛ فاعتقد أنها من اللغات المندثرة كاللغة التي يستخدمها فينوس.

بدأ الباب يفتح ببطء شديد ونور ساطع وهاج كنور الشمس الذهبي يخرج منه؛ فغطى جون عينيه ولمح فينوس يتجه نحو الباب.

بدأ يحرك قدميه ليعبر برفقة فينوس؛ فالتحم جسده مع الضوء، وشعر بثقل بالغ على جسده، وراحت خطواته تتباطأ بشدة حتى انحسر النور عن عينيه وعاد كل شيء كما كان، وببطء فتح عينيه فانطبعت علامات الدهشة عليه لكن ليس وحده هذه المرة فقد كان فينوس مندهشًا هو الآخر بدوره، أبصر شقًا عملاقًا في الأرض على اتساع الأفق، مكونًا بحرًا من الظَّلام، أما هم فقد كانوا واقفين على حافة صخرية صغيرة، التفت جون خلفه فلم يجد الباب وأدرك أنهم ليسوا على حافة صغيرة وأنَّ ما كان أمامه ليس مجرد شق بل إنهم واقفون على قطعة دائرة من الصخر، بارزة في وسط بحرٍ من الظلام السرمدي في كل الاتجاهات.

رمق فينوس فوجده متعبًا بشدة، وبدأ العرق يتصبَّب منه بغزارة، وطبع الإعياء على محياه.

فقال له جون بقلق: أأنت بخير؟

أخذ يلهث، ثمَّ قال بصوت متقطع: لا عليك، إنها ضريبة فتح البوابة لا أكثر.

بلا مبالاة قال جون: جيد، ألقِ تعويذتك التي ستغنينا عن التضحية.

التفت فينوس نحو الظلام أمامهم وبدر الليلة قد تضاعف حجمه خلف فينوس عدة مرات، وتوسط صفحة المساء باثًا نوره إليهم قبل أن يقول فينوس: بشأن هذا؛ فقد كذبت عليك.

- ما الذي تقوله؟ أجئنا هنا لأجل لا شيء؟!

اعتدل فينوس في وقفته، واقترب من الحافة، ورمق الظلام بذعر وقلق، ثم قال: لا تقلق، ستحصل على مرادك.

والتفت له بجدية قائلًا: عدني أنك ستنتقم من الملك.

طفت على وجه جون علامات التعجب قبل أن يقول: ما الذي تقصده؟

فسكت فينوس، ورمق جون بنظرةٍ ثابتة والتردد بادٍ عليه على الرغم من هيئته الشيطانية، وأخذت الكلمات تترابط في عقل جون فأدرك ما يرمي إليه فينوس فقال: أعدك.

زفر فينوس بارتياح قبل أن يولي جون ظهره، ويترك نفسه للهواء مُلقيًا إياه في قلب السواد، وركض جون سريعًا نحو الحافَّة، ونظر في الظلام

فلم ير لفينوس أي أثر فقد كان الظلام قد ابتلعه، واعتدل جون في وقفته، ثمَّ وضع يده أمام صدره برسمية محييًا شجاعة فينوس.

عمَّ صمتٌ قاتل المكان، وراحت نسائم الهواء تداعب خصلات شعر جون الذي طال فقال في نفسه: أين العظيم؟ هل ذهبت تضحيته هباءً؟

وبطرف عينه لمح جون نقطة تشع بنور خافت وسط الظلام، ثم فجأة توسع ذلك النور وبدأ يلتهم الظلام من حوله، وصعدت أعمدة ذهبية في الأفق البعيد، وسرعان ما وجد النور يزحف إلى الأعلى؛ فتراجع مرتميًا على الأرض بسرعة قبل أن تطير من أمامه موجة من النور مصحوبة برياح عاتية أخذت تعصف بالمكان حتى غطى النور السماء وتوقَّف كل شيء على ذلك.

توهج النور مُصدِرًا صوتًا مجهولًا وقال: أنت أمامه.

كان صوتًا عظيمًا، أثيريًا، دافئًا، صوت كهل حكيم، بل امرأة شابة، أو ربما طفل صغير، أو وحش فتاك، كان مزيجًا عجيبًا لن تصفه الكلمات، ولن يسع عقل جون المسكين احتواء هيبة الموقف لكنَّه تحامل على نفسه وتذكَّر ما أتى لأجله فصاح بخوف: أيها العظيم، أرجوك أنقذ صديقي وانتقم من الأفالون.

توهج النور مرة أخرى قائلًا: لن أقدر على ذلك؛ فالعظيم لا يكسر بند عقد قد أبرمه.

صاح جون في نفسه: أي عقد؟!

لم يخبرني فينوس بذلك.

توهج النور مرة أخرى قائلًا: منذ ثلاثة آلاف عام عقد معي الملك ترايتون عقدًا يقتضي أن أقضي على الأعراق التي حاربته، وأضاف بندًا في نهاية العهد ينصُّ على ألا يبرم عقدٌ يتطلب أذية لبني دمه.

سكت هنيهة ثم أردف: وقتها كان الثمن الذي قدمه خمسين ألفًا من فقراء البشر، ولن يكفي هذا لكل ما طلبه فأعفيتُ الشيطان المغفل من الموت لكنه استاق نفسه إليه على كل حال.

حملت كلماته لجون حمم اليأس، وشعر بأشواكه تلتفُّ حول عنقه قبل أن يقول بيأس: ألا يمكنك إنقاذ راين فقط؟

- إن صديقك قد طبق عليه سحر المصائر، ما الثمن الذي تقدمه لكسره؟

نهض جون من مكانه بعصبية وصاح قائلًا: ألم يضحي فينوس بنفسه؟ ألا يكفيك هذا؟!

خرجت نار من وسط النور، وبدا أن كلماته قد أغضبت أتروبوس الذي صاح بحنق: أتعتقد أنني صديقك لتستدعيني من قلب سباتي أيها البشري الوضيع؟! سأكون كريمًا لو اعتبرت حياة الشيطان ثمنًا لإيقاظي.

فتقدم جون عدة خطوات نحو النار الملتهبة وقال بثبات: سأضحي بنفسي.

علت النار حتى طالت أجزاءً من جون فارتمى أرضًا وعلامات الذعر قد ارتسمت على وجهه وأخذ الخوف ينهش كيانه.

قال أتروبوس بحنق بالغ: أكسر سحر المصائر الملعون مقابل بشري واحد؟! لقد تماديت في إهانتي أيها البشري.

على الرغم من البياض والسطوع إلا أن الدنيا بدت أمام جون أسود من قاع المكحلة، ونظر نحو الضوء بنظرةٍ جوفاء فقال أتروبوس: أرى أنك قد أيقظتني وأنت لا تملك الثمن، فلتعلم مكانك أيها المنحط.

وببطء انبعث شعاع ضوء نحوه، ثم بدفءٍ بالغ عانقه بهدوء وتسللت دمعة من عينيه قبل أن يتوسَّع ذلك الضوء ليكتنِف جسده كله، وبدأت يده تذوب ببطء وراح جذعه يتحلل، أمام عينيه رأى أباه وأمه، رأى أخته بفستان زفافها وبجانبها لورنس يبتسمان ببهجة، رأى كارل الصغير يلعب في الحديقة بوداعة، وتحركت شفتاه ببطء قائلًا بصوت متحشرج: اللعنة على السحر... اللعنة على الرموز!

فظهرت ريتا أمامه ورأى نفسه يعيش معها في كوخ صيد بسيط، ظهرت أمامه صورته كرجل عجوز بجانبه ريتا وقد شاخت معه وحولهما أبنائهما وأحفادهما يلعبون ويتراقصون.

- كانت لتكون حياة سعيدة.

وقبل أن ينتهي كل شيء كان قلبه قد رفع الراية البيضاء، وأعلنت الحياة انسحابها من جسده تاركة إياه كومة من التراب.

***

راين

مرَّت ساعات على راين قبل أن يستيقظ في ذات الحجرة التي جهز فيها نفسه قبل المحاكمة، وشعر بألم حارق يغزو صدره فنظر إلى مصدر الألم فأبصر الجمجمة السوداء وأسفلها الأحرف الناعمة.

حادث نفسه بيأس قائلًا: سحر المصائر.

لقد تمَّ تحديد كل شيء وأصبح أمر موته حتميًا، فتدفقت الذكريات تباعًا أمام عقله وشعر بقلبه يعتصر ألمًا عندما تذكر فرسانه، دعت عيناه وقبل أن يأنَّ فتح الباب فجأة، التفت خلفه فوجد الأمير تورون هو من دلف إلى الغرفة، أشار تورون إلى الحارس خلف الباب فقام بإغلاقه سريعًا، وأخذ راين يرمه باحتقار وتقزز وبصق أرضًا بجانبه قبل أن يتراجع للخلف قليلًا.

قال تورون بسخرية: أخفت مني بهذه السرعة؟!

ابتسم راين وقال بهدوء: لا أخافك لكن الخزي معدٍ، وأخاف أن تصيبني به.

تبدَّلت ملامح تورون ونفرت عروق جبينه قائلًا: تباهى بلسانك يا أحمق، أتيت فقط لأتشفى فيك، وأعدك أن ألحِق باقي عائلتك بك.

ثم ابتسم قائلًا بخبث: فأنا من رتب لك كل هذا.

كان هذا متوقعًا من تورون بالطبع لكن أحدًا لن يجرؤ على اتهامه بذلك، وكان راين قد خمَّن ادعاء تورون بالفعل فلم تبد الدهشة عليه قبل أن

يتابع تورون وتباهي: أردت أن أسحق الحمقاء الصغيرة، وبعدها أفرغ لكم أيها الفالكون، لكن حظها قد انتشلها في آخر لحظة أمَّا حظك أنت فلم يكن كذلك.

وأخذ يضحك بسخرية هزت أرجاء الغرفة قبل أن يردف: علاج ابنة توماس، وكيس من الذهب كان كفيلًا بشراء الحارس، وسار كل شيء بسلاسة لم أتوقعها أنا حتى.

ثم أولاه ظهره قائلًا بابتسامة لزجة: تمتع بآخر ساعاتك.

أغلق الباب، وسمعه يضحك بسخرية في الخارج؛ فشعر راين بثقل على صدره وتمنى لو تشرق الشمس فيموت سريعًا.

إنَّ عذاب الإعدام لا يكمُن في مصير الموت لكنه في الساعات التي تسبقه؛ فقد بدأ عقله يتفكر في حياته كلها واختياراته وما آل إليه حاله بسبب أفعاله، وبدأ الندم يتسلل إلى فؤاده ببطء ليشلَّ روحه كحية تلتف حول ضحيتها، وتمنَّى راين لو يموت الآن قبل الغد، تمنى لو تركض الساعات كالحصان الفحمي الذي فاز بالسباق، كلها أمانٍ وكلها لن تتحقق.

لم تكن الساعات ثقيلة لفراغها؛ فبالعكس كانت مليئة بالبؤس والعذاب لذا كانت ضيفًا ثقيلًا عليه، منذ صغره تمنَّى لو يكون مزارعًا أو أحد أبناء العامة، كان ليحب فتاة عادية ويتزوج منها ببساطة، كان ليستمتع بالحياة كما لم يفعل، كلها أحلام وكلها لن تتحقق!

طرق الباب هذه المرة، ثمَّ فتح بسرعة فالتفت فإذا به الجندي السَّمح الذي بلغ الملك بوجود أمر ما في حجرته، مد يده في جيبه مناولًا إياه قارورة حملت سائلًا ذا لون أخضر نافذ، وبسرعة قال: هنا خلاصك، اشربها مع شروق الشمس.

أخذها منه راين غير مستوعب لما يحدث قبل أن يخرج الحارس سريعًا، تأمل الزجاجة ونظر إلى السائل بداخلها فلم يعلم كنهه لكنه قال في نفسه: أي شيء أولا شيء.

أخذ يتجول في الغرفة بلا هدف حتى ظهر قرص الشمس بخجل في طرف السماء، وسمع جلبة وهمهمات في الخارج فابتلع السائل وألقى الزجاجة أسفل الفراش، وكان السائل ثخينًا لزجًا، ذا طعم شديد المرارة لكن راين تحامل على نفسه وأخذ يملأ فمه بالهواء محاولًا تغيير ذلك الطعم المر.

مرَّت دقائق عدة قبل أن يفتح باب غرفته لتمتلئ بالحرس عن آخرها؛ فخلعوا عنه الحلة الفاخرة التي ألبسوه إيَّاها في المحكمة قبل أن يضعوا عليه حلةً أخرى زيتية، باهتة، رثة، تملؤها الثقوب، ويتسرب الهواء إليها من كل جانب.

بالطبع لا يريدون لخائنٍ أن يظهر أمام الناس بمظهر حسن، أرادوا أن يجعلوه عبرة للناس كأن لسان حالهم يقول: هذا مصير من يحاول الفرار منا.

ثم جروه لخارج الحجرة حتى مشوا في رواق طويل، متجهين نحو مخرج إلى حرم القصر حيث نصبت منصة خاصة لهذا اليوم، وسمح للعامة بالحضور، وعندما وصلوا إلى الباب المؤدي للخارج وجد السيد تورس أمامه يبتسم بتشفيٍ قبل أن يشير إلى الحرس قائلًا: اتركوه يتحرك وحده.

فابتعد عنه الحرس قبل أن يجر راين قدمه نحو المخرج، وعندما مر بتورس سمعه يغمغم: إذا أردت أن تلعن أحدًا فالعن صديقك الذي يعبث فيما لا يعنيه.

فاتسعت عينا راين قبل أن يدفعه أحد الحرس صائحًا: ما الذي تنتظره؟ هيا تحرك.

فخرج بملامح أحدَّ من السيف، وفرد ظهره متقدمًا بصدر منفوخ في مشية كلها أنفة وهيبة.

بدت آخر مرة سيرى فيها السماء كأنه يبصرها لأول مرة، وداعبت نسمات الهواء وجهه مواسيةً إياه بلطف، وأدرك في كل شيء حوله جمالًا لم يكن يراه من قبل، كان أمام المنصة حشود من العامة، وعلى أطرافها جلس النبلاء؛ فتقدم راين نحو منتصف الساحة بيدين مكبلتين وأقدام تجر خلفها رطلًا من السلاسل، رافعًا رأسه في فخر وثبات، وما إن انتصف المنصة صاحت الحشود: خائن، عليك اللعنة، الموت للخونة!

حتى أن بعضهم ألقى عليه بعض الثمار الفاسدة، دلف أوبيرون عبر الباب وجلس إلى كرسيه بهدوء قبل أن يشير لحرسه فنفخ بوقٌ بصوتٍ عالٍ أسكت الجميع، دلف من جانب المنصة فارسٌ ذو درعٍ سوداء قاتمة، وعلى رأسه قناع الجلادين القماشي الأسود ذو الفتحتين، ثم اقترب من منتصف الساحة حتى كان أقربهم لراين.

صاح الحاجب: إن الماثل أمامكم قد دخل بيت الملك ففتح له بابه وآواه في كنفه وطَعِموا سويًا على مائدة واحدة، لكن الخيانة تجري في دمائهم مجرى الدم في العروق، فقد خان أمانة جلالته وتآمر لقتل سيدته وأميرة مملكتنا المحبوبة فيورا.

صاح الحشد بشدة: خائن، خائن.

فتابع الحاجب: ليس هذا فحسب بل إنه أنكر كل التهم، وحرَّض حرسه على قتل جلالة الملك حتى بعد ثبوت جميع الأدلة بما لا يدع مجالًا للشك.

ثمَّ علا صوته أكثر وأكثر مردفًا: وعملًا بقرار جلالة الملك أوبيرون سينزل به حكم الإعدام.

فصاح العامة أمام المنصة: يعيش الملك، الموت للخونة، فليحيا العدل!

قال راين في نفسه: تستحقون ما يفعله بكم أوبيرون وأكثر، اللعنة عليكم!

أشار الملك لهم بالبدء فنفخ في البوق مرة ثانية، وعمَّ صمت قاتل تبعه خوف وترقب أخرس الجميع، ثمَّ تقدم الجلاد نحو راين الذي جثا على ركبتيه قبل أن يستل الفارس سيفه الفولاذي الداكن المعروف بسيف الخونة، كان سيفًا أسود لامعًا، وعرف أنه استخدم في الإعدامات منذ القدم ولم ير أحدٌ مثله على مر العصور، أو هكذا كانت الشائعات تقول.

رفع الجلاد سيفه عاليًا قبل أن يشعر راين بيد تمس كتفه فالتفَّ بطرف عينه فإذا هي صورة هلامية لجون، كان يبتسم له بدفء قبل أن يختفي كالغبار المتطاير، وقبل أن يهوي الفارس بسيفه على عنقه كان راين قد سقط أرضًا وسال اللعاب من فمه فعلت الهمهمات وسط الحضور، كان تورون متكئًا بكتفه على جانب الباب فقال ساخرًا: يبدو أن الخوف قد نال منه.

ثم ضحك هازئًا مما يحدث، لكن أوبيرون كان غاضبًا بحق فهدر بالحراس: أحضروا الطبيب وكبير السحرة في الحال.

ثم قام من مجلسه وصاح فيهم بغضب كالرعد: بسرعة يا حمقى!

كانا في الحضور بالفعل فلم يستغرق إحضارهما سوى دقائق معدودة غزا فيها التوتر الهواء، وصعدا المنصة وبدأ كل منهما يفحص راين قبل أن يتجها نحوه ببطء وخوف.

بدأ الطبيب الحديث قائلًا في تردد: حالة تسمم يا سيدي.

صاح فيهم أوبيرون بغضب: عالجوه يا حمقى، يجب أن يشهد الجميع إعدامه.

فرد كبير السحرة بتلعثم قائلًا: لك... لكنه يا سيدي.

قاطعه أوبيرون: لا توجد أعذار، أريد أن يتم هذا الإعدام مهما كان الثمن.

بدت ملامح الطبيب أكبر بعدَّة عقود من فرط الذعر عندما قال: إننا نقصد أنه... قد فارق الحياة بالفعل.

ركل أوبيرون الطاولة الصغيرة أمامه صائحًا: عليك اللعنة يا ابن فالكون!

لقد دمَّر راين بغير قصد منه الصورة التي كان يريد الملك حفرها في عقول الناس، فحتى ولو مات فقد مات متحديًا له باختيار طريقة موته بنفسه فأهانه إهانةً لا تغتفر، وألصق به العار وسط حاشيته.

صاح أوبيرون بوجه يكاد ينفجر غضبًا: اقطعوا رأس الخائن وعلقوها في ساحة الحدادين كي يراها الناس.

وبالفعل تقدم الجلاد وفصل الرأس عن الجثة الهامدة مفقدًا الإدام هيبته المنتظرة فلم يهلل إلا عدد قليل من الناس.

***

أوبيرون

غادر أوبيرون المنصة بحنق متجهًا لحجرة العرش، وأخذ يهدر بغضب في كل من يقابله، أما تورون فقد راح يمثل بجثة راين ببلاهة وأمارات النصر بادية عليه، وجلس أوبيرون على عرشه، ثمَّ صاح في حارس البوابة قائلًا: استدع السيد رين والسيد تورس فورًا.

- عُلِم يا سيدي.

وخرج الحارس من الحجرة سريعًا كي ينفذ ما آمر به.

نهض أوبيرون، ثمَّ اتجه إلى غرفة الاجتماعات خلف قاعة العرش وأخذ يشرب النبيذ لاعنًا آل فالكون وما سببوه له من صداع في الرأس، ولم تمر نصف ساعة حتى دقَّ باب الغرفة قبل أن يأذن أوبيرون للطارق بالدخول؛ فدلف كل من رين وتورس بظهور منحنية ووجوه شابها الخوف والتوتر.

أشار لهم بالجلوس، ثمَّ قال: اجتماع الكبار قد ألغي، وأعتقد أنه لا حاجة لشرح السبب.

بدأ يقلب نظره بينهما، ثمَّ أردف: بضعة أيام وسيكون ما حدث حديث المملكة كلها بالطبع، آل فالكون لن يقفوا مكتوفي الأيدي.

قال تورس في تردد وخبث: إذا سمح لي مولاي لدي اقتراح بهذا الشأن.

أشار له أوبيرون بأن يُكمِل ما لديه فتابع: أنا أرى أنه لا حاجة لنا لتلطيخ أيدينا في أمر كهذا.

فتعجَّب أوبيرون قبل أن يتابع تورس: أرى أن ترسل في طلب جيوش عائلة موتيوم شمالًا ودالي جنوبًا وكلهم يدينون لنا بالولاء، ونكون نحن فرقةً صغيرة على رأسها مولاي تورون ليقود بها الجيش كله.

سكت للحظات مفكرًا قبل أن يدلي تورس بالمزيد من تفاصيل خطته قائلًا: هكذا لن نتكبد خسائر تمويل جيش كبير، وفي نفس الوقت تقاد الجيوش باسم جلالتكم.

نظر له أوبيرون وقد راقت له الفكرة؛ فقال بعد أن هدأت ثورته قليلًا: فليكن ذلك.

قال رين بصوته المنطفئ ببطء: بالطبع تعلم يا سيدي موقف عائلتنا من حرب كهذه؛ لذا إن احتجت المشورة فحاجتك عندي وأكثر من ذلك لن أستطيع.

- أقدر ذلك.

فبالفعل كانت عائلة آدوراي دومًا على حياد دائم من أي صراع داخلي، لذا كانت مشورة رين هي أقصى شيء يمكنه إمداده به.

أشار لهما بالانصراف قائلًا: اتركوني الآن.

همَّ تورس بالمغادرة لكنه انتظر قليلًا حتى خرج رين من الغرفة، ثمَّ التفت لأوبيرون قائلًا في تردد: شيءٌ آخر يا مولاي.

بنفاد صبر ردَّ أوبيرون: أسرع وهاتِ ما عندك.

مال تورس على أذنه، وأخذ يهمس فيها فتبدَّلت تعابير وجهه، وانفرجت أساريره، ثمَّ قال له: ما الذي تأكله ليبث بعقلك سمًا كهذا؟!

نظر له تورس مبتسمًا بلزوجة وقال: ما يرضي مولاي سآكله بالطبع.

- مرَّ على أمين النقد، وأخبره أن يصرف لك ألف ذهبية.

- هذا كرمٌ شديد من مولاي، لا أستطيع رفضه.

ثمَّ خرج تورس ببطء من الغرفة متجهًا لكبير كهنة القصر، ثمَّ خطَّ الرسائل لحلفاء الملك قبل أن تطير ثلاثة طيور من برج القصر.

***

مارك

كانت قلعة الدماء معقل آل دالي جنوب غرب العاصمة قبل نهر الريفز تقعُ على الشريط الحدودي بين أتروبوس وكروستافيا، ولم تمتلك أرضًا مميزة أو ثروة ذات قيمة كبيرة، بل كانت القلعة مكانًا لتجمُّع المرتزقة والفرسان الجائلين وغيرهم، وكان آل دالي سماسرة حرب كما يسمون أنفسهم، قلة من حلمة السيوف وكثير من حملة الذهب.

دخل فارس دون استئذان على سيد القلعة مارك دالي في غرفته أثناء تناوله الطعام؛ فهدر فيه بعصبية: ألا ترى الباب أيها الأحمق أم تعتقد نفسك في حظيرة مواشي؟!

قال الفارس لاهثًا بصوت متقطع: اعذرني يا سيدي لكن الأمر لا يحتمل التأخير.

أشار له مارك بالتقدُّم فاقترب منه الفارس مناولًا إياه رسالة، ثم قال: رسالة من العاصمة يا سيدي.

تناولها منه وفض ختمها وبدأ يقرأ:

من أوبيرون ملك أتروبوس إلى مارك أمير قلعة الدماء:

إنه لمن دواعي الأسى والحزن أن أرى فريقًا من أبناء شعبي يتمرد على طاعتي؛ لذا وقلبي يعتصر ألمًا آمرك بحق قسم عائلتك بالولاء للعرش أن تحشد جيوشك وتزحف شرقًا نحو فيلينيا، وهناك ستنتظر تجمع باقي القوات.

أغلق الرسالة بحنق، ثمَّ صاح: ذلك اللعين يريد أن يبقي يده نظيفة، وينهي أعماله القذرة بنا.

صاح في الجندي أمامه:

انشر الخبر في أرجاء القلعة، أريد عشرة آلاف محارب جاهزين للتحرك خلال ثلاثة أيام.

- علم يا سيدي.

***

نيكولاس

كان يومًا مشمسًا ودافئًا عندما جلس نيكولاس في غرفته وحيدًا وقد اجتاح الحزن كيانه إثر المرض الذي كان يفتك بزوجته ديانا، واحتار الأطباء والسحرة وحتى الخيميائيون في مرضها، ولم يعرفوا لها أي دواء فظلت طريحة الفراش تأكل من الطعام كما تأكل القطط؛ فخسرت

أغلب وزنها وشحب وجهها، وغاب شمس جمالها، وأصبحت لا تقوى على الحياة دون وصيفاتها.

طرق باب غرفته فصاح: إنني متعب، ماذا تريد؟!

فتسلَّل صوت الطارق مكتومًا من خلف الباب وقال: أمر عاجل يا مولاي.

باستسلام قال نيكولاس: ادخل إذًا.

دلف الفارس إلى الحجرة مناولًا نيكولاس رسالة دق عليها ختم الكشافة بلون أسود؛ فتعجب وأخذ القلق يشتعل في داخله، فختمُ الكشافة الأسود لا يأتي إليه إلا بالأخبار السيئة وقلَّما كانت تأتي إلى القصر.

أشار نيكولاس للفارس بالخروج، ثم فتح الرسالة وبدأ يقرأ:

بقلب يفيض حزنًا، آسف أن أقول لك أن ابنك راين قد فارق الحياة، أو كي أكون أكثر دقة تم إعدامه على يد الأفالون، جون مفقود ولا أخبار عنه حتى الآن.

لا زلت لا أعلم أغلب التفاصيل يا سيدي لكني متوجه إلى فيلينيا وهناك سأعرف كل شيء، توقع مني أخبارًا خلال الأيام الثلاثة المقبلة.

سقطت الورقة من يده، وراحت الدموع تسيل على لحيته الثلجية البيضاء قائلًا في حزن وأسى: إنها غلطتي، لم يكن يجب أن أرسلك من الأساس.

وأخذ يبكي وينتحب كالأطفال بصوت عالٍ، حتى أن الحرس في الخارج قد تعجبوا من الأمر.

سالت دموعه بغزارة، ومعها سال النور من عينيه شيئًا فشيئًا حتى انطفأت تمامًا وفقد بصره.

كانت الضغوطات عليه كفيلة بقتله، ومع تتالي المصائب على رأسه كان فقدان بصره رحمة ونعمة لا نقمة، ولربما أراح عماه عقله الذي كان يتسول بعض الراحة النفسية، لا أحد يدري.

مرَّ الوقت وهدأ روعه قليلًا بعد أن تركته الساعات الماضية بندب في قلبه طالت روحه فبدأت تنزف بلا توقف، وصاح في الحراس خارج الغرفة فدخلوها تباعًا ليجدوه يحملق في الأرض بعين مبيضة، وصاح فيهم بصوت مكتوم، وبنبرةٍ قاطعتها بقايا النحيب وقال: أرسلوا في طلب فرانك حالًا.

- علم يا سيدي.

ثم خرجوا من الغرفة تباعًا.

كان منزل فرانك بساحة أماليثيا، وبالقرب منه البيتُ الذي تزوجت في كلاوديا ولورنس.

اعتلى الفارس صهوة جواده، ولكزه ليطير به كالسهر من قصر فالكون بجنوب أماليثيا نحو ساحة المدينة الكبيرة، فتنقل سريعًا عبر الشوارع الواسعة التي ميزت الجنوب، وعندما وصل إلى السَّاحة توجه نحو منزل فرانك، ثمَّ ربط جواده سريعًا بأحد الأعمدة قبل أن يطرق باب

المنزل الخارجي بعنف، وسرعان ما فتحت له أحد الوصيفات ومن خلفها فرانك يتجه نحوه هادرًا: إني آتٍ أيها الأحمق ولن أتبخر.

ولما وصل له سدَّ بجثته أغلب عرض الباب، ثم نظر إلى الفارس بحنق قبل أن يبادره الفارسة بتردد قائلًا: إن السيد نيكولاس يريدك حالًا.

قال فرانك بتذمر: ألا يمكن أن ينتظر قليلًا؛ فأنا لم أتناول غدائي بعد؟

خفت صوت الفارس وخُنق صوته ثم غالب دموعه قائلًا: لقد فقد سيدي بصره بعد أن قرأ رسالة كشافة سوداء.

تجمد فرانك في مكانه، وفقد الإحساس بما حوله قبل أن يصيح في غير إدراك: الأولاد؟!

ثمَّ أمسك الفارس دون أن يشعر من ياقته التي برزت أسفل درعه ورفعه عاليًا، ثمَّ صاح فيه: أهما بخير؟ أخبرني.

تشبث الفارس بيد فرانك، وأخذ يضرب عليها بعين محمرة قبل أن يقول بصوت متحشرج: سأختنق...يا.... سيدي.

استعاد فرانك إدراكه فأنزل الفارس بسرعة قبل أن يقول له: عد إلى نيكولاس وسألحق بك.

بتعب فرك الفارس مؤخرة رأسه، ثمَّ عاد إلى قصر فالكون.

***

أراضي الظل

في بحر الظلام السرمدي، حول المنصة الصخرية التي تكومت في منتصفها كتل رملية كانت بقايا المسكين جون الذي كان لا يعلم أنَّ للمعرفة ثمنٌ غالٍ، أو كما يقولون (الجهل نعمة) لكن موته لم يكن بلا قيمة؛ فقد أيقظ من لا يؤمن له جانب ولا ترد له كلمة.

علا النور الوهاج من حول المنصة، واشتعلت النيران من قلبها بحرارة قبل أن يصدر صوت أتروبوس قائلًا: وبعد أن أيقظتني أيها البشري....

علت النار أكثر وأكثر، وعانقت ألسنة اللهب صخورَ المنصة قبل أن يقول: لنستمتع قليلًا.

***

مارك

طار حراس مارك في قلعة الدماء قاصدين الأسواق والحانات وغيرها من أماكن تجمع الجنود والفرسان، وصاحوا فيهم أن السيد مارك يعرض خمسين فضية لكل شخص ينضم لقواته التي ستتحرك خلال ثلاثة أيام، وعشرين فضية عن كل يوم يقضونه معه، وبعد مرور الأيام الثلاثة كان قد نجح في جمع تسعة آلاف فقط وهو ما أزعج مارك كثيرًا؛ فقد كان يكره الخنوع لأوامر أوبيرون عمومًا، ومع عدم تحقيقه للعدد المطلوب زاد هذا من حنقه بشدة.

تحركوا من قلعة الدماء بشكل مستقيم بمحاذاة نهر الريفز ليكون الماء متوافرًا لديهم بشكل دائم، وخلال سبعة أيام كانوا على مشارف فيلينا التي أغلقت أبوابها أمامهم؛ فأشار مارك لرُماته بإمطارهم بوابل من السهام إذا لم يفتح الباب مع انتهاء النهار، ولما انقضت ساعات النهار بلا رد وانطفأت أضواء المدينة تمامًا عكس عادتها علِم مارك قرارهم النهائي فانهالت عليهم السهام موجة تلو الأخرى، وكان مستشارو مارك قد أشاروا عليه بدخول المدينة واستباحتها لكنه رفض وقرر الانتظار حتى النهار ليرى ردة فعلهم.

لم ينتظر مجلس تجار فيلينا طلوع النهار ففي قلب الليل وأثناء راحة جنود مارك ارتفعت راية بيضاء من خلف السور قبل أن يفتح الباب، كانت حالة من الترقب تحيطهم، وأسرع أحد أتباع مارك بإبلاغه بما

يجري فخرج على عجالة من خيمته، واعتلى صهوة جواده، وانطلق نحو الجبهة.

كان الرجل قد انتظره في سهل أخضر يسبق بوابة المدينة حتى برز مارك من بين جنوده، ثمَّ أشار لأحد مستشاريه باتباعه قبل أن يقتربا منه بخيولهم، ولما وصلوا صاح الرجل: أريد الحديث مع قائد الجيش.

- أنت أمامه.

- لدي عرضٌ من مجلس المدينة أرجو أن تقبله؛ فلا أحد منا يريد سفك المزيد من الدماء.

- أتظن أن موقفكم يسمحُ لكم بطرح عرض علي؟

- لكن سيدي...

صاح مارك فيه زاجرًا: اسمع يا هذا، إن كان مجلسك هذا يريد منحي دخولًا آمنًا أو أي شيء من هذا القبيل فلا تضيع وقتك.

سكت برهة وأردف: لكن إن أردتم أن تعصموا دماءكم فلتسمع عرضي، سيمكث جيشي في مدينتكم لعدة أيام، خلالها ستوفرون الطعام والشراب للرجال وللخيول، و مائة فضية عن كل رجل تُسلم لي بنهاية كل يوم.

- هذا كثير جدًا يا سيدي.

- إن كانت حياتكم أغلى من ولائكم للفالكون فلترفعوا راية حمراء قبل غروب شمس الغد، وإلا فلتحفروا قبوركم من الآن.

ثم أولاه ظهره وانطلق عائدًا إلى معسكره قبل أن يلحق به مستشاره هامسًا: لكن سيدي ماذا لو تلاعبوا بنا؟

- أرسل جنودنا على رؤوس التلال حول المدينة، وأريد فرقة من السحرة جاهزة طوال الوقت.

- لكن مجلس السحرة يا سيدي منع استخدام السحر في هذه الحرب، والجلادورات سوف تُجهز على كل من يخالف.

- إذًا، ما الذي يفعلونه في جيشي؟

وقبل أن يجيبه المستشار صاح فيه: لا يهم، اتركني الآن.

ثمَّ عاد إلى خيمته، ومع طلوع شمس اليوم الجديد برزت راية حمراء من خلف السور، وفتحت أبواب المدينة على مصرعيها، وقبل أن يشير مارك لجنوده بالدخول تأكَّد من جنوده _الذين باتوا على رؤوس التلال_ من عدم وجود أي حركة غريبة في المدينة، وعمومًا فمدينة فيلينا لم تكن يومًا محلَّ نزاعٍ سياسي، وإنما ولاؤها لفالكون نابع من موقعها في إقليم الجنوب لا أكثر.

مع دخولهم رحَّب بهم المجلس، وبجميع قوات الشمال، وخفضوا جميع السلع الإضافية غير المتفقة عليها إلى النصف، ولم يملك مارك وقتًا للعب ولليالي الأنس والمجون التي تشتهر بها المدينة فقد كان عبقريًا تكتيكيًا بحق، وهو ما أعجب أوبيرون به دائمًا وكان يرى أنه لا ينقصه سوى جيش نظامي.

وسرعان ما حرك صفوف جنوده لجنوب المدينة، وأقام المتاريس على أطراف المراعي حيث ترعى أغلب ماشية المملكة فقطع بهذا أغلب مصادر اللحوم عن الجنوبيين، ووزع الفرق على الأطراف بالتساوي فكل فرقة تكوَّنت من خمسة مشاة ورجلين من الخيالة، وفي هذا المساء اشتعلت أضواء المدينة، وظهر الوجه الحقيقي لها من رقص وغناء حتى الثمالة.

كان مارك يتقزز من أجواء كتلك؛ فتوجه نحو خيمة القيادة وقضى ليلته فيها، وكان يحب أن يتخذ مكانًا مُرتفعًا لقيادة الجيوش حيث يمكنه أن يبصر ساحة المعركة بكل تفاصيلها، فأقام الخيمة على تبَّةٍ مرتفعة بشرق المدينة، كان يرى منها بسهولة أطراف فيلينيا الجنوبية وأرض المراعي.

مرَّ يومان بلا جديد، وفي اليوم الثالث وصلت قوات العاصمة والتي ذهب مارك لاستقبالها بنفسه، وما إن رآها تقلصت أمعاؤه وضاق صدره؛ فقد كانوا ألف رجل على رأسهم تورون، استطاع مارك دون عناء إحصاء صف لا يزيد عن الخمسين جندي، أمامهم صفٌ تكوَّن من خمسة فرسان، والباقي كان عبارة عن مهزلة.

صاح في نفسه أنه لو كانت هذه مسرحية لألقى الفاكهة الفاسدة عليهم كي يتوقف هذا الهراء، وهدر مارك بحنق قبل أن يصلوا إليه: كلهم من الفلاحين والعامة؟!

احمر وجهه، وبرزت عروقه حتى وصل الأمير إليه بدرعٍ ذهبية حاملًا خوذته بيده، مستعرضًا وسامته كالعادة بغرور، وأخذ مارك يعضُّ لسانه

بعصبية محييًا الأمير حتى شعر بطعم الدماء في فمه لكنه لم يبال فهذا أفضل من تهشيم رأس ذلك الأحمق هو وأبيه.

قال مختنقًا وقد فاحت رائحة النفاق من بين كلماته: مرحبًا بك يا سيدي، كنا بانتظارك.

لم يلتفت له تورون وقال باستعلاء: أين مقر القيادة؟

زاد حنق مارك قبل أن يقول: إنه فوق التبَّة الشرقية.

وقبل أن يأمره الأمير تورون بأي أمر قال على عجالة: كنت سأسعد بالمكوث معك أكثر يا سيدي، لكن اعذرني فيجب أن أتفقد المؤن.

فسَكت تورون لوهلة دون الالتفات له، ثمَّ أشار له بالذهاب.

كان يظن دائمًا أن تأخُّره في الرد على سائليه يضيف لكلماته أهمية من نوع خاص.

***

نيكولاس

دلف فرانك إلى حجرة نيكولاس، ثمَّ توقف أمامه وقد سرت في جسده رعشة من هول ما رآه، كان أخوه الأكبر بوجهٍ ناضب، شديد الكهولة، وقد تساقط شعره كله، وأخذ يحملق في الأفق بعين مبيضة.

جثا على ركبته، وأمسك يده بحزن قائلًا: ماذا حدث يا أخي؟!

قال نيكولاس بصوت باهت: فرانك!

أخذ يتحسس الهواء بيد مرتعشة قبل أن يقول: المنضدة.

فالتفت نحوها فإذا بخطاب الكشافة ذا الشمع الأسود فوقها، فتناوله وراحت عيناه تهيم بين الأحرف حتى أنهاه، جلس أرضًا وأسند ظهره للحائط من خلفه وغالب دموعه قائلًا: جون، راين! يا إلهي!

كانت أول مرة تدمع عيناه بهذا الشكل، سقط قلبه أرضًا متهشمًا ككتلة زجاجية، وشعر بالنار تأكل عقله وقد أعماه لهيب الانتقام، ونهض كجبل تضربه العواصف من كل مكان بلا هوادة، وصاح في الجنود خارج الغرفة فدلف أحدهم إليه فصاح فيه: أرسلوا في طلب الدعم من فيلينيا وغانيميل.

أومأ له إيجابًا وانطلق خارج الغرفة بسرعة لينفذ ما طلب منه، صاح فرانك بصوتٍ مكتوم من بين أسنانه: أقسم ألا يهدأ لي بال ولن يرف لي جفن قبل أن أروي الأرض بدمائهم.

أمَّا نيكولاس فكان مكانه على الكرسي كالغائب الحاضر، يرمق الموجودات بعين جاحظة ونظرة جوفاء، فاقدًا الإحساس بكل شيء.

***

هنري

لم يكن أحد قد أولى اهتمامًا لمرافقة السيد هنري تورس (مستشار الملك) لزمرة جنود الشمال، ولكن إن كان هناك رجل يستطيع العبث في المملكة بحق فهو تورس؛ فلا يوجد من هو أكثر منه نفوذًا في فيلينيا، وربما المملكة كلها، ففي فيلينيا هو تاجر قبل أن يكون من الساسة.

وصلت جنود عائلة موتيوم من أقصى الشمال في خمسة آلاف رجل، وقد اكتمل عدد الجيش الشمالي بهم بما لا يتعدى خمسة عشر ألف مقاتل، هذا إن اعتبرت أنَّ جنود العاصمة الآتين ـمن الضواحي لرفع الديون عنهمـ مُقاتلين من الأساس، فصدقني لو قلت إن أحدَّ نصلٍ قد سبق لهم استعماله هو منجل زراعة لا أكثر.

دخل تورس خيمة القادة بظهره المحني وكان آخر من دخلها.

كان مارك يقول: أرى أن نقسم جيوشنا إلى نصفين، نصف هنا في فيلينيا ونصف غرب أماليثيا، فلا يكون أمامهم سوى الهرب للممالك الخضراء أو الاستسلام.

قاطعه تورس بلا إذن قائلًا: لكن هذا سيدمر الصورة التي يسعى مولانا لحفرها في عقول الناس يا سيدي.

طالما كره مارك تورس بشدة وامتعض من ألاعيبه وطرقه الملتوية فردَّ بغيظ: من معرفتي لنيكولاس أعتقد أنه سيفضِّل الاستسلام عن الهرب إلى الممالك الخضراء، وهو ما يعتبر خيانة في عرفه.

توجه تورس بكلامه نحو الأمير متجاهلًا باقي القادة وقال: أتثق فيَّ يا مولاي؟

لمعت عينا تورون؛ فلا يوجد من يروق له أكثر من تورس ـوبعد أن رتب اغتيال الأميرة وألحقه ببراعة بإعدام راين اكتسب احترامًا بالغًا لديهـ وقال: بالطبع.

قال تورس بمكر: لدي طريقةٌ تضمن لنا دخول المدينة بلا أي مقاومة.

كان السيد بيلي موتيوم مقاتلًا من الصف الأول لكنه لم يتقن التخطيط قط؛ لذا اكتفى بسماع القادة والتعلم منهم في مثل هكذا مجالس، لكن هذه المرة غزاه الفضول، وأحبَّ أن يشارك في المجلس فقال: هلَّا أطلعتنا عليها يا سيدي؟

نظر له تورس بابتسامة حادة كالسكين قائلًا: إنها تقتضي أن تبقى سرية.

صاح مارك وقد نفد صبره: اسمع يا رجل، لن أضع حياة جنودي بين يدي رجل معتوه؛ فإمَّا أن تُطلعنا على خطتك المزعومة أو اغرب عن وجهي في الحال، ودعنا نمارس عملنا.

أخذ تورس يقلب نظره بين مارك وتورون فقال تورون زاجرًا: إن أخذت ما قلته توًا يا مارك على محمل الجد لأمرتُ بقطعِ رأسك بلا تردد.

كاد رأسُ مارك ينفجِرُ من فرط الانفعال قبل أن يُردِف تورون: لكني أعتقد أنَّك تمازح السيد تورس، أليس كذلك؟

وعاضًّا على أسنانه ـحتى كاد يحطمهاـ قال مارك: بل هو كذلك يا سيدي.

أكمل تورون: إن السَّيد تورس يملكُ ثقة والدي وثقتي المطلقة.

- يسعدني ذلك يا سيدي.

اقترب تورس منه وهمس في أذنه ببضعِ كلمات قبل أن يومئ تورون إيجابًا في فهم، ثمَّ بعد انتهاء تورس صاح تورون في القادة: سنتحرَّكُ بجميع قواتنا جنوبًا بعد يومين.

ضرب مارك الطاولة بيده في حنق، ثمَّ خرج من الخيمة دون قول أي شيء ولربما فعله لذلك أنقذه من بطش تورون الذي كان ليعدمه هذه المرة حقًا، وعندما خرج الجميع من الخيمة كان تورس هو آخر الخارجين، التفت بريبة حول الخيمة كأفعى زاحفة وفي ظهر الخيمة وجد أحدهم في انتظاره، كان رجلًا في نهاية عقده الخامس، بدينًا، يسبحُ في ملابسه الفضفاضة البيضاء التي طُرزت بخيوط الذهب، وبرزت من فوق رأسه قبعةُ الكهنة الطويلة.

كانت سيماء السطوة بادية عليه وبين يده تدلَّى خطابٌ دقَّ بختم الملك الشمعي الأحمر.

بابتسامة لزجة قال لتورس: كل شيء جاهز كما طلبت يا سيدي.

ثمَّ ناوله ورقة فأخذها تورس، وراح يقرأ ما فيها وأماراتُ السعادة والنشوة ترتسم على وجهه، ونظر له تورس بعينٍ ملتمعة ومدَّ له صرة ملأت عن آخرها بالقطع الذهبية، ثمَّ قال: هذه أوَّلُ دفعة كما وعدتك، والباقي بعد إتمام المهمة.

***

فرانك

مشى فرانك بين دهاليز القصر بعصبية بعد أن قرأَ رسالة الكشافة التي تفيد أنَّ قوات العدو قد اجتمعت في فيلينا التي خانت ولائها لهم، ثمَّ مرَّ بجوار غرفة ديانا _التي كان صوت سعالها يتسلل من خلف الباب دون توقف_ ومنها وصل إلى غرفة الاجتماعات التي كان ينتظره فيها قائد

الجنود (السيد ويزِل) وبعض المسؤولين عن اقتصاد أماليثيا وإقليم الجنوب عمومًا.

جلس في المكان الذي تركه نيكولاس خاويًا؛ لعجزه عن أداء مهامه فقد أكل الهرم جسده وأجهزَ الحزن على فؤاده فلم يُبق منه سوى كتلة لحمية، ترتاحُ على كرسيها الخشبي، منتظرةً آفات الأرض لتأكلها.

قال فرانك بنبرةٍ عملية: تقاريركم يا سادة.

مال ويزِل إلى الأمام قليلًا، وقال بخوفٍ حقيقي طُبِع على نبرته: أخشى أنها لا تحمل سوى الأنباء السيئة.

ثمَّ وقف، وبدأ يحدثهم قائلًا: تعلمون ما بدرَ من فيلينيا، ولم يصلنا شيء من غانيميل حتى الآن و..

سكت برهة ناظرًا نحو الطاولة قبل أن يلتفت إلى فرانك قائلًا: نحن وحدنا في هذه الحرب.

وقف السيد مايلز غانيميل مسؤول الحبوب، ثمَّ قال: سيدي، أعتقد أنَّ ما بدر من فيلينيا متوقع لكن عائلتي!!

أنت تعلم مدى ولائنا لكم.

- أعلم ذلك ولا أشكِّك فيكم أبدًا؛ فواحدٌ منكم قد ائتمنته على ابنتي بعد كل شيء.

تذكر أمر لورنس؛ فسأل الحارس على الباب قائلًا: هل أرسلتم في طلب لورنس؟

- إنه في رحلة صيد منذ عدة أيام يا سيدي، وقد أرسلنا رسالةً إلى كوخ صيده في الغابة.

تنهَّد فرانك، وقال في نفسه: كلاوديا.

جلس مايلز إلى كرسيه، ثمَّ قال: لقد أرسلنا خطًا من جنودنا أمام النهر الأحمر بتوصية من السيد ويزل لتأمين المياه.

سكت برهة، ثم تابع ناظرًا في أعينهم جميعًا: إذا أمننا مصدرًا للمياه يمكنُنا أن نغلق أبواب المدينة، وإن التجأوا للحصار سيكون النصر حليفنا.

قال فرانك بصوت خافت: هذا أفضل احتمالاتنا على ما أعتقد.

لم يكمل فرانك جملته إلا وقد اقتحم جندي الغرفة دون استئذان صائحًا: سيدي!

وقف فرانك في ذعر قائلًا: ماذا هناك؟

أخذ الجندي يلهث ويسعل بشدة؛ فناوله الحارس كأسًا من الماء كان على الطاولة، تجرَّع منه جرعات سريعة، ثمَّ قال بصوتٍ متقطع: لقد جُنَّ جنونهم في الخارج.

- ماذا تقول؟

- انظر بنفسك يا سيدي.

خرج فرانك راكضًا من الغرفة ومن خلفه السَّادة حتى وصلوا إلى ساحة القصر؛ فتجمدوا في أماكنهم وغمغم ويزل: ما الذي يحدث بحق الجحيم؟

رأوا أهالي أماليثيا حاملين مشاعلهم، ملتفين حول القصر، وتعالت صيحاتهم بغضب: خونة، اللعنة عليكم! الموت للخونة!

ثمَّ ألقى أحدهم شعلته نحو الساحة فسقطت مشعلة العشب من أسفلها.

صاح فرانك بويزل: اذهب بسرعة واجمع نيكولاس وديانا، ستجد إليا في غرفة والدتها.

صاح ويزل: ودريك؟

- لا بد أنه برفقة لورنس، ما الذي تنتظره؟! تحرك بسرعة!

فانطلق بسرعة نحو القصر، أما فرانك فقد اشتعلت رأسه كأفران الحدَّادين من فرط التفكير، ولم يدر ماذا يحدث أو ما الذي ينبغي عليه فعله الآن.

إنَّه الآن لا يواجه عدوًا بل هو أمام شعبه؛ فلم يجد بُدًا من الهرب، وهكذا على الأقل سيضمن حياته ومحاولةً أخرى للانتقام من الأفالون.

صاح في الحراس: أحكموا غلق البوابات، وأطفئوا النيران بسرعة.

ثمَّ أردف هادرًا فيهم: سنغادر القصر يا رجال، بسرعة...بسرعة.

همَّ مايلز بالاتجاه نحو الباحة الأمامية ليُساعِد فرانك والبقية في إخلاء القصر إلا أنه صدم بأهل المدينة قد قفزوا عبر الأسوار الجانبية، مستخدمين سلالم خشبية بدائية الصنع، ثم بدأوا يملؤون حرم القصر الصغير شيئًا فشيئًا، وقد حمل بعضهم الأخشاب الطويلة والمناجل، وبعض السيوف الصدئة.

اقتربوا منهم حتى حاصروهم، ثمَّ همَّ أحد الحراس أن يهوي بسيفه على رجل منهم فصاح فيه فرانك: توقف!

عمَّ سكونٌ قاتل للحظات قبل أن يقول فرانك بصوتٍ شابته بحَّة خفيفة: ألقوا بأسلحتكم يا رجال.

ثمَّ غمغم: أفضِّل أن أموت على أن أقتل بني جلدتي.

فألقى الفرسان أسلحتهم واحدًا تلو الآخر؛ فصاح الحشد بسرعة: قيدوهم.

وعلت صيحات الانتصار بينهم في شغف.

***

لورنس

طالما أحبَّ لورنس الصيد منذ صغره، وعمله السابق في الكشافة كان يجبره على المبيت في البراري كثيرًا فأصبح يمارسه بشكل دائم إلا إنه منذ انتقاله لأماليثيا وتركه لحياة جنود الكشافة والترحال افتقدَ تلك الهواية كثيرًا، لكنَّه لم يتوقف عن الصيد؛ فقد اشترى كوخ صيد صغيرًا

في الشَّمال الشرقي لأماليثيا يبعد عنها مسيرة يوم واحد، وكان يذهب إلى هُناك برفقة كلاوديا ودريك الذي تعلق به كثيرًا منذ ذهاب أخيه راين إلى العاصمة.

كانت الشَّمس ما تزال في منتصف السماء كاملةً كجوهرة تزيِّن أعناق الحسناوات، وقد ترك لورنس ودريك كلاوديا في الكوخ متجهين للغابة جنوبًا بالقرب من أماليثيا.

كان لورنس يعلمُ دريك استخدام رمي الأسهم للصيد.

- هناك يا دريك.

أشار لونس إلى غزالة لاحت أمامهما بين الحشائش الطويلة.

- ثبِّت جسدك وصوِّب نحوها.

رفع دريك قوسه موجهًا إيَّاه نحو الغزالة، وفي وهنٍ ترك السَّهم يطير نحوها فالتفتت له بسرعة وتحركت من مكانها لتنجو من رميته قبل أن تفرَّ من أمامهما؛ فاعتلت أمارات الحزن وجه دريك، فقال له لورنس مواسيًا: لا تقلق، ستجيد الأمر مع الوقت.

أكملا تحركهما جنوبًا فلاحظ لورنس أمرًا غريبًا، إنَّ أغلب الحيوانات اليوم تتجه شمالًا برعبٍ وقلق، وجال بباله أنَّ هذا لن يحدث دون مبرر فاشتعل القلق في صدره أكثر وأكثر.

***

نيكولاس

لم يكن نيكولاس مدركًا لكل ما حدث؛ فقد كان جالسًا على كرسيه الخشبي، ذا القوائم المقوسة، أمام المدفأة التي انطفأ دفأها وأكلت النار فيها الحطب حتى شبعت وتبخرت، شعر بضوضاء في الخارج فالتفتَ بجسده للخلف دون أن يقوى على الوقوف، وبعد وهلة هدأت الضوضاء قليلًا وراحت أصوات مهللة تعلو في الخارج لكن قلبه لسببٍ ما لم يكن مطمئنًا لما حدث؛ فراح ينادي الحرس خارج الغرفة بصوته المبحوح فلم يردَّ عليه أحد.

سمع صوتًا مكتومًا تسلَّل من خلف الباب قائلًا: إنه هنا.

فرد عليه آخر: احرسوه جيدًا حتى يصلوا.

كان يعلمُ أنَّه ترك الإقليم في وقت حرج، وخذل أبناء شعبه لكنَّه تبلد بعد كل ما قاساه فأصبح كمن مزق جسده شرَّ ممزق، فهل يعطيه طعنة أخرى؟

مرت الساعات وقد سئم البرد الذي راح ينخر عظامه، وأخذ يلعن شيخوخته التي أرقدته في مكانه كالرضع لا يستطيع أن يقضي أمرًا دون مساعدة من أحد، وعلت الهمهمات في الخارج متبوعة بأصوات خطوات معدنية كثيرة، ثم فُتح الباب وسمع أحدهم يسأل: أهذا هو؟

- نعم يا مولاي.

أغلق الباب قبل أن يتسلل إلى أذنه صوتَ احتكاك أخشاب بالأرض الصخرية، وتوقَّف بجانبه قبل أن يتبع بجلبة معدنية.

- أخبَروني أنك فقدت بصرك.

لم يرد نيكولاس، واحتفظ بنظرته الجوفاء محملقًا في العدم.

بسخريةٍ قال صاحب الصوت: كم كان ابنك شبيهًا بك.. قبل أن يعدم بالطبع!

كان نيكولاس يستمع للصوت محاولًا تخمين صاحبه دون جدوى، وكان عقله قد أصابه البطء فلم يعد يعلم ماذا حدث من حوله؛ فحبس تعابير وجهه بصعوبة خلف قناع خشبي، وبصوتٍ لعبت فيه الشيخوخة وأفقده الحزن لونه قال: ومن تكون؟

ضحك الرجل بصوت عالٍ، ثم قال: أنا تورون... الأمير تورون.

ابتسم نيكولاس بعفوية وقال: آه تورون الأهوج.. نعم، لقد تذكرتك، لقد اعتاد والدك مناداتك بذلك عندما كنت صغيرًا.

غضب تورون، واحمرَّ وجهه قبل أن يهدر فيه قائلًا: فلتسخر مني كثيرًا فبعد قليل سألحقك بولدك.

ضحك نيكولاس بصوته الأشيب قائلًا: إنَّ الموت لا يدخل مستأذنًا، ولا يطرق بابًا قبل ميعاده، وقد وفَّرت علي لتوك عناء هذين الأمرين.

ثمَّ سعل بقوة، وأطلق صدره صفيرًا أثناء محاولته التقاط أنفاسه، ثمَّ قال بصوت متقطع: وكما ترى فأنا رجل عجوز، طاعن في السن، ولقد وصلت لآخر طريق الحياة بالفعل، ولم يبق لي سوى بضع خطوات فشكرًا على التوصيلة القصيرة يا بني.

سمع صوته وهو ينهض باحتقان راميًا الكرسي بعرض الحائط، ثمَّ صرخ في الحراس خارج الباب قائلًا: أبعدوه عني قبل أن أخالف أوامر والدي.

غمغم نيكولاس: أرعنٌ بحق.

***

لورنس

استمر لورنس يهبط جنوبًا بخطواتٍ حثيثة وقد اختفت الحيوانات تقريبًا قبل أن تلوح أماليثيا أمامه في الأفق البعيد وقد صعدت منها أعمدة الدخان، وأخذت النِّيران تأكل صفوف البيوت في نهم، وتراجع قبل أن يرى دريك المدينة وجثا أمامه على ركبته، ثمَّ قال: دريك، يجب أن تعود إلى الكوخ حيث عمتك كلاوديا.

تبرَّم وجه دريك، ثمَّ قال له في تذمر: ولكننا لم نصطد شيئًا بعد.

- أعِدك أن نفعل غدًا، بسرعة هيا، تحرَّك قبل أن يحل الظلام.

ثمَّ سكت برهة، وقال: إذا فعلت كما أقول لك سآتيك بمفاجأةٍ عندما أعود.

انفرجَت أسارير وجه الفتى وصاح: حقًا!

- بالطبع، هيا بسرعة حتى لا أغير رأيي.

فالتفَت الفتى وأخذ يركض عائدًا إلى الكوخ، وبدأ لورنس يقتربُ من المدينة أكثر فأكثر حتى قاربت الشمس من المغيب، وعندها كان على مشارف أطراف المدينة.

ظهَرت علامات النَّهب واشتعلت ألسنةُ اللهب حوله في كل مكان، واختفى العامَّة من الناس تقريبًا، على الأقل الأحياء منهم؛ فجوانب الطُّرقات قد ملأت بالصرعى وراحت رائحةُ الجلد الذائب واللحم المحترق تملأ رئتيه رغمًا عنه، وعندما بلغ أحد الأزقَّة وجد فيها اثنين من الجنود وقد ارتديا درعين من الجلد وحمل أحدهما سيفًا معطوبًا والآخر فأسًا ذا حدٍ كليل؛ فثبت في مكانه بتوجُّس قبل أن يرياه؛ فانقضَّا عليه دون تفكير، وكان لورنس وقتها بلا دروع أو سلاح، فقط كان يحمل بلطته الصغيرة التي يأخذها معه في رحلات صيد.

هوَت أولى ضربات السيف تجاهه فرفع بلطته وضرب بها جانب السيف لينحرف مساره، قبل أن يهوي هو ببطلته على بطن الرجل لتشقَّها بسهولة، لكنه قبل أن يُدرِك وجد الجندي الآخر قد دفعه بقوة مستخدمًا كتفه فهوى لورنس أرضًا مُفلتًا بلطته إثر اصطدامه بالأرض، تقدَّم نحوه الرجل حاملًا فأسه فظنَّ لورنس أنَّها النهاية فلو هوى الرجل بفأسه عليه لطعنه طعنةً نجلاء، ولتسرَّبت الحياةُ منه بسهولة.

بدأ الوقتُ يمرُّ بشكل أبطأ عندما رفع الرجل يده قبل أن يمر سهم بجانب رأسه فالتفت في اتجاه السهم، واستغلَّ لورنس لحظة تشتته فأمسك بقدمه وسحبها نحوه بقوة؛ فهوى الرجل أرضًا على ظهره

وأخذ يصيح بتأفف، وبسرعة أمسك لورنس بلطته وانقضَّ عليه بلا تردد، قاطعًا عنقه قبل أن تسيل منها الدِّماء، مُعلنةً موته المؤكد.

أخذ لورنس يلهث ويسعل، وفي إعياءٍ نظر في الاتجاه الذي أتى منه السهم فإذا به دريك.

***

كلاوديا

في الصباح استيقظت كلاوديا لتجد لورنس ودريك يستعدَّان للذهاب لإكمال صيدهم في الغابة، وهذه المرة أخبرها لورنس أنَّهم سيجربون حظهم في الجنوب حيث تكثر الحيوانات، وبعد مضيهم أخذت ترتب الكوخ وتجهز الطعام بنشاط، لكنها ولسبب ما شعرت بتوجس كلما نظرت إلى الغابة، وأخذت تلحظُ بعض الحيوانات تركض شمالًا دون حتى الوقوف عند الكوخ، وهو ما كانت الحيوانات تفعله عادةً.

ومع تأخُّر الوقت واقتراب الشمس من المغيب أخذ القلق يغزو فؤادها، وشعرت أنَّ أمرًا ما قد حدث؛ ففي العادة كان ليأتي لورنس عند انتصاف الشَّمس لصفحة السَّماء حتى لو لم يصطادا شيئًا لكنه هذه المرة تأخر كثيرًا.

كانت تستعين بمسحوقٍ رمادي اللون، أعطاها أبوها إياه كلما ذهبت للصيد برفقة لورنس، وقد كان ذلك المسحوق يبعد الضواري عن الكوخ، وكان لورنس كثير السخرية منها عندما تشرع في رشه حول الكوخ معللًا أنَّها بحماية رجل، وأنها يجب ألا تخشى شيئًا طالما هو

بجانبها لكنَّه الآن بعيد عنها ومن حقها أن تخاف، وما زاد ذعرها الآن هو نفاد ذلك المسحوق.

جلست بجانب النافذة حتى حل الليل تمامًا وكان القلق قد نهش فؤادها فضلًا عن الرعب الذي طالها كلما رأت حركة بين الحشائش في الخارج؛ فأخذت تمسك بقلادتها بشدة ـوالتي كان جون قد أهداها إيَّاها قبل زواجهاـ وقد كانت نفسها تطمئِن لتلك القلادة، وتشعرها بقرب أخيها منها فيبث ذلك في نفسها شعورًا بالأمان.

تسلَّل إلى أذنيها صوت عواء ذئب بالقرب من الكوخ، تبعه صوت آخر ثم آخر؛ فارتعشت في مكانها وأخذت تصطك أسنانها وهي لا تملك سوى المراقبة.

أخذت الحشائش تهتزُّ بسرعة من حو ل الكوخ، وتنتقل الاهتزازات من مكان لآخر حتى خرجت أنف طويلة من بينها تشتمُّ الأجواء قبل أن يبرز ذئب رمادي أخذ يتقدم ببطء نحوها، ابتعدت عن النافذة سريعًا وأخذت تتراجع بذعر حتى التصق ظهرها بالحائط، ثمَّ وثب الذئب من النافذة خلفه مجموعة من الذئاب، أخذوا يقلبون أنظارهم في المكان قبل أن يتقدَّم أحدهم نحوها ببطء شديد.

سقطت كلاوديا أرضًا، وأخذت تكتم صوتها بصعوبة قبل أن يمرر الذئب أنفه متشممًا إيَّاها، ثم يهدر بغضب وينقض عليها، وعندها أنارت قلادتها فمُلئ المكان بنور ساطع حتى أنها لم تستطع تحمله فغطت عينها بيدها، ومن بين أصابعها أبصرت بصورةٍ مشوشة أخاها

جون بمعطفه الأسود يحرك يده في الهواء قبل أن يشتد الضوء حدة فلا تقوى إلا على غلق عينيها، وأثناء ذلك سمعت أصوات عواءٍ مكتوم للذئاب واحدًا تلو الآخر قبل أن يبدأ الضوء بالخفوت شيئًا فشيئًا.

وعندما فتحت عينها صاحت: جون!

لكنَّها لم تجد أمامها سوى جثث الذئاب المقطعة إلى أشلاء؛ فرفعت القلادة أمام عينيها فإذا بالعقيق الأحمر قد برز فيه شقٌ كبير فضمت القلادة إلى صدرها وأخذت تبكي.

***

لورنس

أخذ لورنس ينظرُ إلى دريك غير مدركٍ لما حدث؛ فركض نحوه وقال بغضبٍ مصطنع: لماذا أتيت إلى هنا؟!

غالب الفتى دموعه وقال: رأيتُ المدينة تحترق من بعيد؛ فخفت عليك وظننت أن أبي وأمي قد أصابهما مكروه فتبعتُك دون أن تدري لئلا تغضب مني.

عانقه لورنس شاكرًا في نفسه براءَة الأطفال التي أنقذته، وفكَّر أنه لا مفرَّ من أخذِ دريك معه؛ فالفتى لن يستطيع أن يحمي نفسه إذا اعترضه أي من ضواري الغابة شمالًا نحو الكوخ.

ابتسم له لورنس قائلًا: لا تقلق، سنذهب لتفقد حالهم.

اتسعت عينا الفتى ببراءة، وقال: حقًا؟!

أومأ له لورنس إيجابًا قبل أن يتجه نحو جثة الجنديين بسرعة فلم ير أي شعارٍ عليهما، لكنه أبصر حقيبة صغيرة تدلَّت من خصر أحدهم ففكر أن فيها ما قد يفيده، فتناولها فاتحًا إيَّاها وأخذ يقلب محتوياتها حتى وجد ورقةً صفراء غريبة كانت أشبه بملصقات المطلوبين، ففتحها وبدأ يقرأ:

إلى كل سكان المملكة عامةً وسكان إقليم الجنوب خاصة، لقد خلصت عدالة ملكنا الجليل بما لا يدع مجالًا للشك أنَّ آل فالكون وعلى رأسهم نيكولاس سيدهم قد خططوا لمؤامرة ضد المملكة، وقد كان أولها محاولة الخائن راين فالكون اغتيال الأميرة فيورا.

ثم إنه قد بلغنا من كبير كهنة الجنوب أنه قد تحصَّل على خطابات للسيد نيكولاس يخاطب فيها الممالك الخضراء ليعدهم فيها بأراضي ومقاطعات في مملكتنا الحبيبة بعد إتمام مؤامرته إذا عاونوه فيها، ولما واجهه بها لم ينكر، بل حاول إغواءه لكنه لم يكن أبدًا ليقدم ولاءه لهؤلاء الخونة على مصلحة البلادة العامة.

وعليه فببركة كاهننا الأكبر وعدالة ملكنا المحبوب فإنه من يقبض على أي أحد من آل فالكون حيًا فسيُمنح لقب سيد، وينضم إلى النبلاء، وسيعطى من المكافآت ما هو مجزٍ حتى لو كان من أهل الجنوب.

طوى لورنس الورقة في صدمة وحاول كتم دموعه قدر المستطاع، ثم جذب دريك من يده وقد عزم على الذهاب إلى القصر متخفيًا كي يُنقِذ

نيكولاس وباقي عائلته، وكان هناك محل للملابس الرديئة لم تأكله النار بعد وقد تبعثرت محتوياته أرضًا في كل الاتجاهات.

وبسرعة تناول لورنس عباءتين بلونين مختلفين، وألبس دريك عباءته قبل أن يفعل هو المثل، وقد كان حريصًا على تغطية رأس كل منهما بقلنسوة العباءة حتى لا يعلم أحد هويتهما، وبدأ يمشي بخطوات حثيثة نحو منتصف المدينة حيث ساحة أماليثيا التي يقع فيها بيت فرانك، وكلما اقترب من المنتصف لاحظ ازدياد أعداد العامة والمحاربين على حد سواء.

ولما وصل إلى الساحة وجدها قد اكتظت عن آخرها؛ فبدأ يشق الحشود بصعوبة ومعه دريك حتى علا صوتُ بوق أسكت الجميع، وقد لمح منصة منصوبة في منتصف الساحة على ارتفاع ليراها الكل، تسارعت دقات قلبه عندما وجد فرسان الأفالون على المنصة، وصاح في نفسه: الصبر يا لورنس!

علا صوت أحد الجنود قائلًا: بأمر ملكنا العادل يتم عزل نيكولاس من ولاية الجنوب وتولية ابنته إليا مكانه، وحيث أن المرض قد فتك بالسيدة ديانا ولا يوجد لها أقارب فقد تم تعيين السيد هنري تورس وصيًا عليها، وعلا صوت البوق مرة أخرى قبل أن يتجمد، وتندفع الدماء إلى وجهه صابغةً إياه باللون الأحمر عندما وجد فرانك ونيكولاس مُكبلين وقد صعدا لأعلى المنصة.

ربطت الحبال سريعًا في الأعمدة الخشبية المثبتة على ظهر المنصة قبل أن يصيح الجندي: بأمر جلالته يعدم هؤلاء الخونة؛ لتآمرهم ضد المملكة وخيانة أرضهم.

كان الحشد أمام المنصة صامتًا كالتماثيل الصَّماء؛ فبرغم حنق بعضهم على آل فالكون إلا إن أحدًا منهم لا يستطيع إنكار حرصهم على توفير حياةٍ كريمة لهم فكانوا جميعًا يراقبون المنصة بنظراتٍ متجهمة.

نظر لورنس بجانبه فلم ير دريك، وراح الفتى يشق الصفوف تجاه المنصة فلحق به لورنس بصعوبة جاذبًا إياه من يده، كاتمًا فمه كيلا يصيح ويفضح نفسه لكنه أغفل عيني الفتى فرأى وبشكل واضح الكراسي وقد دفعت من أسفل قدمي أبيه وعمه، وتدلَّت أجسادهم تترنَّح في الهواء بحركات تشنجية كأسماكٍ أخرِجت من الماء حتى سكنت حركتهما تمامًا.

تجمَّد الفتى، ولم يكن لورنس ذو حظٍ أطيب منه إلا أنَّه تدارك نفسه، وحمل دريك ضامًا إياه إلى صدره، راكضًا خارج الساحة التي علت منها أصوات التهليل والاحتفال، واستمرَّ بالركض دون توقف حتى بلغ أطراف المدينة مع بداية الغابة؛ فشعر بدفء عبراتِ دريك تغمر صدره، ولربَّما أحسَّ دريك أنها نهاية مصيرة لكنَّه لم يعلم أن الأرض كانت فقط ترحب به، وأنَّها البداية لا أكثر.

تمَّت بحَمد الله

الفهـرس

حياة مسالمة	٩
ماضٍ أليم (١)	٢٩
ماضٍ أليم (٢)	٥٧
ماضٍ أَلِيم (٣)	١١١
أراضي الظل	٢٦١